Ibn Qayyim al-Jawziyah Muhammad
" ibn Abī Bakr

التبيان

في

أقسام القرآن

للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١

صححه وعلق هوامشه الفقير الى الله تعالى

محمد حامد الفقي

من علماء الأزهر الشريف

/Tibyān fī aqsām al-Qur'ān/

الناشر

دار المعرفة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

﴿ فهرست كتاب التبيان فى أقسام القرآن للعلامة ابن القيم ﴾

صفحة		رقم الفصل
٢٣٠	فصل لا يدرك القرآن الا القلوب الطاهرة	٦٠
٢٣١	« مايفيده قوله (تنزيل من رب العالمين)	٦١
٢٣٤	« توبيخه تعالى المشركين لوضعهم الادهان في غير موضعه	٦٢
٢٣٦	« ختام سورة الواقعة بأحوال القيامة الصغري	٦٣
٢٤٠	« طبقات الناس عند الحشر	٦٤
٢٤٢	« قوله تعالى (والنجم اذا هوى)	٦٥
٢٤٦	« « « (وماينطق عن الهوى ان هو الاوحى يوحى)	٦٦
٢٤٩	« صفات معلم الوحى	٦٧
٢٥١	« رؤية الرسول ﷺ كانت لجبريل	٦٨
٢٥٣	« رؤيته مرة ثانية عند سدرة المنتهى	٦٩
٢٦١	« معنى قوله (مازاغ البصر وماطغى)	٧٠
٢٦٢	« أنواع الاستطراد وأمثلته من الكتاب العزيز	٧١
٢٦٤	« قوله تعالى (والطور وكتاب مسطور)	٧٢
٢٧٠	« المقسم عليه فى هذه السورة	٧٣
٢٧٢	« نعيم ارباب العلوم النافعة	٧٤
٢٧٦	« من كمال نعيمهم إلحاق ذرياتهم بهم	٧٥
٢٧٨	« قوله تعالي (والذاريات ذروا)	٧٦
٢٨١	« الكلام على السحاب وجهة دلالته على قدرة الله	٧٧
٢٨٤	« قوله تعالي (فالمقسمات أمرا) وبيان من هم	٧٨
٢٨٨	« المقسم عليه وهو قوله (انكم لفى قول مختلف)	٧٩
٢٩١	« جزاء من خلص من الفتن بالتقوى	٨٠

صفحة			رقم الفصل
٢٩٣	فصل	أحب القيام الى الله	٨١
٢٩٥	«	آياته تعالى فى الآفاق وفى الأنفس	٨٢
٢٩٧	«	اختلاف الآيات فى أجناسها وصفاتها ومنافعها	٨٣
٣٠٣	«	السر في تبصير الله تعالي العباد بأنفسهم	٨٤
٣٠٥	«	العينان ووظيفتهما	٨٥
٣٠٦	«	الاذنان وسر شقهما فى جانبي الوجه	٨٦
٣٠٧	«	الانف وسر نصبه فى وسط الوجه قائما معتدلا	٨٧
٣٠٩	«	الفم وأنه من العجائب	٨٨
٣١٠	«	اللسان والصلة بينه و بين القلب	٨٩
٣١١	«	سر خلقه تعالي اللسان عضوا لاعصب فيه ولا عظم	٩٠
«	«	الاسنان والشفتان ووظيفتهما	٩١
٣١٢	«	سر جعل الفم اكثر الاعضاء رطوبة . وفائدة اللعاب	٩٢
٣١٤	«	العبرة من حال الشعر ومنابته	٩٣
٣١٦	«	الحاجبان وأنهما وقاية العين مع الحسن والزينة	٩٤
٣١٧	«	شعر اللحية وأنه زينة ووقار	٩٥
«	«	شعر الانف والابط ومنافعهما	٩٦
٣١٨	«	حكمة الرب تعالى فى اخلاء الكفين والجبهة من الشعر	٩٧
٣٢٥	«	حال الانسان من مبدئه الى نهايته	٩٨
٣٢٧	«	حرارة الجسد و إلهابها الشهوة والسر العجيب فى ذلك	٩٩
٣٣٤	«	الكلام فى ماء المرأة وصفته ووظيفته في تكوين الجنين	١٠٠
٣٣٧	«	سبب تفاوت مدة الحمل	١٠١

صفحة		رقم الفصل
٤١١	فصل القلب ملك البدن ومعدن الحرارة الغريزية	١٣٩
٤١٢	« الصدر معدن العلم والحلم	١٤٠
٤١٦	« جنود القلب وأبوابه وطرقه	١٤١
٤١٧	« حال القلب مع الملك والشيطان	١٤٢
٤١٨	« المام الشيطان بالقلب	١٤٣
٤٢٠	« كيف يطرق الشيطان قلبك . وكيف تدفعه ؟	١٤٤
٤٢١	« ثم قال الله تعالى (وفى السماء رزقكم)	١٤٥
٤٢٢	« قوله تعالى (فورب السماء والارض انه لحق)	١٤٦
٤٢٥	« ومن ذلك قوله (ق والقرآن المجيد)	١٤٧
٤٢٦	« « « (حم والكتاب المبين)	١٤٨
٤٢٧	« « « (والصافات صفا)	١٤٩
٤٢٨	« قصة لوط عليه السلام مع قومه	١٥٠
٤٣٠	« قوله تعالى (فلا ، وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ـ الآية)	١٥١

« انتهى الفهرست ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده »

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه أستعين)

الحمد لله رب العالمين (والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه)

(١) فصل

فى أقسام القرآن (١)

وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور . وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته ، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته . وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته

فالقسم إما على جملة خبرية — وهو الغالب — كقوله تعالى (٥١ : ٢٣ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ) وإما على جملة طلبية ، كقوله تعالى(١٥ : ٩٢ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

---

(١) هذا الابتداء على غير ما يعرف من عادة ابن القيم رحمه الله . فربما كان هذا جزءا من كتاب . والله أعلم

مع أن هذا قد يراد به تحقيق المقسم عليه ، فيكون من باب الخبر . وقد يراد به تحقيق القسم

والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه . فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك ، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها . فأما الأمور الظاهرة المشهورة ، كالشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار والسماء ، والارض ، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها

وما أقسم عليه الرب فهو من آياته . فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس

وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة ، وهو الغالب . وتارة يحذفه . كما يحذف جواب لو كثيرا . كقوله تعالى (١٠٢ : ٥ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) وقوله (١٣ : ٣١ ولَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ) (٨ : ٥٠ ولَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ) (٣٤ : ٥١ ولَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ) (٦ : ٣٠ ولَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ) ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام ، لأن المراد أنك لو رأيت ذلك لرأيت هولا عظيما ، فليس فى ذكر الجواب زيادة على مادل عليه الشرط . وهذه عادة الناس فى كلامهم ، إذا رأوا أمورا عجيبة وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها يقول أحدهم : لو رأيت ماجرى يوم كذا

بموضع كذا ؟ ومنه قوله تعالى ٢ : ١٦٥ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) فالمعنى فى أظهر الوجهين : لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا اذ يرون العذاب فى الآخرة ، والجواب محذوف : ثم قال : (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً) كما قال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ) (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلاَئِكَةُ) أى لو ترى ذلك الوقت وما فيه

وأما القسم . فان الحالف قد يحلف على الشىء ثم يكرر القسم ، فلا يعيد المقسم عليه ، لأنه قد عرف ما يحلف عليه . فيقول : والله ان لى عليه الف درهم ، ثم يقول : ورب السموات والأرض ، والذى نفسى بيده ، وحق القرآن العظيم ، ولا يعيد المقسم عليه . لأنه قد عرف المراد

والقسم لما كان يكثر فى الكلام اختصر ، فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ، ثم عوض من الباء الواو فى الأسماء الظاهرة والتاء فى أسماء الله كقوله (٢١ : ٥٧ وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ) وقد نقل : ترب الكعبة . وأما الواو فكثيرة

(٢) فصل

إذا عرف هذا . فهو سبحانه يُقْسِم على أصول الايمان ، التى يجب

على الخلق معرفتها ، تارة يقسم على التوحيد ، وتارة يقسم على أن القرآن حق ، وتارة على أن الرسول حق ، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، وتارة على حال الانسان

فالأول كقوله (٣٧ : ١ والصَّافَّاتِ صَفّاً ٢ فالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ٣ فالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ٤ إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ) والثانى كقوله (٥٦ : ٧٥ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ٧٦ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٧ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) وقوله (٤٤ : ١ حم ٢ والْكِتَابِ الْمُبِينِ ٣ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) (٤٣ : ١ حم ٢ والْكِتَابِ الْمُبِينِ ٣ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً) إذا جعل ذلك جواب القسم كما هو الظاهر ، وإن قيل : بل الجواب محذوف كان كقوله : (٣٨ : ١ ص والقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ) فانه هنا حذف الجواب . ومن قال : ان الجواب هو قوله (٦٤ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) فقد أبعد النُّجعة

والقسم على الرسول كقوله (٣٦ : ١ يس ٢ والقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٣ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٤ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) اذا قيل هو الجواب . وان قيل الجواب محذوف كان كما ذكر . ومنه (٦٨ : ١ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ٢ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٣ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً

غَيْرُ مَمْنُونٍ) ومنه (٥٣ : ١ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ٢ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ٣ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) إلى آخر القصة ، ومنه قوله (٦٩ : ٣٨ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٩ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٤٠ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤١ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ) وقوله (٨١ : ١٥ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ١٦ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٧ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٨ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٢٠ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ)

وأما القسم على الجزاء والوعد والوعيد ففي مثل قوله (٥١ : ١ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ٢ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ٣ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ٤ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ٥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ٦ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) ثم ذكر تفصيل الجزاء وذكر الجنة والنار ، وذكر أن في السماء رزقهم وما يوعدون . ثم قال (٢٣ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) ومثل قوله (٧٧ : ١ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ٢ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ٣ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ٤ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ٥ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ٦ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ٧ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) ومثل (٥٢ : ١ وَالطُّورِ ٢ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ٣ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ٤ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٥ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٦ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٨ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ)

وقد أمر نبيه أن يقسم على الجزاء والمعاد فى ثلاث آيات .
فقال تعالى (٦٤ : ٧ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا . قُلْ : بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ) وقال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ : بَلَى ، وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وقال تعالى (١٠ : ٥٣ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) وهذا لأن المعاد إنما يعلمه عامة الناس بأخبار الأنبياء ، وان كان من الناس من قد يعلمه بالنظر . وقد تنازع النظار فى ذلك ، فقالت طائفة انه لا يمكن علمه الا بالسمع ، وهو الخبر ، وهو قول من لا يرى تعليل الافعال ، ويقولون لا ندرى ، ما يفعل الله الا بعادة أو خبر . كما يقوله جهم بن صفوان ومن اتبعه ، والاشعرى وأتباعه ، وكثير من أهل الكلام فى الفقه والحديث من أتباع الأئمة الأربعة . بخلاف العلم بالصانع . فان الناس متفقون على أنه لا يعلم الا بالعقل ، وان كان ذلك مما نبهت الرسل عليه . وصفاته قد تعلم بالعقل ، وتعلم بالسمع أيضاً . كما قد بسط فى موضع آخر

وأما القسم على أحوال الانسان فكقوله (٩٢ : ١ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ٢ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ٣ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ٤ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) الآية . ولفظ السعى هو العمل . لكن يراد به العمل الذى يهتم به

صاحبه ويجتهد فيه بحسب الامكان . فان كان يفتقر الى عَدْوٍ بدنه عدا ، وان كان يفتقر الى جمع أعوانه جمع ، وان كان يفتقر الى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك . فلفظ السعى فى القرآن جاء بهذا الاعتبار ، ليس هو مرادفا للفظ العمل ، كما ظنه طائفة . بل هو عمل مخصوص ، يهتم به صاحبه ويجتهد فيه . ولهذا قال فى الجمعة (٦٢ : ٩ فاسْعَوْا الى ذِكْرِ اللهِ) وهذه أحسن من قراءة من قرأ (فامْضُوا الى ذِ كْرِ اللهِ) وقد ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « اذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، وائتوها تمشون ، وعليكم السكينة . فما أدركتم فصلوا . وما فاتكم فأتموا (١) » فلم ينه عن السعى الى الصلاة فان الله أمر بالسعى اليها ، بل نهاهم أن يأتوا اليها يسعون ، فنهاهم عن الاتيان المتصف بسعى صاحبه ، والاتيان فعل البدن ، وسعيه عَدْوُ البدن ، وهو منهى عنه . وأما السعى المأمور به فى الآية فهو الذهاب اليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة ، من بيع وغيره ، والاقبال بالقلب على السعى اليها . وكذلك قوله فى قصة فرعون لما قال له موسى (٧٩ : ١٨ هَلْ لَكَ إلى أنْ تَزَكَّى ١٩ وَأهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فَتَخْشَى ٢٠ فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى ٢١ فَكَذَّبَ وَعَصَى ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ٢٣ فَحَشَرَ فَنَادَى) فهذا اهتمام واجتهاد فى حشر رعيته ومناداته فيهم . وكذلك قوله

---

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢: ٢٠٥ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا) هو عمل بهمة واجتهاد ومنه سمي الساعي على الصدقة ، والساعي على الأرملة واليتيم . ومنه قوله (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) وهو العمل الذى يقصده صاحبه ويعتنى به ، ليترتب عليه ثواب أو عقاب ، بخلاف المباحات المعتادة ، فانها لم تدخل فى هذا السعى . قال تعالى (٩٢: ٥ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٦ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٧ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٨ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٩ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ١٠ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) ومنه قوله تعالى (١٧ : ١٩ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) وقوله (٥ : ٣٣ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا)

(٣) فصل

وأقسم على صفة الانسان بقوله (١٠٠ : ١ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ٢ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ٣ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ٤ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ٥ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ٦ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) وأقسم على عاقبته ، وهو قسم على الجزاء . فى قوله (١٠٣ : ١ وَالْعَصْرِ ٢ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٣ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) وفى قوله (٩٥ : ١ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ٢

وَطُورِ سِينِينَ ٣ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٤ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٥ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٦ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

وحذف جواب القسم، لانه قد علم بأنه يقسم على هذه الأمور، وهي متلازمة. فمتى ثبت أن الرسول حق ثبت القرآن والمعاد. ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به. ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدقه وصدق الكتاب الذي جاء به

والجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره، بل يراد تعظيم المقسم به. وأنه ما يحلف به. كقول النبي صلى الله عليه وسلم «من كان حالفاً فَلْيَحْلِفْ بالله أو ليصمت» [1] ولكن هذا يذكر معه الفعل، دون مجرد حرف القسم. كقولك: فلان يحلف بالله وحده، وأنا أحلف بالخالق لا بالمخلوق، ونحو ذلك. والنصراني يحلف بالصليب والمسيح، وفلان أكذب ما يكون اذا حلف بالله

وقد يكون هذا النوع بحرف القسم مجردا، كما في الحديث: كانت أكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا، ومقلب القلوب» [2]

---

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما

(٢) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر

وكان بعض السلف اذا اجتهد في يمينه قال: والله الذي لا إله إلا هو ؛ وتارة يحذف الجواب وهو مراد ، إما لكونه قد ظهر وعرف ، إما بدلالة الحال كمن قيل له كُـلْ . فقال لا ، والله الذي لا إله إلا هو . أو بدلالة السياق ، وأكثر ما يكون هذا اذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه ، وهي طريقة القرآن ، فان المقصود يحصل بذكر المقسم به ؛ فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز . كمن أراد أن يقسم على أن الرسول حق . فقال: والذي أرسل محمداً بالهُـــدَى ودين الحق وأيده بالآيات البينات ، وأظهر دعوته ، وأعلى كلمته ونحو ذلك فلا يحتاج الى ذكر الجواب ، استغناء عنه بما في القسم من الدلالة عليه ، كمن أراد أن يقسم على التوحيد وصفات الرب ، ونعوت جلاله . فقال : والله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، وكمن أراد أن يقسم على علوه فوق عرشه . فقال : والذي استوى على عرشه فوق سمواته يصعد اليه الكلم الطيب ، وترفع اليه الأيدي ، وتعرج الملائكة والروح اليه ، ونحو ذلك . وكذلك من حلف لشخص أنه يحبه ويعظمه . فقال : والذي ملأ قلبي من محبتك واجلالك ومهابتك ؛ ونظائر ذلك – لم يحتج الى جواب القسم . وكان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه . فمن هذا قوله تعالى (صٓ وَالقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) فان في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر ، المتضمن

لتذكير العباد مايحتاجون اليه ، وللشرف والقدر ، مايدل على المقسم عليه ، وكونه حقا من عند الله ، غير مفترى ، كما يقوله الكافرون . وهذا معنى قول كثير من المفسرين - متقدميهم ومتأخريهم : ان الجواب محذوف ، تقديره : ان القرآن لحق . وهذا مطرد فى كل ماشأنه ذلك . وأما قول بعضهم : ان الجواب قوله تعالى (٣ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ) فاعترض بين القسم وجوابه بقوله (٢ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) فبعيد ، لأن «كم» لا يتلقى بها القسم ، فلا تقول : والله كم أنفقت مالا . وبالله كم أعتقت عبدا . وهؤلاء لما لم يخف عليهم ذلك احتاجوا أن يقدروا مايتلقى بها الجواب ، أى لكم أهلكنا . وأبعد من هذا قول من قال : الجواب فى قوله (١٤ إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ) وابعد منه قول من قال : الجواب (٥٤ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ) وابعد منه قول من قال : الجواب قوله (٦٤ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) وأقرب ما قيل فى الجواب لفظاً ، وان كان بعيداً معنى ، عن قتادة وغيره : انه فى قوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا) كما قال (٥٠ : ١ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ٢ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) وشرح صاحب النظم هذا القول . فقال : معنى «بل» توكيد الخبر الذى بعده فصار كإنَّ الشديدة فى تثبيت مابعدها . وقيل هنا بمنزلة إن ، لأنه

يؤكد مابعده من الخبر ، وان كان له معنى سواه فى نفى خبر متقدم ، فكأنه عز وجل قال : صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ، كما تقول : والله ان زيدا لقائم . قال : واحتج صاحب هذا القول بأن هذا النظم وان لم يكن للعربية فيه أصل ، ولا لها رسم ، فيحتمل أن يكون نظما أحدثه الله عز وجل ، لما بينا من احتمال (أن تكون) « بل » بمعنى ان . اهـ

وقال أبو القاسم الزجاج ، قال النحويون : ان « بل » تقع فى جواب القسم ، كما تقع إن ، لأن المراد بها توكيد الخبر . وهذا القول اختيار أبى حاتم ، وحكاه الاخفش عن الكوفيين . وقرره بعضهم بأن قال : أصل الكلام ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ، والقرآن ذى الذكر . فلما قدم القسم ترك على حاله . قال الاخفش : وهذا يقوله الكوفيون ، وليس بجيد فى العربية . لو قلت : والله قام ، وأنت تريد قام والله . لم يحسن . وقال النحاس : هذا خطأ على مذهب النحويين ، لأنه اذا ابتدأ بالقسم وكان الكلام معتمدا عليه لم يكن بد من الجواب . وأجمعوا أنه لايجوز : والله قام عمرو ، بمعنى قام عمرو والله . لان الكلام يعتمد على القسم . وذكر الأخفش وجها آخر فى جواب القسم ، فقال : يجوز أن يكون لصاد معنى يقع عليه القسم ، لاندرى نحن ماهو . كأنه يقول : الحق والله .

قال أبو الحسن الواحدى : وهذا الذى قاله الاخفش صحيح المعنى على قول من يقول (ص) الصادق الله ، أو صدق محمد . وذكر الفراء هذا الوجه أيضاً . فقال : (ص) جواب القسم . وقال : هو كقولك وجب والله ، وترك والله ، فهى جواب لقوله (والقرآن) وذكر النحاس وغيره وجها آخر فى الجواب . وهو انه محذوف تقديره : والقرآن ذى الذكر ، فالامر كما يقوله هؤلاء الكفار . ودل على المحذوف قوله تعالى (بل الذين كفروا) وهذا اختيار ابن جرير ، وهو مخرج من قول قتادة . وشرحه الجرجانى ، فقال «بل» رافع لخبر قبله ومثبت لخبر بعده . فقد ظهر مابعده وظهر ماقبله ، ومابعده دليل على ماقبله . فالظاهر يدل على الباطن ، فاذا كان كذلك وجب أن يكون قوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) مخالفاً لهذا المضمر ، فكأنه قيل : والقرآن ذى الذكر إن الذين كفروا يزعمون أنهم على الحق ، أو كل مافى هذا المعنى . فهذه ستة أوجه سوى ما بدأنا به فى جواب القسم . والله أعلم

ونظير هذا قوله تعالى (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا) قيل جواب القسم (قَدْ عَلِمْنَا) وقال الفراء : محذوف ، دل عليه قوله (أَإِذَا مِتْنَا) أى لتبعثن . وقيل قوله (بل عجبوا) كما تقدم بيانه

(٥) فصل

ومن ذلك قوله (٧٥ : ١ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ٢ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) فقد تضمن الاقسام ثبوت الجزاء ، ومستحق الجزاء . وذلك يتضمن اثبات الرسالة ، والقرآن ، والمعاد . وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ، ويقررها أبلغ التقرير ، لحاجة النفوس الى معرفتهما ، والايمان بها . وأمر رسوله أن يقسم عليها ، كما قال تعالى (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ : أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ : إِي ، وَرَبِّي ، إِنَّهُ لَحَقٌّ) وقال تعالى (٣:٣٤ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ . قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ . وقال تعالى (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا . قُلْ : بَلَى ، وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها . يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة ، والقرآن ، والمعاد

فأقسم سبحانه لعباده ، وأمر أصدق خلقه ان يقسم لهم ، وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه ، فأبى الظالمون الا جحودا وتكذيبا

واختلف فى النفس المقسم بها ههنا ، هل هى خاصة أوعامة ؟ على

قولين ، بناء على الأقوال الثلاثة فى اللَّوَّامة . فقال ابن عباس : كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانا . ويلوم المسىء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته . واختاره الفراء . قال : ليس من نفس ، برة ولا فاجرة ، الا وهى تلوم نفسها . ان كانت عملت خيراً قالت : هلا ازددت خيراً ؟ وان كانت عملت سوءا . قالت : ياليتنى لم أفعل

والقول الثانى ، أنها خاصة . قال الحسن : هى النفس المؤمنة ، وان المؤمن ـ والله ـ لاتراه الا يلوم نفسه على كل حالة ، لأنه يستقصرها فى كل ماتفعل ، فيندم ويلوم نفسه ، وإن الفاجر يمضى قُدُما ، لايعاتب نفسه

والقول الثالث ، أنها النفس الكافرة وحدها ، قاله قتادة ومقاتل . وهى النفس الكافرة تلوم نفسها فى الآخرة على مافرطت فى أمر الله

قال شيخنا(١) : والاظهر أن المراد نفس الانسان مطلقا . فان نفس كل إنسان لوامة ، كما أقسم بجنس النفس فى قوله (٩١ : ٧ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٨ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) فانه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو

---

(١) هو شيخ الاسلام الامام المجتهد المطلق ، تقى الدين احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية . ولد سنة ٦٦١ . وتوفى سنة ٧٢٨ رحمه الله ورضى عنه

غيره على أمر. ثم هذا اللوم قد يكون محمودا وقد يكون مذموما، كما قال تعالى (٦٨ : ٣٠ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ٣١ قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ) وقال تعالى (٥ : ٥٤ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) فهذا اللوم غير محمود. وفى الصحيحين فى قصة احتجاج ادم وموسى «أتلومنى على أمر قدّره الله علىّ قبل أن أخلق؟» فحجّ آدم موسى (١) فهو سبحانه

---

(١) رواه البخرى فى عدة أبواب، قال الحافظ فى الفتح (١١ : ٤٠٧) قال ابن عبد البر : هذا الحديث ثابت بالاتفاق. رواه عن أبى هريرة جماعة من التابعين. وروى عن النبي صلي الله عليه وسلم من وجوه أخرى من رواية الثقات الاثبات اه. قال الحافظ : وقع لنا من طريق عشرة عن أبى هريرة، وهو عند مسلم والنسائى والترمذى وابن خزيمة وأحمد من عدة طرق. وهو عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم عند أبي داود وأبي عوانة. وعن جندب بن عبد الله عند النسائى وعن أبى سعيد عند البزار. اه باختصار. وقد أطال الحافظ فى شرحه والكلام على مافيه من الفوائد. قال ابن عبد البر : هذا الحديث أصل عظيم لاهل الحق فى اثبات القدر، وان الله قضى أعمال العباد، فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق فى علم الله. وليس فيه حجة للجبرية وان كان فى بادىء الرأى يساعدهم. وقال القرطبي : انما غلبه بالحجة، لانه علم من التوراة ان الله تاب عليه. فكان لومه على ذلك نوع جفاء. قال الحافظ : وقد أنكر القدرية الحديث، لانه صريح فى اثبات القدر السابق

يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) وعلى جزائها كقوله (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) وعلى تباين عملها كقوله (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك

وجمع سبحانه فى القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة، ومحل الكسب، وهو النفس اللوامة. ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها الى من يعرفها الخير والشر، ويدلها عليه، ويرشدها اليه، ويلهمها اياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولانها متلومة مترددة، لا تثبت على حال واحدة، فهى محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها فى معاشها ومعادها فتؤثره، وتلوم نفسها عليه اذا

وتقرير النبى صلى الله عليه وسلم لآدم على الاحتجاج به وشهادته بانه غلب موسى. وقد أطال الحافظ فى الجواب على ذلك من وجوه عدة: منها ما قال ابن عبد البر: هذا مخصوص بآدم. لان المناظرة وقعت بينهما بعد أن تاب الله عليه. قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) فحسن منه أن ينكر على موسى لومه، والا فلا يجوز لاحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب المعصية: هذا سبق فى علم الله وقدره قبل أن يخلقنى فان الامة اجتمعت على لوم من وقعت منه المعصية اهـ

فاتها ، فتتوب منه ان كانت سعيدة ، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها فى القيامة لنفسها عليه لوما بحق ، قد أعذر الله خالقها وفاطرها اليها فيه . ففى صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن ، وانها لاغنى لها عن ذلك ، ولا صلاح ، ولا فلاح بدونه ألبتة . ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما فى الذكر

(٥) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٩١ : ١ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ٢ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ٣ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ٤ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ٥ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ٦ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ٧ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٨ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) قال الزجاج وغيره : جواب القسم (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) ولما طال الـكلام حسن حذف اللام من الجواب

وقد تضمن هذا القسم الاقسام بالخالق ، والمخلوق ، فاقسم بالسماء وبانيها ، والأرض وطاحيها ، والنفس ومسويها .

وقد قيل إن مصدرية ، فيكون الاقسام بنفس فعله تعالى ، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه . وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده . ولما كانت حركة الشمس والقمر ، والليل

والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئا فشيئاً ، ويعلمون أن الحادث لابد له من محدث ، كان العلم بذلك منزلا منزلة ذكر المحدث له لفظا . فلم يذكر الفاعل فى الأقسام الاربعة

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن فى غير موضع . كقوله (٣ : ١٩٠ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان ذكر مع الاقسام بهما بانيهما ومبدعهما . وكذلك النفس ، فان حدوثها غير مشهود ، حتى ظن بعضهم قدمها ، فذكر مع الاقسام بها مُسَوِّيها وفاطرها ، مع ما فى ذكر بناء السماء وَطحوِ الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق ، فان بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض ، وجعلها سقفا لهذا العالم ، والطَّحْو هو مَدُّ الارض وبسطها ، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان ، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع ، وهو متضمن لنضوب الماء عنها ، وهو مما حير عقول الطبائعيين ، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء ، فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه هذا الجانب المعين دون غيره ، مع استواء الجوانب فى الشكل الكُرِى ، يقتضى تخصيصا . فلم يجدوا ابدا أن يقولوا : عناية الصانع اقتضت ذلك . قلنا : فنعم اذاً ، ولكن عناية من لا مشيئة له ، ولا ارادة ولا اختيار ، ولا علم بمعين أصلا ، كما تقولونه فيه

محال ، فعنايته تقتضى ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله ، وأنه الفاعل يفعل باختياره مايريد

وكذلك النفس أقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها ، فان من الناس من يقول قديمة لا مبدع لها . ومنهم من يقول بل هى التى تبدع فجورها وتقواها ، فذكر سبحانه أنه هو الذى سواها وأبدعها ، وأنه هو الذى ألهمها الفجور والتقوى . فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها . وذكر لفظ التسوية كما ذكره فى قوله (٨٢: ٦ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ٧ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)وفى قوله (٣٨: ٧٢ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) إيذانا بدخول البدن فى لفظ النفس . كقوله (٧ : ١٨٩ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) وقوله (٢٤ : ٦١ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) (٤ : ٢٩ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) ٢٤ : ١٢ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) ونظائره . وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية . وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها

وقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)الضمير مرفوع فى (زَكَّاهَا) عائد على (مَنْ) وكذلك هو فى (دَسَّاهَا) المعنى قد أفلح من زكى نفسه . وقد خاب من دساها هذا القول هو الصحيح ، وهو نظير قوله ٨٧ : ١٤ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه

بفعل المفلح ، كقوله (٢٣ : ١ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ٢ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) الى آخر الآيات وقوله (٢ : ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وقوله (٢٤ : ٥١ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا الى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ونظائره . قال الحسن : قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله ، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله . وقاله قتادة . وقال ابن قتيبة : يريد أفلح من زكى نفسه ، أى نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف . وقدخاب من دسّاها أى نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصى . والفاجر أبداً خفى المكان ، زَمِن المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس . فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دسّ نفسه ، وقمعها . ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها . وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبَى ويفاع الارض لتشهر أنفسها للمعتفين ، وتوقد النيران فى الليل

للطارقين . وكانت اللئام تنزل الاولاج والاطراف والاهضام(١) لتخفى أماكنها على الطالبين . فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها ، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها . وأنشد :

وَبوّأتَ بيتَكَ فى مَعْلَمٍ * رحيب المباحات والمسرح
كفيتَ العُفاةَ طلابَ القِرى * ونَبحَ الكلابِ لمستنبح

وقال أبو العباس : سألت ابن الاعرابى عن قوله (وقد خاب من دساها) : فقال دسّى معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم ، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه فى الصالحين ، يُرى الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوى عليه الصالحون . وقال طائفة أخرى : الضمير يرجع الى الله سبحانه . قال ابن عباس ، فى رواية عطاء : قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها . وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، والكلبى ، وسعيد ابن جبير ، ومقاتل ، قالوا : سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة ، حتى عملت بها ، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها

قال أرباب هذا القول : قد أقسم الله بهذه الأشياء التى ذكرها ، لانها تدل على وحدانيته ، وعلى فلاح من طهره ، وخسارة من خذله ، حتى لا يظن أحد أنه هو الذى يتولى تطهير نفسه واهلاكها

---

(١) اليفاع المكان المرتفع . والولجة موضع أو كهف تستتر فيه المارة الجمع أولاج . والهضم ـ بكسر الضاد ـ المطمئن من الأرض

بالمعصية من غير قَدَر سابق، وقضاء متقدم. قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة. قالوا: ويدل عليه قوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَاوَتَقْوَاهَا) قالوا: ويشهد له حديث نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول «رَبِّ أَعْطِ نَفْسي تَقْوَاهَا، وزَكِّها أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاهَا» قالوا فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: ان النبي ﷺ كان اذا قرأ (قد أفلح من زكاها) وقف ثم قال «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وَلِيُّها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها (٢)» قالوا: وفي هذا ما يبين ان الأمر كله له سبحانه، فانه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى. وهو مزكيها ومُدَسِّيها، فليس للعبد في الأمر شيء ولا هو مالك من أمر نفسه شيئا

قال أرباب القول الأول: هذا القول، وان كان جائزا في العربية، حاملا للضمير المنصوب على معنى مَن، وان كان لفظها مذكرا، كما في قوله (١٠: ٤٢ ومِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) جمع الضمير، وان

---

(١) كذا هنا. وفي تفسير ابن كثير قال الامام أحمد حدثنا وكيع عن نافع عن ابن عمر عن صالح بن سعيد عن عائشة وذكره. ثم قال ابن كثير: تفرد به

(٢) رواه الحافظ ابن كثير في تفسيره من طريق الطبراني وابن أبي حاتم

كان لفظ مَنْ مفردا ، حملا على نظمها . فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر ، وههنا قد تقدم لفظ مَن . والضمير المرفوع في (زكاها) يستحقه لفظاً ومعنى . فهو أولى به ، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظاً ومعنى . فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه . وأما عود الضمير الذي يلي مَن على الموصول السابق وهو قوله (وَمَا سَوَّاهَا) وإخلاء جاره الملاصق له وهو (من) ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على من ، ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة . فهذا يجوز ، لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه . فأما اذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة اليه ، فالحمل عليه ممتنع

قالوا : والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه :

﴿ أحدها ﴾ أن فيه اشارة الى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره ، كما هي طريقة القرآن ﴿ الثاني ﴾ أن فيه زيادة فائدة وهي إثبات فعل العبد وكسبه ، وما يثاب وما يعاقب عليه ، وفي قوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) اثبات القضاء والقدر السابق . فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين ، وهما كثيراً ما يقترنان في القرآن كقوله (٧٤ : ٥٤ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ٥٥ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ٥٦ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ) وقوله (٨١ : ٢٨ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية

﴿الثالث﴾ ان قولنا يستلزم قولكم ، دون العكس . فان العبد اذا زكى نفسه ودساها فانما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه واعانته ، وانما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه ، والتخلية بينه وبين نفسه . بخلاف ما اذا كان المعنى على القدر السابق المحض ، لم يبق للكسب وفعل العبد هنا ذكر ألبتة

(٦) فصل

وذكر فى هذه السورة ثمود ، دون غيرهم من الأمم المكذبة فقال شيخنا : هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فانه لم يكن فى الامم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم ، اذ لم يذكر عنهم من الذنوب ماذكر عن عاد ، ومَدْيَن ، وقوم لوط ، وغيرهم . ولهذا لما ذكرهم وعادا قال (٤١ : ١٥ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) وكذلك اذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ماذكر عن أولئك من التجبر والتكبر ، والأعمال السيئة ، كاللواط ، وبخس المكيال والميزان ، والفساد فى الأرض ، كما فى سورة هود والشعراء وغيرهما ، فكان فى قوم لوط ـ مع الشرك ـ إتيان الفاحشة التى لم

يُسبقوا اليها . وفى قوم عاد ـ مع الشرك ـ التجبر والتكبر والتوسع فى الدنيا ، وشدة البطش ، وقولهم (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟) وفى أصحاب مَدْيَن ـ مع الشرك ـ الظلم فى الاموال. وفى قوم فرعون ـ مع الشرك ـ الفساد فى الارض والعلو . وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم . فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية ، التى لا يقوم لها شيء . وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم . فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء ، وطمس الابصار ، وقلب ديارهم عليهم . بأن جعل عاليها سافلها ، والخسف بهم الى أسفل سافلين . وعذب قوم شعيب بالنار التى أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التى اكتسبوها بالظلم والعدوان . وأما ثمود فاهلكوا بالصيحة فماتوا فى الحال . فاذا كان عذاب هؤلاء ـ وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التى جعلها الله آية لهم ـ فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه ، وعقر عباده ، وسفك دماءهم ، كان أشد عذابا . ومن اعتبر أحوال العالم قديما وحديثا ، وما يعاقب به من سعى فى الأرض بالفساد ، وسفك الدماء بغير حق ، واقام الفتن واستهان بحرمات الله ، علم أن النجاة فى الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون

﴿ قلت ﴾ وقد يظهر فى تخصيص ثمود ههنا بالذكر ، دون غيرهم ، معنى آخر ، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به ، قد

ثلجت له صدورهم ، واستيقظت له أنفسهم ، فاختاروا عليه العمى والضلالة ، كما قال تعالى فى وصفهم (٤١ : ١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) وقال (١٧ : ٥٩ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً) أى موجبة لهم التبصرة واليقين، وان كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم. فان الله لم يهلك أمة الا بعد قيام الحجة عليها ، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد . ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟) ثم قال (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) ولهذا أمكن عاداً المكابرة ، وان يقولوا لنبيهم (١١ : ٥٣ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) ولم يمكن ذلك ثمود ، وقد رأوا البينة عيانا ، وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر ، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة ، فكان فى تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه . وهذا داء أكثر الهالكين ، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الارض . والله أعلم

(٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٨٩ : ١ وَالْفَجْرِ ٢ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٣ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٤ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٥ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ؟) قيل جوابه (إِنَّ

ربَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) وهذا ضعيف لوجهين ﴿أحدهما﴾ طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة ﴿والثانى﴾ قوله (انَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهى عاد، وثمود، وفرعون. فذكر عقوبتهم. ثم قال مقرراً ومحذرا (إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم. وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر فى الليالى العشر زمن يتضمن أفعالا معظمة، من المناسك، وأمكنة معظمة، وهى محلها، وذلك من شعائر الله، المتضمنة خضوع العبد لربه، فان الحج والنُّسك عبودية محضة لله، وذل وخضوع لعظمته. وذلك ضد ما وصف به عادا وثمود، وفرعون، من العتو، والتكبر، والتجبر. فان النسك يتضمن غاية الخضوع لله. وهؤلاء الامم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم. وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما: عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «مامن أيام العمل الصالح فيهن أحب الى الله من هذه الأيام العشر» قيل: يارسول الله، ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال «ولا الجهاد فى سبيل الله، الا رجل خرج بنفسه وماله لم يرجع من ذلك بشىء» فالزمان المتضمن لمثل هذه الاعمال أهل ان يقسم الرب عز وجل به

(والفجر) ان أريد به جنس الفجر، كما هو ظاهر اللفظ، فانه يتضمن وقت صلاة الصبح، التى هى أول الصلوات. فافتتح القسم

بمـا يتضمن أول الصـلوات ، وختمه بقوله (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)
المتضمن لآخر الصلوات . وان أريد بالفجر فجر مخصوص ، فهو
فجر يوم النحر وليلته ، التي هي ليلة عرفة ، فتلك الليلة من أفضل
ليالى العام ، وما رؤى الشيطان فى ليلة أدحر ولاأحقر ولا أغيظ
منه فيها . وذلك الفجر فجر يوم النحر الذى هو أفضل الأيام عند
الله ، كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أفضل الأيام
عند الله يوم النحر » رواه أبو داود باسناد صحيح . وهو آخر أيام
العشر ، وهو يوم الحج الاكبر ، كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره .
وهو اليوم الذى أذن فيـه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
« إِنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، وان لايحج بعد العام
مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » ولاخلاف ان المؤذن أذّن
بذلك فى يوم النحر ، لايوم عرفة . وذلك بأمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، امتثالا وتأويلا للقرآن

وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات . وهما المختصان
بعبادة الله . والخضوع له والتواضع لعظمته . ولهذا قال الخليل عليه السلام
(٦ :١٦٢ انَّ صَلَاتِى وَنُسُكِي وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وقيل لخاتم
الرسل ﷺ (١٠٨ : ٢ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) بخلاف حال المشركين
المتكبرين الذين لايعبدون الله وحده ، بل يشركون به ، ويستكبرون عن
عبادته ، كحال من ذكر فى هذه السورة من قوم عاد ، وثمود ، وفرعون

وذكر سبحانه من جملة هذه الاقسام (الشَّفع والوَتر) . اذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر . فى الأمكنة والأزمنة والاعمال فالصفا والمروة شفع . والبيت وتر . والجمَرات وتر ، ومِنىً ومزدَلِفة شفع . وعرفة وتر . وأما الاعمال فالطواف وتر . وركعتاه شفع . والطواف بين الصفا والمروة وتر . ورمى الجمار وتر . كل ذلك سبع سبع ، وهو الاصل . فان الله وتر ، يحب الوتر . والصلاة منها شفع ومنها وتر . والوتر يوتر الشفع ، فتكون كلها وترا . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى . فاذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة تُوتِر لك ماقد صليت (١) » وأما الزمان فان يوم عرفة وتر ، ويوم النحر شفع . وهذا قول أكثر المفسرين . وروى مجاهد عن ابن عباس : الوتر آدم ، وشُفع بزوجته حوّاء . وقال فى رواية أخرى : الشفع آدم وحواء . والوتر الله وحده . وعنه رواية ثالثة : الشفع يوم النحر ، والوتر اليوم الثالث . وقال عمران بن حصين ، وقتادة : الشفع والوتر هى الصلاة . وروى فيه حديثا مرفوعا . وقال عطية العوفى : الشفع الخلق . قال الله تعالى (٧٨ : ٨ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً) والوتر هو الله . وهذا قول الحكم . قال : كل شىء شفع والله وتر . وقال أبو صالح : خلق الله من كل شىء زوجين اثنين ، والله وتر واحد ، وهذا قول مجاهد . ومسروق ، وقال الحسن : الشفع والوتر العدد كله

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن ، عن ابن عمر

من شفع ووتر . وقال ابن زيد : الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر ، قال مقاتل : الشفع الأيام والليالى ، والوتر اليوم الذى لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة .

وذكرت أقوال أخر ، هذه أصولها . ومدارها كلها على قولين ﴿أحدهما﴾ أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات ﴿والثانى﴾ أن الوتر الخالق ، والشفع المخلوق . وعلى هذا القول فيكون قد جمع فى القَسَم بين الخالق والمخلوق . فهو نظير ما تقدم فى قوله (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) ونظير ما ذكر فى قوله (٨٥:٣ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) وما ذكر فى قوله (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ والانثى) وقال هنا (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) وفى سورة المدثر أقسم بالليل اذا أدبر . وفى سورة التكوير أقسم بالليل اذا عَسْعَسَ وقد فسر بأقبل ، وفسر بأدبر . فان كان المراد اقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة ، وهى حالة اقباله ، وحالة امتداده وسريانه ، وحالة ادباره ، وهى من آياته الدالة عليه سبحانه

وعرف الفجر باللام اذ كل أحد يعرفه ، ونكر الليالى العشر ، لأنها انما تعرف بالعلم . وأيضا فان التنكير تعظيم لها . فان التنكير يكون للتعظيم .

وفى تعريف الفجر ما يدل على شهرته ، وأنه الفجر الذى يعرفه كل أحد ولا يجهله

فلما تضمن هذا القسم ما جاء به ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم كان فى ذلك مادل على المقسم عليه ، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ؟) فان عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة . وذلك يحتاج الى حِجْرٍ يحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل ، لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد ، وفرعون ، وثمود .

ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين ذكر حال المستكبرين المتجبرين الطاغين ، ثم أخبر أنه صب عليهم سوط عذاب . ونكره إما للتعظيم ، وإما لأن يسيرا من عذابه استأصلهم وأهلكهم ، ولم يكن معه بقاء ولا ثبات

ثم ذكر حال الموسع عليهم فى الدنيا والمُقَتَّرَ عليهم . وأخبر ان توسعته على من وسع عليه ـ وان كان اكراما له فى الدنيا ـ فليس ذلك إكراما على الحقيقة ، ولا يدل على أنه كريم عنده ، من أهل كرامته ومحبته ، وأن تقتيره على من قتر عليه لا يدل على اهانته له ، وسقوط منزلته عنده ، بل يوسع ابتلاء وامتحانا ، ويقتر ابتلاء وامتحانا . فيبتلى بالنعم كما يبتلى بالمصائب ، وسبحانه هو يبتلى عبده

بنعمة تجلب له نقمة ، وبنعمة تجلب له نعمة أخرى ، وبنقمة تجلب له نقمة أخرى ، وبنقمة تجلب له نعمة ، فهذا شأن نعمه ونقمه سبحانه

وتضمنت هذه السورة ذمّ من اغتر بقوته وسلطانه وماله . وهم هؤلاء الامم الثلاثة : قوم عاد ، اغتروا بقوتهم . وثمود ، اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم . وقوم فرعون ، اغتروا بالمال والرياسة ، فصارت عاقبتهم إلى ماقصّ الله علينا . وهذا شأنه دائما مع كل من اغتر بشيء من ذلك ، لابد أن يفسده عليه ، ويسلبه إياه

ثم ذكر سبحانه حال الانسان فى معاملته لمن هو أضعف منه ، كاليتيم والمسكين . فلا يكرم هذا ، ولا يحضّ على طعام هذا . ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله ، وحبه له . وذلك هو الذى أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين

ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة ، وهى الخاشعة المتواضعة لربها ، وماتؤول اليه من كرامته ورحمته . كما ذكر قبلها حال النفس الأمّارة ، وماتؤول اليه من شدة عذابه ووثاقه

فصل (٨)

وأما سورة (لاأُقْسِمُ بِهٰذَا البَلَدِ) فذكر فيها جواب القسم . وهو قوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الانْسَانَ فى كَبَدٍ) وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة . قال ابن عباس ، فى رواية مقسم : منتصبا على

قدميه . وهذا قول أبي صالح ، والضحاك ، وابراهيم ، وعكرمة ، وعبد الله بن شداد . قال المنذر : سمعت أبا طالب يقول : الكبد الاستواء والاستقامة . وفسر بالنَّصَب. هذا قول مجاهد ، وسعيد ابن جبير ، والحسن ، ورواية عن علي، وعن ابن عباس . قال الحسن : لم يخلق الله خلقا يكابد مايكابد ابن آدم . وقال سعيد بن أبي الحسن (١) : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وقال قتادة : يكابد أمر الدنيا والآخرة ، فلا تلقاه إلا في مشقة . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : يعني حمله وولادته ، ورضاعه، وفصاله ، ونَبْت أسنانه وحياته ، ومعاشه ، ومماته . كل ذلك شدة .

قال مجاهد : حملته أمه كرها ، ووضعته كرها ، ومعيشته في شدة . فهو يكابد ذلك ، وعلى هذا فالكبَد من مكابدة الأمر ، وهي معاناة شدته ومشقته ، والرجل يكابد الليل اذا قاسى هَوْله وصعوبته ، والكبد شدة الأمر ، ومنه تكبَّد اللبن ، اذا غلظ واشتد . ومنه الكبِد لانها دَم يغلظ ويشتد وانتصاب القامة والاستواء من ذلك ، لانه انما يكون عن قوة وشدة ، فان الانسان مخلوق في شدة . بكونه في الرحم ، ثم في القِماط والرباط ، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه

---

(١) كذا في الاصل . وفي تفسير ابن كثير : وروى من طريق أبي مودود ، سمعت الحسن قرأ هذه الآية فقال : يكابد أمراً من أمر الدنيا وأمراً من أمر الآخرة

حال التكليف ، ومكابدة المعيشة ، والأمر والنهى ، ثم مكابدة الموت وما بعده فى البرزخ ، وموقف القيامة ، ثم مكابدة العذاب فى النار ولا راحة له الا فى الجنة

وفسر الكبد بشدة الخَلْق وإحكامه وقوته ، ومنه قول لَبيد :

يَا عَيْنُ هَلاَّ بكَيْتِ أَرْبَدَ ، إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدِ؟[1]

أى فى شدة وعناء . وهذا يشبه قوله تعالى (٧٦: ٢٨ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ) قال ابن عباس : أى خَلْقَهُمْ ، وقال أبو عبيدة: الأسر شدّة الخلق يقال: فرس شديد الأسر . قال وكل شىء شددته : من قتب أو غيره ، فهو مأسور . وقال المبرد : الأسر القوى كلها . وقال الليث : الاسر قوة المفاصل والاوصال . وشد الله أسر فلان ، أى قوى خلقه . وكل شىء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر . وقال الحسن : شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض ، بالعروق والعصب . وقال مجاهد : هو الشرج ، يعنى موضع البول والغائط . إذا خرج الأذى تقبضا

والمقصود أنه سبحانه أقسم فى سورة البلد على حال الانسان وأقسم سبحانه بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى

ثم أقسم بالوالد وما ولد .. وهو آدم وذريته فى قول جمهور المفسرين . وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان ، وأصل

(١) هو من قصيدة يرثى بها أخاه أربد . أولها :

ما إن تعدي المنون من أحد لا والد مشفق ، ولا ولد

السكان . فرجع البلاد إلى مكة ، ومرجع العباد إلى آدم

وقوله (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ) فيه قولان ﴿أحدهما﴾ أنه من الاحلال ، وهو ضد الاحرام ﴿والثانى﴾ أنه من الحلول وهو ضد الظعن . فان أريد به المعنى الاول فهو حلال ساكن البلد ، بخلاف المحرم الذى يحج ويعتمر ، ويرجع ، ولان أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الاحرام . والا فى حال الاحرام هو فى أمان والحرمة هناك للفعل لا للمكان . والمقصود هو ذكر حرمة المكان وهى إنما تظهر بحال الحلال الذى لم يتلبس بما يقتضى أمنه . ولكن على هـذا ففيه تنبيه ، فانه اذا أقسم به ، وفيه الحلال ، فاذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن . وكذلك إذا أريد المعنى الثانى ، وهو الحلول ، فهو متضمن لهذا التعظيم ، مع تضمنه أمراً آخر . وهو الاقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده ، فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد ، فجعل بيته هـدى للناس ، ونبيه اماما وهاديا لهم ، وذلك من أعظم نعمه واحسانه إلى خلقه ، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته ، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية

وفى الآية قول ثالث ، وهو أن المعنى : وأنت مُستَحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين ، الذى يأمن فيه الطير والوحش والجانى . وقد استَحل قومُك فيه حرمتك ، وهم لايَعضِدون به

شجرة ، ولا يُنفَّرون به صيدا . وهذا مروى عن شُرحبيل بن سعد . وعلى كل حال فهى جملة اعتراض فى أثناء القسم ، موقعها من أحسن موقع وألطفه

فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله

ثم أنكر سبحانه على الانسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه مَن خلقه فى هذا الكبد والشدة والقوة التى يكابد بها الأمور . فان الذى خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق ، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادرا فى نفسه ، فهذا برهان مستقل بنفسه ، مع أنه متضمن للجزاء الذى مناطه القدرة والعلم ، فنبه على ذلك بقوله (أيحسَبُ أنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أحَدٌ) وبقوله (أيحْسَبُ أنْ لَمْ يَرَهُ أحَدٌ ؟) فيحصى عليه ماعمل من خير وشر ، ولا يقدر عليه فيجازيه بمايستحقه ؟

ثم أنكر سبحانه على الانسان قوله (أهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً) وهو الكثير الذى يُلبَّد بعضه فوق بعض ، فافتخر هذا الانسان باهلاكه وانفاقه فى غير وجهه . إذ لو أنفقه فى وجوهه التى أمر بانفاقه فيها ، ووضعه مواضعه ، لم يكن ذلك إهلاكا له ، بل تقربا به الى الله ، وتوصلا به الى رضاه وثوابه . وذلك ليس باهلاك له . فأنكر سبحانه افتخاره ، وتبجحه بانفاق المال فى شهواته وأغراضه التى إنفاقه فيها إهلاك له

ثم وبخه بقوله (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ؟) وأتى ههنا بلم ، الدالة على المضى ، فى مقابلة قوله (أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً) فان ذلك فى الماضى . أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه ؟

ثم ذكر برهانا مقدرا أنه سبحانه أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذى له عينان يبصر بهما . فكيف يعطيه البصر من لم يره ؟ وكيف يعطيه آلة البيان ، من الشفتين واللسان ، فينطق ، ويبين عما فى نفسه ، ويأمر وينهى من لايتكلم ولايكلم ، ولايخاطب ، ولايأمر ، ولاينهى ؟ وهل كمال المخلوق مستفاد الامن كمال خالقه ؟ ومن جعل غيره عالما بنجدَى الخير والشر — وهما طريقاهما — أليس هو أولى وأحق بالعلم منه . ومن هداه الى هذين الطريقين ، كيف يليق به أن يتركه سدًى ، لايُعرفه مايضره وماينفعه فى معاشه ومعاده ؟ وهل النبوة والرسالة الا لتكميل هداية النجدين ؟ فدل هذا كله على اثبات الخالق وصفات كماله ، وصدق رسله ، ووعده .

وهذه أصول الايمان التى اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم الى آخرهم إذا تأمل الانسان حاله وخَلقه وجده من أعظم الادلة على صحتها وثبوتها . فتكفى الانسان فكرته فى نفسه وخلقه . والرسل بعثوا مذكرين بما فى الفِطَر والعقول ، مكملين له ، لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته . ومع هذا فقامت عليه حجته ولم يَقْتَحِمِ العَقَبة التى بينه وبين ربه ، التى لايصل اليها حتى يقتحمها بالاحسان

الى خلقه بفكِّ الرَّقبة، وهو تخليصها من الرِّق، ليخلصه الله من رق نفسه، ورق عدوه. وإطعام اليتيم والمسكين فى يوم المجاعة، وبالاخلاص له سبحانه بالايمان الذى هو خالص حقه عليه. وهو تصديق خبره وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابرا رحيما فى نفسه، معينا لغيره على الصبر والرحمة. فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك دونها هلك منقطعا عن ربه، غير واصل اليه، بل محجوبا عنه

والناس قسمان: ناج، وهو من قطع العقَبة وصار وراءها. وهالك وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة الا المُضمَّرون، فانها عقبة كؤود شاقة، لا يقطعها الا خفيف الظهر. وهم أصحاب الميمنة. والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر. فهم (أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ)

قد أُطبقت عليهم؛ فلا يستطيعون الخروج منها، كما أطبقت عليهم أعمال الغَيّ والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أخبرت به رسله فلم تخرج قلوبهم منها. كذلك أطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها

فتأمل هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والايمان. وبالله التوفيق

وأيضا فان طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة، تهديدا وتخويفا

لترتب الجزاء عليهما كما قال تعالى (٦ : ٦٥ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) وقوله تعالى (٩٦ : ٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ١٢ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٣ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ؟) وقوله تعالى (٩ : ١٠٥ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) وقال (٤٣ : ٨٠ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلَىٰ ، وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) وهذا كثير جدا في القرآن . وليس المراد به مجرد الاخبار بالقدرة والعلم ، لكن الاخبار مع ذلك بما يترتب عليهما من الجزاء بالعدل، فانه اذا كان قادرا أمكن مجازاته ، واذا كان عالما أمكن ذلك بالقسط والعدل، ومن لم يكن قادرا لم يمكن مجازاته. واذا كان قادرا لكنه غير عالم بتفاصيل الأعمال ومقادير جزائها لم يجاز بالعدل. والرب تعالى موصوف بكمال القدرة، وكمال العلم، فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وارادته فحينئذ يجب على العاقل أن يطلب النجاة منه بالاخلاص والاحسان، فهو اقتحام العقبة المتضمن للتوبة الى الله تعالى، والاحسان الى خلقه

وقال (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) وهو فعل ماض، ولم يكرر معه « لا » اما استعمالا لأداة « لا » كاستعمال « ما » واما اجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء . نحو فلا سلم ولا عاش . ونحو ذلك . وإما لأن

العقبة قد فسرت بمجموع امور : فاقتحامها فعل كل واحد منها . فأغنى ذلك عن تكريرها . فكأنه قال : فلا فكَّ رقبة ، ولا أطعم ، ولا كان من الذين آمنوا

وقراءة من قرأ (فَكَّ رَقَبَةً) بالفعل ، كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر . لان قوله (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟) على حد قوله (٦٩:٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)(٨٢:١٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّين)(١٠١:١٠ وما أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ١١ نَارٌ حَامِيَةٌ) ونظائره ، تعظيما لشأن العقبة وتفخيما لامرها . وهي جملة اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر . فان قوله (فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) تفسير لاقتحام العقبة مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا الى الجنة واقتحامه بفعل هذه الامور . فمن فعلها فقد اقتحم العقبة . ويدل على ذلك قوله تعالى (ثُمَّ كَانَ مِنَ الذِينَ آمَنُوا) وهذا عطف على قوله (فَكُّ رَقَبَةٍ) والاحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولاً

وأيضا فان من قرأها بالمصدر المضاف فلا بد له من تقدير ، وهو : ما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ واقتحامها فك رقبة . وأيضاً فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر وما فسره . ومن قرأها بالمصدر فقد

طابق بين المفسر وبعض ما فسره ، فان التفسير ان كان لقوله (أَقْتَحَمَ) طابقه بقوله (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وما بعده دون (فَكُّ رَقَبَةٍ) وما يليه ، وان كان لقوله (الْعَقَبَةُ) طابقه (فَكُّ رَقَبَةٍ واطْعَامٌ) دون قوله (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وما بعده ، وان كانت المطابقة حاصلة معنى ، فحصولها لفظاً ومعنى أتم وأحسن

واختلف فى هذه العقبة ، هل هى فى الدنيا أو فى الآخرة ؟ فقالت طائفة : العقبة ههنا مثل ضُرب به الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان فى أعمال البر . وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل . قال الحسن : عقبة والله شديدة : مجاهدة الانسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان . وقال مقاتل : هذا مثل ضربه الله ، يريد أن المعتق رقبة ، والمطعم اليتيم والمسكين ، يقاحم نفسه وشيطانه ، مثل أن يتكلف صعود العقبة ، فشبه المعتق رقبة فى شدته عليه بالمكلف صعود العقبة ، وهذا قول أبى عبيدة . وقالت طائفة : بل هى عقبة حقيقة ، يصعدها الناس . قال عطاء : هى عقبة جهنم . وقال الكلبى : هى عقبة بين الجنة والنار . وهذا قول مقاتل إنها عقبة جهنم . وقال مجاهد والضحاك : هى الصراط ، يضرب على جهنم . وهذا لعله قول الكلبى . وقول هؤلاء أصح نظراً وأثراً ولغة . قال قتادة : فانها عقبة شديدة ، فاقتحموها بطاعة الله وفى أثر معروف «ان بين أيديكم عقبة كؤودا لا يقتحمها الا المخفون» أو نحو هذا . وان الله سمى الايمان به ، وفعل ما أمر ، وترك مانهى عقبة .

فكثيرا ما يقع فى كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة . وقال بعض الصحابة ، وقد حضره الموت ، فجعل يبكى ، ويقول : مالى لا أبكى وبين يدى عقبة كؤود ، أهبط منها اما الى جنة ، واما الى نار . فهذا القول أقرب الى الحقيقة ، والآثار السلفية ، والمألوف من عادة القرآن فى استعماله (وَمَا أَدْرَاكَ) فى الامور الغائبة العظيمة كما تقدم . والله أعلم

(٩) فصل

ومن ذلك اقسامه (١٠٥ : ١ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ٢ وَطُورِ سِينِينَ ٣ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) فأقسم سبحانه بهذه الامكنة الثلاثة العظيمة التى هى مظاهر أنبيائه ورسله ، أصحاب الشرائع العظام ، والأمم الكثيرة . فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ، ومنبتهما . وهو أرض بيت المقدس . فانها أكثر البقاع زيتونا وتينا . وقد قال جماعة من المفسرين : انه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما . فان التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، لا عَجَم له (١) وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم . ويدخل فى الادوية . ومزاجه من أعدل الامزجة ، وطبعه طبع الحياة ، الحرارة ، والرطوبة . وشكله من أحسن الاشكال .

(١) العجم محركا ، وكغراب ، نوى كل شىء

ويدخل أكله والنظر اليه فى باب المفرحات . وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ، ويزيد فى القوة ، ويوافق الباءة ، وينفع من البواسير والنقرس ، ويؤكل رطبا ويابسا . وأما الزيتون ففيه من الآيات ماهو ظاهر لمن اعتبر . فان عوده يخرج ثمرا ، يعصر منه هذا الدهن الذى هو مادة النور وصبغ للآكلين ، وطيب ودواء ، وفيه من مصالح الخلق مالا يخفى . وشجره باق على مر السنين المتطاولة . وورقه لا يسقط . وهذا الذى قالوه حق ، ولا ينافى أن يكون منبته مرادا . فان منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة . فيكون الاقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما ، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم ، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى ، فانه الجبل الذى كلمه عليه وناجاه ، وأرسله الى فرعون وقومه

ثم أقسم بالبلد الأمين ، وهو مكة مظهر خاتم انبيائه ورسله ، سيد ولد آدم . وترقى فى هذا القسم من الفاضل الى الافضل . فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم . ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله ، واكرم الخلق عليه . ونظير هذا بعينه فى التوراة التى أنزلها الله على كليمه موسى « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » فجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران ، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع . ثم ثنى بنبوة المسيح ، ثم ختمه بنبوة محمد صلى الله عليهم وسلم . وجعل نبوة موسى بمنزلة مجىء

الصبح ، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس واشراقها ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعليهما بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم .
ولما كان الغالب على بنى اسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقا للواقع . ولما كان الغالب على الامة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلى ، وأقسم بها على بداية الانسان ونهايته . فقال (٤ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) أى فى أحسن صورة وشكل واعتدال ، معتدل القامة ، مستوى الخلقة ، كامل الصورة ، أحسن من كل حيوان سواه . والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغى أن يكون فى التأليف والتعديل . وذلك صنعته تبارك وتعالى ، فى قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء . وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده ، وقدرته ، وحكمته ، وعلمه ، وصفات كماله . ولهذا يكررها كثيرا فى القرآن لمكان العبرة بها . والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته ، وعلى المبدأ والمعاد

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته - عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلا أنزل عليهم كتبه ، يعرفون العباد بربهم ، وحقوقه عليهم ، وينذرونهم بالله ونقمته ، ويدعونهم الى كرامته وثوابه

ثم لما كان الناس فى اجابة هذه الدعوة فريقين ، منهم من أجاب ومنهم من أبى ، ذكر حال الفريقين . فذكر حال الأكثرين ، وهم

المردودون الى أسفل سافلين . والصحيح أنه النار . قاله مجاهد ، والحسن ، وأبو العالية . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : هى النار بعضها أسفل من بعض ، وقالت طائفة ، منهم قتادة ، وعكرمة ، وعطاء ، والكلبى ، وابراهيم : انه أرذل العمر ، وهو مروى عن ابن عباس . والصواب القول الأول ، لوجوه ﴿ أحدها ﴾ ان أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين ، لا فى لغة ، ولا عرف ، وإنما أسفل سافلين هو سجين الذى هو مكان الفجار ، كما ان عليين مكان الابرار ﴿ الثانى ﴾ أن المردودين الى أسفل العمر بالنسبة الى نوع الانسان قليل جداً ، فأكثرهم يموت ولا يرد الى أرذل العمر ﴿ الثالث ﴾ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم فى ردّ من طال عمره منهم الى أرذل العمر . فليس ذلك مختصاً بالكفار ، حتى يستثنى منهم المؤمنين ﴿ الرابع ﴾ ان الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار ، بل جعله لجنس بنى آدم ، فقال (٢٢ : ٥ وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُم مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) فجعلهم قسمين ، قسما متوفى قبل الكبر ، وقسما مردودا الى أرذل العمر ، ولم يسمه أسفل سافلين ﴿ الخامس ﴾ انه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين ، وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الايمان . فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين . وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون * (السادس) * ان قول من فسره بأرذل العمر

يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم . ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس . فيكون قد ترك الاخبار عن المقصود الأهم . وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة . وفى ذلك هضم لمعنى الآية . وتقصير بها عن المعنى اللائق بها *(السابع)* انه سبحانه ذكر حال الانسان فى مبدأه ومعاده . فمبدؤه خلقه فى أحسن تقويم ، ومعاده رده الى أسفل سافلين أو الى أجر غير ممنون . وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته فى ذكر مبدأ العبد ومعاده . فما لأرذل العمر وهذا المعنى المطلوب المقصود اثباته والاستدلال عليه ؟ *(الثامن)* ان أرباب القول الأول مضطرون الى مخالفة الحس ، واخراج الكلام عن ظاهره ، والتكلف البعيد له ، فانهم ان قالوا : ان الذى يرد الى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين كابروا الحس ، وان قالوا : ان من النوعين من يرد الى أرذل العمر احتاجوا الى التكلف لصحة الاستثناء . فنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا و عملوا الصالحات لاتبطل أعمالهم ، اذا ردوا الى أرذل العمر ، بل تجرى عليهم أعمالهم التى كانوا يعملونها فى الصحة . فهذا ـ وان كان حقا ـ فان الاستثناء انما وقع من الرد لامن الأجر والعمل . ولما علم أرباب هذا القول مافيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراء القرآن خاصة . فقالوا من قرأ القرآن لايرد الى أرذل العمر . وهذا ضعيف من وجهين (أحدهما) ان الاستثناء عام فى المؤمنين ، قارئهم وأميهم ، وانه لادليل على

مادعوه . وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه والله أعلم

(التاسع) أنه سبحانه ذكر نعمته على الانسان بخلقه فى أحسن تقويم ، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالايمان وعبادته وحده لاشريك له ، فينقله حينئذ من هذه الدار الى أعلى عليين ، فاذا لم يؤمن به ، وأشرك به ، وعصى رسله ، نقله منها الى أسفل سافلين ، وبدله بعد هذه الصورة التى هى فى أحسن تقويم صورة من أقبح الصور فى أسفل سافلين . فتلك نعمته عليه ، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته *(العاشر)* أن نظير هذه الآية قوله تعالى (٨٤ : ٢٤ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) فالعذاب الاليم هو أسفل سافلين ، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك ، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا والله أعلم

وقوله (غَيْرُ مَمْنُونٍ) أى غير مقطوع ولا منقوص ، ولا مكدر عليهم ، وهذا هو الصواب . وقالت طائفة : غير ممنون به عليهم ، بل هو جزاء أعمالهم . ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل ، وهو قول كثير من القدرية . قال هؤلاء : إن المنة تكدر النعمة . فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه . وهذا القول خطأ قطعا ، أتى أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بانعام المخلوق على المخلوق . وهذا من أبطل الباطل . فان المنة التى تكدر النعمة هى منة

المخلوق على المخلوق . وأما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها . فانها منة حقيقة . قال تعالى (٤٩ : ١٧ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وقال تعالى (٣٧:١١٤ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ١١٥ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة . وقال لموسى (٢٠ : ٣٧ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) وقال أهل الجنة (٥٢ : ٢٧ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ) وقال تعالى (٣ : ٦٤ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) الآية ، وقال (٢٨ : ٥ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ) الآية . وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للانصار «ألم أجدكم ضُلّالًا فهداكم الله بى؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بى؟» فجعلوا يقولون له: الله ورسوله أمنّ. فهذا جواب العارفين بالله ورسوله . وهل المنة كل المنة الا لله المان بفضله الذى جميع الخلق فى منته ؟ وانما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه ، وهى منة يتأذى بها الممنون عليه وأما منة المنان بفضله التى ما طاب العيش الا بمنته ، وكل نعمة منه فى الدنيا والآخرة فهى منة يمن بها على من أنعم عليه ، فتلك لايجوز نفيها . وكيف يجوز أن يقال

انه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى دخول الجنة ؟ وهل هذا الا من أبطل الباطل ؟

فان قيل : هذا القدر لايخفى على من قال هذا القول من العلماء ، وليس مرادهم ما ذكر ، وانما مرادهم أنه لايمن عليهم به ، وان كانت لله فيه المنة عليهم ، فانه لايمن عليهم به ، بل يقال : هذاجزاء أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، وهذا أجركم ، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لانمن عليكم بما أعطيناكم . قيل : وهذا أيضا هو الباطل بعينه ، فان ذلك الأجر ليست الأعمال ثمناله ، ولامعاوضة عنه . وقدقال أعلم الخلق بالله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحدمنكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال « ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل(١) » فاخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله ، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده ، وكما انه سبحانه المانّ بارسال رسله ، وبالتوفيق لطاعته وبالاعانة عليها ، فهو المانّ باعطاء الجزاء ، وذلك كله محض منته وفضله وجوده ، لاحق لأحد عليه ، بحيث اذا وفاه اياه لم يكن له عليه منة . فان كان فى الدنيا باطل فهذا ليس منه فى شيء

فان قيل : كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بان حق العباد عليه اذا وحدوه أن لايعذبهم (٢) وقد أخبر عن نفسه ان حقا عليه

---

(١) رواه البخارى ومسلم (٢) فى حديث معاذ المتفق عليه « هل تدرى يامعاذ ماحق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . وحق العباد على الله أن لايعذب من لايشرك به شيئا »

نصر المؤمنين ؟ قيل : لعمر الله هـذا من أعظم منته على عباده ، أن جعل على نفسه حقا بحكم وعده الصادق : أن يثيبهم ولا يعذبهم اذا عبدوه ووحدوه . فهذا من تمام منته ، فانه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولـكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه واجابة سائليه

ما للعباد عليـه حق واجب ＊ كلا ، ولا سعى لديه ضائع
ان عذبوا فبعدله ، أو نعموا ＊ فبفضله ، فهو الـكريم الواسع

وقوله سبحانه (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) أصح القولين أن هذا خطاب للانسان ، أى فما يـكذبك بالجزاء والمعاد بعد هـذا البيان ، وهـذا البرهان ؟ فتقول انك لاتبعث ولا تحاسب ، ولو تفكرت فى مبدأ خلقك ، وصورتك ، لعلمت أن الذى خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك ، وينشئك خلقا جديدا ، وان ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول . وأيضا فان الذى كمل خلقك فى أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين ، كيف يليق به أن يتركك سدًى ، لا يكمل ذلك بالأمر والنهى ، وبيان ما ينفعك ويضرك ، ولا تنقل لدار هى أكمل من هذه ، ويجعل هذه الدار طريقا لك اليها ، فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقتضى خلافه ، قال منصور : قلت لمجاهد (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) عنى به محمدا؟ فقال : معاذَ الله ، انمـا عنى به الانسان . وقال قتادة : الضمير للنبى

صلى الله عليه وسلم ، واختاره الفراء . وهذا موضع يحتاج الى شرح وبيان

يقال : كذَب الرجل ، اذا قال الكذب ، وكذّبته أنا اذا نسبته الى الكذب ولو اعتقدت صدقه . وكذّبته اذا اعتقدت كذبه وان كان صادقا . قال تعالى (٣ : ١٨٤ فإنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) وقال (٦:٣٣ فإنَّهُمْ لاَ يُكذِّبُونَكَ) فالأول بمعنى وان ينسبوك الى الكذب ، والثاني بمعنى لا يعتقدون انك كاذب ، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته ، جحودا وعنادا ، هذا أصل هذه اللفظة ، ويتعدى الفعل الى الخبر بنفسه ، والى خبره بالباء ، وبفي . فيقال : كذبته بكذا ، وكذبته فيه ، والاول أكثر استعمالا ومنه قوله (٥٠ : ٥ بَلْ كَذَّبُوا بالحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ) وقوله (وكَذَّبُوا بآيَاتِنَا)

اذا عرف هذا ، فقوله (فَمَا يُكَذِّبُكَ) اختلف في « ما » هل هي بمعنى أي شيء يكذبك ، أو بمعنى مَن الذي يكذبك ؟ فمن جعلها بمعنى أي شيء ، تعين على قوله أن يكون الخطاب للانسان . أي فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبا بالدين ، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق ؟ ومن جعلها بمعنى فمن الذي يكذبك ، جعل الخطاب للنبي ﷺ . قال الفراء : كأنه يقول ، من يقدر على تكذيبك بالثواب

والعقاب ، بعدما تبين له من خلق الانسان ماوصفناه ؟ وقال قتادة : فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين ؟

وعلى قول قتادة والفراء اشكال من وجهين *(احدهما)* اقامتها مقام مَنْ وأمره سهل *(والثانى)* ان الجار والمجرور يستدعى متعلقا ، وهو يكذبك . أى فمن يكذبك بالدين ؟ فلا يخلو إما أن يكون المعنى فمن يجعلك كاذبا بالدين ، أو مكذبا به ، ولا يصح واحد منهما . أما الثانى والثالث فظاهر . فان كذَّبته ليس معناه جعلته مكذَّبا أو مكذِّبا . وانما معناه نسبته الى الكذب . فالمعنى على هذا فمن يجعلك بعد كاذبا بالدين ، وهذا انما يتعدى اليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثى ، فلا يقال : كذب كذا ، وانما يقال كذب به .

وجواب هذا الاشكال ان قوله : كذب بكذا معناه كذب المخبر به ثم حذف المفعول به لظهور العلم به ، حتى كأنه نسى وعدوا الفعل الى المخبر به ، فاذا قيل من يكذبك بكذا ؟ فهو بمعنى كذبوك بكذا سواء ، أى نسبوك الى الكذب فى الاخبار به ، بل الاشكال فى قول مجاهد والجمهور ، فان الخطاب اذا كان للانسان ، وهو المكذب . أى فاعل التكذيب ، فكيف يقال له : مايكذبك ؟ أى يجعلك مكذبا . والمعروف كذَّبه اذا جعله كاذبا لا مكذبا . ومثل فَسَّقَهُ اذا جعله فاسقا ، لامفسِّقا لغيره

وجواب هذا الاشكال : ان صدَّق وكذَّبَ ـ بالتشديد ـ

يرادبه معنيان *(أحدهما)* النسبة . وهي انما تكون للمفعول كما ذكرتم *(والثاني)* الداعي والحامل على ذلك ، وهو يكون للفاعل . قال الكسائي : يقال ، ما صدقك بكذا ، أو ما كذبك بكذا ، أي ماحملك على التصديق والتكذيب

قلت وهو نظير ما اجرأك على هذا ، أي ماحملك على الاجتراء عليه : وماقدمك وما أخرك ، أي ما دعاك وحملك على التقديم والتأخير . وهذا استعمال سائغ موافق للعربية وبالله التوفيق

ثم ختم السورة بقوله (أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ) وهذا تقرير لمضمون السورة ، من إثبات النبوة ، والتوحيد ، والمعاد ، وحكمه يتضمن نصره لرسوله على من كذبه ، وجحد ماجاء به ، بالحجة والقدرة والظهور عليه ، وحكمه بين عباده فى الدنيا بشرعه وأمره ، وحكمه بينهم فى الآخرة بثوابه وعقابه ، وان أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته فى خلق الانسان فى أحسن تقويم ، ونقله فى أطوار التخليق ، حالا بعد حال ، الى أكمل الأحوال . فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازى المحسن باحسانه ، والمسىء باساءته ؟ وهل ذلك إلا قدح فى حكمه وحكمته ؟

فلله ما أخصر لفظ هذه السورة ، وأعظم شأنها ، وأتم معناها . والله أعلم .

(١٠) فصل

ومن ذلك قسمه سبحانه وتعالى: (٩٢ : ١ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ٢ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ٣ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى) وقد تقدم ذكر القسم عليه وانه سعيُ الانسان في الدنيا ، وجزاؤه في العقبي . فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله ، اذ هو من آياته الدالة عليه . فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لانه يغشى شيئا بعد شيء . وأما النهار فانه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وَهلة واحدة . ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)وأقسم به وقت سريانه كما تقدم . وأقسم به وقت إدباره . وأقسم به اذا عَسْعَسَ . فقيل معناه أدبر ، فيكون مطابقا لقوله (٧٤: ٣٣ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٤ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) وقيل : معناه أقبل ، فيكون كقوله (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) فيكون قد أقسم باقبال الليل والنهار . وعلى الاول يكون القسم واقعا على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه ، وكلاهما من آيات ربوبيته

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى ، وذلك يتضمن الاقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه ، ذكره وأنثاه ، وقابل بين الذكر والانثى ، كما قابل بين الليل والنهار . وكل ذلك من آيات ربوبيته . فان اخراج

الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية ، كاخراج الذكر والانثى بواسطة الأجرام السفلية . فأخرج من الارض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها ، كما أخرج من السماء الليل والنهار ، بواسطة الشمس فيها . واقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار وبالساعي ، وهو الذكر والانثى ، على اختلاف السعي ، كما اختلف الليل والنهار ، والذكر والانثى ، وسعيه وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأنه سبحانه لايسوى بين من اختلف سعيه فى الجزاء ، كما لم يسوّ بين الليل والنهار والذكر والانثى

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء فقال (٥ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٦ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٧ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٨ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٩ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ١٠ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) فتضمنت الآيتان ذكر شرعه ، وذكر الاعمال وجزائها ، وحكمة القدر فى تيسير هذا لليسرى ، وهذا للعسرى ، وأن العبدَ ميسرٌ بأعماله لغاياتها ، ولا يظلم ربك أحدا . وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب (أحدها) اعطاء العبد ، وحذف مفعول الفعل ارادة للاطلاق والتعميم ، أى اعطى ماأمر به وسمحت به طبيعته ، وطاوعته نفسه ، وذلك يتناول اعطاءه من نفسه الايمان والطاعة ، والاخلاص ، والتوبة ، والشكر واعطاءه الاحسان ، والنفع بماله ، ولسانه ، وبدنه ، ونيته ، وقصده ، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة ، لالئيمة مانعة ، فالنفس المطيعة هى النافعة

المحسنة ، التى طبعها الاحسان واعطاء الخير اللازم والمتعدى، فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها ، فهى بمنزلة العين التى ينتفع الناس بشربهم منها ، وسقى دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا فهى ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل . فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء

(السبب الثانى) التقوى، وهى اجتناب ما نهى الله عنه ، وهذا من أعظم أسباب التيسير ، وضده من أسباب التعسير ، فالمتقى ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته ، وتارك التقوى وان يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى . وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا ، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم ، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو انفع له مما ناله بغير التقى ، فان طيب العيش ، ونعيم القلب، ولذة الروح ، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا ، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات . وقال تعالى (٦٥: ٤ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً) فأخبر أنه يُيَسِّر على المتقى ما لا ييسر على غيره. وقال تعالى (٦٥: ٢ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) وهذا أيضاً ييسر عليه بتقواه . وقال تعالى (٦٥: ٥ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً) وهذا يتيسر عليه بازالة ما يخشاه ، واعطائه ما يحبه ويرضاه . وقال (٨: ٢٩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)
وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة ، والنصر ، والعلم ، والنور ،
الفارق بين الحق والباطل ، وتكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب
وذلك غاية التيسير. وقال تعالى (٣ : ١٣٠ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)
والفلاح غاية اليسر ، كما أن الشقاء غاية العسر . وقال تعالى (٥٧ : ٢٨
يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) فضمن لهم سبحانه بالتقوى
ثلاثة أمور : أعطاهم نصيبين من رحمته نصيبا فى الدنيا، و نصيبا فى الآخرة
وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين *(الثانى)* أعطاهم
نورا يمشون به فى الظلمات *(الثالث)* مغفرة ذنوبهم وهذا غاية التيسير
فقد جعل سبحانه التقوى سبب لكل يسر ، و ترك التقوى سببا لكل عسر

(السبب الثالث) التصديق بالحسنى ، وفسرت بلا إله إلا الله ،
وفسرت بالجنة ، وفسرت بالخَلَف ، وهى أقوال السلف ، واليُسرى
صفة لموصوف محذوف ، أى الحالة والخَلَّة اليسرى ، وهى فُعلى
من اليسرى . والأقوال الثلاثة ترجع الى أفضل الأعمال ، وأفضل
الجزاء . فمن فسرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتى بكل جمع ،
فان التصديق الحقيق بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها
كلها ، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة . فلا
يكون العبد مصدقا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله ولقائه ، ولا يكون مؤمنا بالله إله العالمين حتى يؤمن

بصفات جلاله ونعوت كماله ، ولا يكون مؤمنا بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الالهية عن كل موجود سواه ، ويسلبها عن اعتقاده وارادته ، كما هي منفية في الحقيقة والخارج ، ولا يكون مصدقا بها من نفى الصفات العليا ، ولا من نفى كلامه وتكليمه ، ولا من نفى استوائه على عرشه ، وانه يرفع اليه الكلم الطيب والعمل الصالح ، وانه رفع المسيح اليه ، وأسرى برسوله صلى الله عليه وسلم اليه ، وانه يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه ، الى سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون مؤمنا بهذه الكلمة مصدقا بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، وعلمه بكل شيء ، وبعثه الاجساد من القبور ليوم النشور ، ولا يكون مصدقا بها من زعم أنه يترك خلقه سدًى ، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله ، وكذلك التصديق بها يقتضي الاذعان والاقرار بحقوقها ، وهي شرائع الاسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة ، بالتصديق بجميع أخباره ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، هو تفصيل لا إله إلا الله . فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله ، وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الاطلاق الا بها وبالقيام بحقها ، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الاطلاق إلا بها وبحقها . فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها ، أو ترك حقها

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله . ومن فسرها بالخلف ذكر نوعا من الجزاء . فهذا جزاء دنيوى ، والجنة الجزاء فى الآخرة فرجع التصديق بالحسنى الى التصديق بالايمان وجزائه . والتحقيق أنها تتناول الأمرين

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث ـ وهى الاعطاء ، والتقوى ، والتصديق بالحسنى ـ من العلم والعمل ، وتضمنته من الهدى ودين الحق . فان النفس لها ثلاث قوى : قوة البذل والاعطاء ، وقوة الكف والامتناع ، وقوة الادراك والفهم . ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والارادة ، وقوة البغض والنفرة . فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها ، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها . ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى ، وفساد قوة الحب والارادة يوجب له ترك الاعطاء . وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء . فاذا كملت قوة حبه وارادته باعطائه ما أمر به . وقوة بغضه ونفرته باتقائه مانهى عنه . وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الاسلام وحقوقها وجزائها . فقد زكى نفسه ، وأعدها لكل حالة يسرى ، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد : فعل المأمور ، وترك

المحظور ، وتصديق الخبر . وان شئت قلت : الدين طلب ، وخبر والطلب نوعان : طلب فعل ، وطلب ترك . فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها . فالاعطاء فعل المأمور ، والتقوى ترك المحظور . والتصديق بالحسنى تصديق الخبر . فانتظم ذلك الدين كله . وأكمل الناس من كملت له هذه القوى الثلاث ، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها ، فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه ، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الاعطاء ، ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الاعطاء والمنع ، ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الاعطاء والمنع ، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الارادية وبالعكس ، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث ، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب مافاته منها ، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى . قال ابن عباس (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) أى نهيئه لعمل الخير ، تيسر عليه أعمال الخير . وقال مقاتل ، والكلبي ، والفراء : نيسره للعود الى العمل الصالح

وحقيقة اليسرى أنها الخَلَّةُ والحالة السهلة النافعة الواقعة له ، وهى ضد العسرى . وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه ، فيجرى الخير ، وييسر على قلبه ، ويديه ولسانه ، وجوارحه . فتصير خصال الخير ميسرة عليه ، مذللة له منقادة ، لا تستعصى عليه ، ولا

تستصعب، لانه مهيأ لها، ميسر لفعلها. يسلك سبلها ذللا، وتنقاد له علماً وعملا. فاذا خالقته قلت هو الذى قيل فيه :

مبارك الطلعة ميمونها * يصلح للدنيا وللدين

(وأمَّا من بَخِلَ) فعطل قوة الارادة والاعطاء عن فعل ما أمر به(واستَغْنَى) بترك التقوى عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهى عنه (وكَذَّبَ بالحُسْنَى) فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالايمان وجزائه (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الايمان بى وبرسولى. وقال مقاتل : يعسر عليه أن يعطى خيرا . وقال عكرمة، عن ابن عباس: نيسره للشر . قال الواحدى : وهذا هو القول . لأن الشر يؤدى إلى العذاب، فهو الخَلَة العسرى . والخير يؤدى الى اليسر، والراحة فى الجنة، فهو الخلة اليسرى : يقول سنهيؤه للشر، بأن يجريه على يديه . قال الفراء : العرب تقول قد يَسَّرَتْ غنم فلان اذا تهيأت للولادة ، وكذلك اذا ولدت وغزرت ألبانها ، أى يَسَّرت ذلك على أصحابها . انتهى

والتيسير للعسرى يكون بأمرين *(أحدهما)* أن يحول بينه وبين أسباب الخير ، فيجرى الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه *(والثانى)*أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر ، كما حال بينه وبين أسبابه

فان قيل : كيف قابل اتقى باستغنى ؟ وهل يمكن العبد أن يستغنى عن ربه طرفة عين ؟

قيل : هذا من أحسن المقابلة ، فان المتقى لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته الى ربه اتقاه ، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه . فان من كان شديد الحاجة والضرورة الى شخص ،فانه يتقى غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء ، ويجانب مايكرهه غاية المجانبة ، ويعتمد فعل مايحبه ويؤثره . فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعا لحال تارك التقوى ، ومبالغة فى ذمه ، بأن فعل فعل المستغنى عن ربه ، لا فعل الفقير المضطر اليه الذى لاملجأله الا اليه ، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين . فلله ما أحلى هذه المقابلة وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها ، والشرور كلها وأسبابها . فسبحان من تعرف الى خصائص عباده بكلامه ، وتجلى لهم فيه ، فهم لا يطلبون أثرا بعد عين ، ولا يستبدلون الحق بالباطل ، والصدق بالمين

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب فى مسئلة القدر ، وازالة كل لبس واشكال فيها . وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه . ولهذا أجاب بها النبى صلى الله عليه وسلم من أورد عليه السؤال الذى لايزال الناس يلهجون به فى القدر . فأجاب بفصل الخطاب وأزال الاشكال . ففى الصحيحين من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « مامنكم من أحد إلا وقد عُلم

مقعدُه من الجنة والنار » قيل : يارسول الله ، أفلا ندع العمل ، ونتكل على الكتاب ؟ قال « اعملوا ، فكل مُيَسَّر لما خلق له » ثم قرأ (فأمَّا مَنْ أعطَى واتَّقَى وصَدَّقَ بالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية ، واثبات القدر والشرع ، واثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الاشياء قبل كونها ، واثبات خلق الفعل الجزائى . وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقا ، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله ، ونقض قاعدته . والنبي صلى الله عليه وسلم أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى « ان العبد مُيسر لما خلق له » لا مجبور . فالجبر لفظ بدعى . والتيسير لفظ القرآن والسنة . وفى الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين . فانهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الاطلاق . وكانوا اذا استشكلوا شيئا سألوه عنه . وكان يجيبهم بما يزيل الاشكال ، ويبين الصواب . فهم العارفون بأصول الدين حقا ، لا أهل البدع والاهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم

وفى الحديث استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على مسائل أصول الدين بالقرآن ، وارشاده الصحابة لاستنباطها منه ، خلافا لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين ، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه . وعبر عن ذلك بقوله : الادلة اللفظية لا تفيد اليقين

وفى الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة ، ومنهم من خلق للشقاوة ، خلافا لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة ، ولكن اختاروا الشقاوة ، ولم يخلقوا لها . وفيه اثبات الاسباب ، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له الى ماخلق له . وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ، ومطابقتها له . فتأمل قوله ﷺ «اعملوا فكلٌ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له» ومطابقته لقوله تعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى - الى آخر الآيتين) كيف انتظم الشرع والقدر ، والسبب والمسبب؟

وهذا الذى أرشد اليه النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى فطر الله عليه عباده ، بل الحيوان البهيم ، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك ، فلو قال كل أحد : إن قدر لى كذا وكذا فلا بد أن أناله . وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله ، فلا أسعى ولا أتحرك ، لعُدّ من السفهاء الجهال ، ولم يمكنه طرد ذلك أبدا ، وإن أتى به فى أمر معين . فهل يمكنه أن يطرد ذلك فى مصالحه جميعها ، من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ، وهروبه مما يضاد بقاءه وينافى مصالحه ، أم يجد نفسه غير منفكة ألبتة عن قول النبى صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ؟ فاذا كان هذا فى مصالح الدنيا ، وأسباب منافعها ، فما الموجب لتعطيله فى مصالح الآخرة ، وأسباب السعادة والفلاح فيها ، وربُّ الدنيا والآخرة واحد ؟ فكيف يُعطل ذلك فى شرع الرب وأمره ونهيه ، ويُستعمل فى إرادة العبد واعراضه

وشهواته ؟ وهل هـذا الا محض الظلم والجهل ، والانسان ظلوم جهول ، ظلوم لنفسه ، جهول بربه . فهذا الذى أرشد اليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وتلا عنده هاتين الآيتين ، موافقا لما جعله الله فى عقول العقلاء ، وركب عليه فطر الخلائق ، حتى الحيوان البهيم ، وأرسل به جميع رسله ، وأنزل به جميع كتبه

ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع ، وتعطلت مصالح العالم ، وفسد أمر الدنيا والدين ، وانما يستروح الى ذلك معطلوا الشرائع ، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهى من عنقه ، وذلك ميراث من اخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه ، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره ، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم فى غير موضع من كتابه كقوله تعالى (٦ : ١٤٨ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ، وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٩ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) وقال تعالى (١٦ : ٣٥ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا ، حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ؟) وقال تعالى (٤٣ : ٢٠ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ

الرَّحْمنُ ماعَبَدْنَاهُمْ . مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْهُمْ إِلا يَخْرُصُونَ) وقال تعالى(٣٦ : ٤٧ وإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ . قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

فان قيل : فالاعطاء ، والتقوى ، والتصديق بالحسنى ، هى من اليُسرى ، بل هى أصل اليسرى ، من يسرها للعبد أولاً ؟ وكذلك أضدادها ؟

قيل : الله سبحانه هو الذى يسر للعبد أسباب الخير والشر ، وخلق خلقه قسمين : أهل سعادة ، فيسرهم لليسرى ، وأهل شقاوة ، فيسرهم للعسرى . واستعمل هؤلاء فى الأسباب التى خلقوا لغاياتها ، لا يصلحون لسواها . وهؤلاء فى الأسباب التى خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها ، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته فى موضع لا تصلح له ، كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه فى محل لا يصلح لهما ، ولا يليق بهما . بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك . ومن جعل محل المسك والرجيع واحداً فهو من أسفه السفهاء

فان قيل : فلم جعل هذا لا يليق به الا الكرامة ، وهذا لا يليق به الا الاهانة ؟ قيل : هذا سؤال جاهل ، لا يستحق الجواب ، كأنه يقول : لم خلق الله كذا وكذا ؟

فان قيل : وعلى هذا ، فهل لهذا الجاهل من جواب ، لعله يشفى من جهله ؟ قيل : نعم ، شأن الربوبية خلق الاشياء وأضدادها ،

وخلق الملزومات ولوازمها ، وذلك هو محض الكمال . فالعلو لازم وملزوم للسفل ، والليل لازم وملزوم للنهار ، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد ، والصحو والغيم . ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض ، واختلاف الارادات والمرادات ، ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع ، ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة ، ولماظهرت أحكام الاسماء والصفات . وظهور أحكامها وآثارها لابد منه ، إذ هو مقتضى الكمال المقدس ، والملك التام . وإذا أعطيت اسم الملك حقه ـ ولن تسطيع ـ علمت أن الخلق والامر ، والثواب والعقاب ، والعطاء والحرمان ، أمر لازم لصفة الملك ، وان صفة الملك تقتضى ذلك ولابد ، وان تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع . فالملك الحق يقتضى ارسال الرسل ، وانزال الكتب ، وأمر العباد ، ونهيهم ، وثوابهم ، وعقابهم ، وإكرام من يستحق الاكرام ، واهانة من يستحق الاهانة ، كما تستلزم حياة الملك ، وعلمه ، وإرادته ، وقدرته ، وسمعه ، وبصره ، وكلامه ، ورحمته ، ورضاه ، وغضبه ، واستواءه على سرير ملكه ، يدبر أمر عباده . وهذه الاشارة تكفى اللبيب فى مثل هذا الموضع ، ويطلع منها على أرض مونقة ، وكنوز من المعرفة . وبالله التوفيق

(١١) فصل

ثم قال تعالى(١٢ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ١٣ وإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ والأُولى)
قيل : معناه ، ان علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال . قال
قتادة : على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .
اختاره أبو اسحاق ، وهو قول مقاتل ، وجماعة ، وهذا المعنى حق .
ولكن مراد الآية شيء آخر . وقيل : المعنى إن علينا للهدى والاضلال
قال ابن عباس رضى الله عنهما ، فى رواية عطاء : يريد ، أرشد أوليائى
الى العمل بطاعتى ، وأحول بين أعدائى وبين أن يعملوا بطاعتى .
قال الفراء : فترك ذكر الاضلال ، كما قال (١٦ : ٨١ سَرَابِيلَ تَقِيكُم
الحَرَّ) أى والبرد . وهذا أضعف من القول الاول ، وان كان
معناه صحيحا . فليس هو معنى الآية . وقيل ، المعنى : من سلك الهدى
فعلى الله سبيله ، كقوله (١٦ : ٩ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) وهذا قول
مجاهد . وهو أصح الاقوال فى الآية . قال الواحدى : علينا للهُدَى ،
أى إن الهدى يوصل صاحبه الى الله ، والى ثوابه وجنته . وهذا
المعنى فى القرآن فى ثلاث مواضع : هنا ، وفى النَّحْل فى قوله
(وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) وفى الحجر فى قوله (١٥ : ٤١ هَذَا صِرَاطٌ
عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) وهو معنى شريف جليل ، يدل على أن سالك طريق

الهدى يوصله طريقه الى الله ولابد . والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله الى الله . فذكر الطريق والغاية ، فالطريق الهدى ، والغاية الوصول الى الله . فهذه أشرف الوسائل ، وغايتها أعلى الغايات .

ولما كان مطلوب السالك الى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هـذا المطلوب الا بتوحيد طلبه والمطلوب منه . فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئا ، وأن الدنيا والآخرة جميعا له وحده ، فاذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده ، فتضمنت الآيتان أربعة أمور ، هى المطالب العالية : ذكر أعلى الغايات ، وهو الوصول الى الله سبحانه ، وأقرب الطرق والوسائل اليـه ، وهى طريقة الهدى . وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها الى غـيرها . وتوحيد المطلوب ، وهو الحق . فلا يعدل عنه الى غـيره . فاقتبس هذه الامور من مشكاة هذه الكلمات ، فان هذه غاية العلم والفهم . وبالله التوفيق

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب ، وتوحيد الطلب ، وتوحيد الطريق الموصلة ، والانقطاع . وتخلف الوصول يقع من الشركة فى هـذه الامور ، أو فى بعضها ، فالشركة فى المطلوب تنافى التوحيد والاخلاص ، والشركة فى الطلب تنافى الصدق والعزيمة ، والشركة فى الطريق تنافى اتباع الامر . فالاول يوقع فى الشرك والرياء . والثانى يوقع فى المعصية والبطالة . والثالث يوقع فى البدعة ومفارقة السنة . فتأمله

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك . وتوحيد الطلب يعصم من المعصية ، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة . والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة

ولما أقام سبحانه الدليل ، وأنار السبيل ، وأوضح الحجة ، وبين المحجة ، أنذر عباده عذابه الذى أعده لمن كذب خبره ، وتولى عن طاعته . وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم ، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والاحسان والاخلاص . فهذا الصنف هو الذى يجنب عذابه ، كما قال (٩٢ : ١٧ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ١٨ الذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى) فهذا المتقى المحسن لا يفعل ذلك الا ابتغاء وجه ربه ، فهو مخلص فى تقواه واحسانه

وفى الآية الارشاد الى أن صاحب التقوى لا ينبغى له أن يتحمل من الخلق ونعمهم ، وان حمل منهم شيئا بادر الى جزائهم عليه ، لئلا يبقى لاحد من الخلق عليه نعمة تجزى ، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده ، ليس للمخلوق جزاء على نعمته

ونبه بقوله (تُجْزَى) على أن نعمة الاسلام التى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الأتقى لا تجزى ، فان كل ذى نعمة يمكن جزاء نعمته الا نعمة الاسلام ، فانها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها ، وهذا يدل على أن الصديق رضى الله عنه أول وأولى من ذكر فى هذه الآية ، وأنه أحق الامة بها . فان عليا رضى الله عنه تربى فى بيت

النبي صلى الله عليه وسلم ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم عنده نعمة غير نعمة الاسلام ، يمكن أن تجزى

ونبه سبحانه بقوله (إِلاَّ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ) على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، بخلاف من تطوّق نِعمَ المخلوقين ومِنَنَهم ، فانه مضطر الى أن يفعل لأجلهم ، ويترك لأجلهم ، ولهذا كان من كمال الاخلاص أن لا يجعل العبد عليه مِنّة لأحد من الناس ، لتكون معاملته كلها لله إبتغاء وجهه ، وطلب مرضاته . فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب فهذه الطريق أقصد الطرق اليه ، وأقربها وأقومها . وبالله التوفيق

فصل (١٢)

ومن ذلك اقسامه سبحانه : (٩٣ :١ الضُّحَىٰ ٢ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ) على إنعامه على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإكرامه له ، واعطائه ما يرضيه ، وذلك متضمن لتصديقه له ، فهو قسم على صحة نبوته ، وعلى جزائه في الآخرة ، فهو قسم على النبوة والمعاد ، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته ، وحكمته ، ورحمته ، وهما الليل والنهار

فتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل للمقسم عليه ، وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودع محمداً ربه . فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل

على ضوء الوحى ونوره ، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه . وأيضافان فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحى والنبوة . فهذان للحس ، وهذان للعقل . وأيضا فان الذى اقتضت رحمته أن لا يترك عباده فى ظلمة الليل سرمداً ، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، لا يليق به أن يتركهم فى ظلمة الجهل والغى ، بل يهديهم بنور الوحى والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذى على هذه الألفاظ ، والجلالة التى على معانيها

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه ، فالتوديع الترك ، والقِلَى البغض . فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه ، ولا أبغضه منذ أحبه . وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى وهذا يعم كل حالة يرقيه اليها هى خير له مما قبلها ، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها . ثم وعده بما تقرّ به عينه ، وتفرح به نفسه ، وينشرح به صدره ، وهو أن يعطيه فيرضى وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى ، والنصر ، وكثرة الاتباع ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته ، وما يعطيه فى موقف القيامة ، وما يعطيه فى الجنة ، وأما ما يغتر به الجهال ، من أنه لا يرضى وواحد من أمته فى النار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار !! فهذا من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم ، فانه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ، ثم يحد لرسوله

حدًا يشفع فيهم ، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول : لا أرضى أن يدخل أحدا من أمتى النار على أن يدعه فيها ، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له ، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ، ولا يشفع فى غير من اذن له فيه ورضيه

ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه ، وهدايته بعد الضلالة ، واغنائه بعد الفقر . فكان محتاجا الى من يؤويه ويهديه ويغنيه ، فآواه ربه ، وهداه ، وأغناه . فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر . فنهاه أن يَقْهَرَ اليتيم ، وأن يَنْهَرَ السائل ، وأن يكتم النعمة ، بل يحدث بها . فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين . قال مجاهد ، ومقاتل : لا تحقر اليتيم ، فقد كنت يتيما . وقال الفراء : لا تقهره على ماله ، فتذهب بحقه لضعفه . وكذلك كانت العرب تفعل فى أمر اليتامى ، تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب فى أمر اليتيم . وكذلك من لا ناصر له يغلظ فى أمره ، وهو نهى لجميع المكلفين

(وأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) قال أكثر المفسرين : هو سائل المعروف والصدقة ، لا تنهره ، إذا سألك . فقد كنت فقيراً ، فاما أن تطعمه ، وإما أن ترده ردًا ليّنا . قال الحسن : أما إنه ليس بالسائل الذى يأتيك ، ولكن طالب العلم . وهذا قول يحي بن آدم قال : اذا جاءك طالب العلم فلا تنهره . والتحقيق ان الآية تتناول النوعين

وقوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) قال مجاهد : بالقرآن .
وقال الكلبي : بمعنى أظهرها ، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ،
فأمره أن يقرئه ويعلمه . وروى أبو بشر ، عن مجاهد : حدث بالنبوة
التي أعطاك الله . وقال الزجاج : بَلِّغ ماأرسلت به . وحدث بالنبوة
التي آتاك ، وهي أجل النعم ، وقال مقاتل : أشكر هذه النعمة التي
ذكرت في هذه السورة . والتحقيق ان النعم تعم هذا كله فأمر أن
لا ينهر سائل المعروف ، والعلم وأن يحدث بنعم الله عليه في
الدين والدنيا

(١٣) فصل

ومن ذلك اقسامه سبحانه بـ(١٠٠ : ١ الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ٢ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً
٣ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً) وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك ،
فقال علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما :
هي إبل الحاج ، تعدو من عرفة إلى مزدلفة ، ومن مزدلفة إلى منى ،
وهذا اختيار محمد بن كعب ، وأبي صالح ، وجماعة من المفسرين .
وقال عبد الله بن عباس : هي خيل الغزاة ، وهذا قول أصحاب
ابن عباس ، والحسن ، وجماعة ، واختاره الفراء ، والزجاج ، قال
أصحاب الابل : السورة مكية ، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد .
وانما أقسم بما يعرفونه ويألفونه ، وهي إبل الحاج إذا عدت من

عرفة الى مزدلفة ، فهى عاديات ، والضَبْح والضَّبْع مد الناقة ضبعها في السير ، يقال ضبحت وضبعت بمعنى واحد ، وأنشد أبو عبيدة ، وقد اختار هذا القول :

فكان لكم أجرى جميعا وأضبحت * بى البازل الوجناء فى الآل تضبح

قالوا فهى تعدو ضبحا ، فتورى بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض ، فتثير النقع ـ وهو الغبار ـ بِعَدْوِها . فتتوسط جمعا ، وهى المزدلفة

قال أصحاب الخيل : المعروف فى اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل اذا عدون ، والمعنى والعاديات ضابحة ، فيكون ضبحا مصدرا على الأول ، وحالا على الثانى . قالوا : والخيل هى التى تضبح فى عدوها ضبحا ، وهو صوت يسمع من أجوافها ، ليس بالصهيل ولا الحمحمة ، ولكن صوت أنفاسها فى أجوافها من شدة العدو ، وقال الجرجانى : كلا القولين قد جاء فى التفسير ، الا أن السياق يدل على أنها الخيل ، وهو قوله تعالى (فالمُورِياتِ قَدْحاً) والايراء لا يكون الا للحافر ، لصلابته . وأما الخف ففيه لين واسترخاء . انتهى

قالوا : والضبح فى الخيل اظهر منه فى الابل ، والايراء لسنابك الخيل أبين منه لا خفاف الابل . قالوا : والنَقْع هو الغبار ، واثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الابل ، والضمير فى به عائد على المكان الذى تعدو فيه . قالوا وأعظم مايثير الغبار عند الاغارة

اذا توسطت الخيل جمع العدو ، لكثرة حركتها واضطرابها فى ذلك المكان . وأما حمل الآية فى إثارة الغبار فى وادى مُحَسِّرٍ عند الاغارة ، فليس بالبين ، ولا يثور هناك غبار فى الغالب ، لصلابة المكان . قالوا : وأما قولكم إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد ، فهذا لا يلزم ، لانه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل . اذا كانت فى غزو ، فأغارت فأثارت النَّقْعَ ، وتوسَّطَتْ جمع ألعدو . وهذا أمر معروف . وذكر خيل المجاهدين أحق مادخل فى هذا الوصف ، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص . فان هذا شأن خيل المقاتلة . وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين . والقسم انما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذى هو من أكرم البهيم وأشرفه ، وهو الذى يحصل به العز والظفر ، والنصر على الأعداء ، فيعدوا طالبة للعدو وهاربة منه ، فيثير عدوها الغبار لشدته ، وتورى حوافرها وسنابكها النار من الأحجار ، لشدة عدوها ، فتدرك الغارة التى طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء ، فهذا من أعظم آيات الرب تعالى ، وأدلة قدرته وحكمته ، فذكرهم بنعمه عليهم فى خلق هذا الحيوان الذى ينتصرون به على أعدائهم ، ويدركون به ثأرهم كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم فى خلق الابل التى تحمل اثقالهم من بلد الى بلد ، فالابل أخص بحمل الأثقال ، والخيل أخص

بنصرة الرجال ، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا ، وخص الاغارة بالضبح لأن العدو لم ينتشروا اذ ذاك ولم يفارقوا محلهم . وأصحاب الاغارة حامون مستريحون ، يبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم بل هم فى غِرَّتهم وغفلتهم ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر ، فان سَمع مُؤَذِّناً أمسك ، والا أغار

ولما علم أصحاب الأبل أن أخفافها أبعد شىء من وَرْى النار تأولوا الآية على وجوه بعيدة . فقال محمد بن كعب : هم الحاج اذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة ، وعلى هذا فيكون التقدير : فالجماعات الموريات . وهذا خلاف الظاهر . وانما الموريات هى العاديات ، وهى المغيرات . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس : هم الذين يغيرون ، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم ، كأنهم أخذوه من قوله تعالى (٥٦:٧١ أفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ؟) وهذا إن أريد به التمثيل ، وأن الآية تدل عليه فصحيح ، وان أريد به اختصاص الموريات فليس كذلك ، لأن الموريات هى العاديات بعينها . ولهذا عطفها عليه بالفاء التى للتسبب ، فانها عدَت فأورت . وقال قتادة : الموريات هى الخيل تورى نار العداوة بين المقتتلين ، وهذا ليس بشىء ، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها . وأضعف منه قول عكرمة : هى الألسنة تورى نار العداوة بعظيم ماتتكلم به وأضعف منه ماذكر عنه مجاهد : هى أفكار الرجال ، تورى نار المكر والخديعة فى الحرب

وهذه الأقوال ان أريدأن اللفظ دل عليها وأنها هى المراد فغلط . وان أريد أنها أخذت من طريق الاشارة والقياس فأمرها قريب

وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول : تفسير على اللفظ ، وهو الذى ينحو اليه المتأخرون . وتفسير على المعنى ، وهو الذى يذكره السلف . وتفسير على الاشارة والقياس وهو الذى ينحو إلى كثير من الصوفية وغيرهم . وهذا لا بأس به بأربعة شرائط : أن لا يناقض معنى الآية ، وان يكون معنى صحيحا فى نفسه ، وان يكون فى اللفظ إشعار به ، وان يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم . فاذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنا

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج : قدحا ، يعنى : فالمنجحات أمراً ، يريد البالغين بنجحهم فيما طلبوه ، وعطف قوله (فَأَثَرْنَ ، فَوَسَطْنَ) وهما فعلان على العاديات ، والموريات لما فيه من معنى الفعل

وكان ذكر الفعل فى أثَرْن ووَسَطْنَ أحسن من ذكر الاسم لأنه سبحانه قسم أفعالنا الى قسمين : وسيلة ، وغاية ، فالوسيلة هى العدو وما يتبعه من الايراء والاغارة ، والغاية هى توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع . فهن عاديات موريات مغيرات . حتى يتوسطن الجمع ويُثرن النقع . فالأول شأنهن الذى أعددن له ، والثانى فعلهن الذى انتهين اليه والله أعلم

(١٤) فصل

فهذا شأن القسم ، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الانسان ، وهو كونه الانسان كنوداً بشهادته على نفسه ، أو شهادة ربه عليه ، وكونه بيلا لحبه المال ، والكنود للنعمة ، وفعله كند يكند كنودا ، مثل كفر يكفر كفورا ، والارض الكنود التي لاتنبت شيئا ، وامرأة كَنَدى أى كفور للمعاشرة ، وأصل اللفظ منع الحق والخير ، ورجل كنود اذا كان مانعا لما عليه من الحق . وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى . قال ابن عباس رضى الله عنهما ، وأصحابه رحمهم الله تعالى : هو الكفور ، وقيل هو البخيل الذى يمنع رفده ، ويجيع عبده ، ولا يعطى فى النائبة . وقال الحسن : هو اللوام لربه ، يعد المصائب ، وينسى النعم

وأما قوله (وإِنَّهُ عَلى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ) فقال ابن عباس : يريد ان ربه على ذلك لشهيد ، وقيل ان الانسان لشهيد على ذلك ، إن انكر بلسانه أشهد ربه عليه حاله ، ويؤيد هذا القول سياق الضمائر . فان قوله (وإِنَّهُ لِحُبِّ الخيْرِ لَشَدِيدٌ) للانسان فافتتح الخبر عن الانسان بكونه كنودا ، ثم ثناه بكونه شهيدا على ذلك ، ثم ختمه بكونه بخيلا بماله لحبه إياه . ويؤيد قول ابن عباس رضى الله عنهما أنه اتى بعلى . فقال

(وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ) أى مطلع عالم به . كقوله (ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ على ما يَفْعَلُونَ) ولو أريد شهادة الانسان لأتى بالباء . فقيل وانه بذلك لشهيد . كما قال تعالى (٩ : ١٧ ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ على أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ) فلو أراد شهادة الانسان لقال : وانه على نفسه لشهيد . فان كنوده المشهود به ، ونفسه هى المشهود عليها

ثم قال تعالى (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ والخير هنا المال باتفاق المفسرين . والشديد البخيل من أجل حب المال ، فحب المال هو الذى حمله على البخل . هذا قول الاكثرين . وقال ابن قتيبة : بل المعنى: انه لشديد الحب للخير ، فتكون اللام فى قوله (لِحُبِّ الخَيْرِ) متعلقة بقوله (لَشَدِيدٌ) على حد تعلق قولك : انه لزيد لضارب ، ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما قبلها ، وهذه الآيات حجة على الجواز . فان قوله (لِرَبِّهِ) معمول (لَكَنُودٌ) وقوله (على ذَلِكَ)معمول (لَشَهِيد) ولا وجه للتكلف البارد فى تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور . فالحق جواز ان لزيد لضارب . فوصف سبحانه الانسان بكفران نعم ربه ، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم ، ولا محسن الى خلقه . بل بخيل بشكره ، بخيل بماله ، وهذا ضد المؤمن الكريم ، فانه مخلص لربه ، محسن الى

خلقه . فالمؤمن له الاخلاص والاحسان ، والفاجر له الكفر والبخل . وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين فى غير موضع من كتابه . كقوله (١٠٧ : ٤ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ٥ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ٦ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ ٧ وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ) فالرياء ضد الاخلاص . ومنع الماعون ضد الاحسان . وكذلك قوله تعالى (٤ : ٣٦ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ٣٧ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) فاختياله وفخره من كفره وكنوده ، وهذا ضد قوله (٢ : ٣ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وقوله (٤ : ٣٦ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ـ الآية) وكذلك ذكر الخلقين الذميمين فى قوله (٤ : ٣٧ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ) ونظيره (٤ : ٣٨ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ) ونظيره ما تقدم فى سورة الليل من ذم المستغنى البخيل ، ومدح المعطى المصدق بالحسنى . ونظيره قوله (١٠٤ : ١ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ٢ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ) فان الهمزة واللمزة من الفخر ، والكبر . وجمع المال وتعديده من البخل . وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودهما

ثم خوف سبحانه الانسان الذى هذا وصفه حين يُبعثر مافى القبور، ويحصل مافى الصدور، أى ميُّز، وجُمع، وبُيّن، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله «ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا (١)» فان الانسان يوارى صدره مافيه من الخير والشر، ويوارى قبره جسمه، فيخرج الربُّ جسمه من قبره وسرّه من صدره، فيصير جسمه بارزا على الارض، وسره باديا على وجهه. كما قال تعالى (٥٥: ٤١ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) وقال (٦٨: ١٦ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

(١٥) فصل

ومفعول العلم «إنّ» علمت فيه، وكسرت لمكان اللام، وقيد سبحانه كونه خبيرا بهم ذلك اليوم ـ وهو خبير بهم فى كل وقت ـ ايذانا بالجزاء، وانه يجازيهم فى ذلك اليوم بما يعلمه منهم. فذكر العلم والمراد لازمه. والله سبحانه وتعالى أعلم

(١٦) فصل

ومن ذلك اقسامه (بالْعَصْرِ) على حال الانسان فى الآخرة. هذه السورة

---

(١) رواه البخاري وغيره وذلك فى غزوة الاحزاب، وهى الخندق حين شغل المشركون النبي صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر

على غاية اختصارها لها شأن عظيم ، حتى قال الشافعى رحمه الله : لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم

والعصر المقسم به ، قيل : هو أول الوقت الذى يلى المغرب من النهار، وقيل : هو آخر ساعة من ساعاته ، وقيل : المراد صلاة العصر. وأكثر المفسرين على أنه الدهر . وهذا هو الراجح . وتسمية الدهر عصراً أمر معروف فى لغتهم . قال :

ولن يلبث العصران يوم وليلة * إذا طلبا أنْ يُدْرِكا ما تَيَمَّمَا

ويوم وليلة بدل من العصران . فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه . فان مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام. وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما فى الضوء ، والظلام ، والحر ، والبرد ، وانتشار الحيوان ، وسكونه ، وانقسام العصر الى القرون ، والسنين ، والاشهر ، والأيام ، والساعات وما دونها - آية من آيات الرب تعالى ، وبرهان من براهين قدرته وحكمته

فأقسم بالعصر الذى هو زمان أفعال الانسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان ، والفاعلين وأفعالهم على المعاد ، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد ، وان حكمته التى اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم ، وجعلها قسمين خيراً وشرا تأبى أن يسوى بينهم ، وأن لا يجازى المحسن

باحسانه والمسيء باساءته . وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين ، بل الانسان من حيث هو انسان خاسر ، إلا من رحمه الله . فهداه ووفقه للايمان والعمل الصالح فى نفسه ، وأمر غيره به ، وهذا نظير رده الانسان الى أسفل سافلين ، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين

وتأمل حكمة القرآن لما قال (إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) فانه ضيق الاستثناء وخصصه ، فقال (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) ولما قال (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) وسع الاستثناء وعممه ، فقال (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ولم يقل (وَتَوَاصَوْا) فان التواصى هو أمر الغير بالايمان والعمل الصالح ، وهو قدر زائد على مجرد فعله . فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح ، فصار فى خسر . ولا يلزم أن يكون فى أسفل سافلين . فان الانسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره ، فان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مرتبة زائدة . وقد تكون فرضا على الأعيان . وقد تكون فرضا على الكفاية . وقد تكون مستحبة

والتواصى بالحق يدخل فيه الحق الذى يجب ، والحق الذى يستحب . والصبر يدخل فيه الصبر الذى يجب ، والصبر الذى يستحب . فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره

أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم فى أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به ، وان كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم . فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء . وهو سبحانه انما قال (إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) ومن ربح فى سلعة وخسر فى غيرها قد يطلق عليه أنه فى خسر وأنه ذو خسر ، كما قال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما : لقد فرطنا فى قراريط كثيرة (١) فهذا نوع تفريط ، وهو نوع خسر بالنسبة الى من حصل ربح ذلك

ولما قال فى سورة والتين (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) قال (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فقسم الناس الى هذين القسمين فقط . ولما كان الانسان له قوتان قوة العلم وقوة العمل . وله حالتان حالة يأتمر فيها بأمر غيره ، وحالة يأمر فيها غيره ، استثنى سبحانه من كمل قوته العلمية بالايمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وانقاد لأمر غيره له بذلك ، وأمر غيره به من الانسان الذى هو فى خسر . فان العبد له حالتان حالة كمال فى نفسه ، وحالة تكميل لغيره ، وكماله وتكميله موقوف على أمرين : علم بالحق ، وصبر عليه . فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الانسانى ، من العلم النافع ، والعمل الصالح ، والاحسان الى نفسه بذلك ، والى أخيه به ، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك

---

(١) رواه البخارى فى باب فضل اتباع الجنازة . قال الحافظ : أى من عدم المواظبة على حضور الدفن . لأن ابن عمر كان يصلى على الميت ثم ينصرف .

وقوله تعالى (وتَواصَوْا بالحَقّ وتَواصَوْا بالصَّبْرِ) ارشاد الى منصب الامامة فى قوة الدين. كقوله تعالى (٣٢: ٢٤ وجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) فبالصبر واليقين تنال الامامة فى الدين

والصبر نوعان: نوع على المقدور، كالمصائب. ونوع على المشروع. وهذا النوع أيضا نوعان. صبر على الأوامر، وصبر عن النواهى. فذاك صبر على الارادة والفعل. وهذا صبر عن الارادة والفعل. فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لايثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي صلى الله عليه وسلم فى حق ابنته «مُرْهَا فَلْتَصْبِرْ ولْتحتسب(١)» وقال تعالى (١١: ١١ إلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ) وقال تعالى (٣: ١٢٥ بَلَى، إِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا) وقال (٣: ١٢٠ وإِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا) فالصبر بدون الايمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالى عن الايمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور. وقال تعالى (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) فأمره أن يصبر

---

(١) ابنته هى زينب. بعثت إليه أن ابنا لها قبض، فائتنا. فأرسل يقرىء السلام ويقول «إن لله ما أخذ وله ما أعطي وكل عنده بأجل مسمى — الحديث» رواه البخارى وغيره فى كتاب الجنائز عن أسامة بن زيد

ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم فى عدم الصبر . فانهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم ، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا ، وما خفوا ولا استخفوا . فمن قل يقينه قل صبره ، ومن قل صبره خف واستخف ، فالموقن الصابر رزين ، لأنه ذولب وعقل ، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات ، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف . والله المستعان

فصل (١٧)

ومن ذلك اقسامه سبحانه بـ (٨٥ : ١ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) التى تنزلها الشمس والقمر . وفسرت بالنجوم ، أو نوع منها . وفسرت بالقصور العظام ، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته ، فان السماء كرة متشابهة الأجزاء ، والشكل الكرى ، لا يتميز منه جانب عن جانب بطول ، ولا قصر ولا وضع ، بل هو متساوى الجوانب . فجعل هذه البروج فى هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل ، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر ، ولا عالم ، ولا مريد ، ولا حى ، ولا حكيم ، ولا مباين للمفعول ، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم ربا بائنا قادرا ، فاعلا بالاختيار ، عالما بتفاصيله حكيما مدبرا له .

فبروج السماء هى منازلها ، أو منازل السيارة التى فيها ، من أعظم

آياته سبحانه ، فلهذا أقسم بها مع السماء ، ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة ، وهو المقسم به وعليه ، كما أن القرآن يقسم به وعليه . ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه ، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التى تأبى أن يتركهم سُدًى ، ويخلقهم عبثا . وبغير ذلك من الآيات والبراهين التى يستدل بها سبحانه على امكانه تارة ، وعلى وقوعه تارة ، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتى به تارة . فالاقسام به عند من آمن بالله كالاقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود ، مطلقين غير معينين ، وأعم المعانى فيه أنه المدرِك والمدرَك ، والعالم والمعلوم ، والرائى والمرئى وهذا أليق المعانى به ، وماعداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل ، لا على وجه التخصيص

فان قيل : فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها ؟ قيل : هى بحمد الله فى غاية الارتباط . والاقسام بها متناول لكل موجود فى الدنيا والآخرة ، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته ،

فأقسم بالعالم العلوى ، وهى السماء وما فيها من البروج ، التى هى أعظم الأمكنة وأوسعها ، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرا ، الذى هو مظهر ملكه ، وأمره ، ونهيه ، وثوابه ، وعقابه ، ومجمع أوليائه وأعدائه ، والحكم بينهم بعلمه وعدله ، ثم أقسم بما هو أعم

من ذلك كله ، وهو الشاهد والمشهود ، وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه ، وهم شهود على مايفعلون بهم ، والملائكة شهود عليهم بذلك ، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم. وأيضا فالشاهد هو المطلع والرقيب ، والمخبر والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به ، المشاهد

فمن نوّع الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين ، كما نوعها الى مرئي لنا وغير مرئي ، كما قال (٦٩ : ٣٨ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٩ ومَا لَا تُبْصِرُونَ) كما نوعها الى أرض وسماء ، وليل ونهار ، وذكر وأنثى ، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه ـ كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود

وفيه سر آخر ، وهو أن من المخلوقات ماهو مشهود عليه ، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك ، فكيف يكون المخلوق شاهدا رقيبا حفيظا على غيره ، ولا يكون الخالق تبارك وتعالى شاهدا على عباده ، مطلعا عليهم رقيبا ؟

وأيضا فان ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله ، فانهم شاهدون عل العباد ، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه كما أقسم باليوم الموعود ، وهو المقسم به وعليه ، وأيضا فيوم القيامة مشهود ، كما قال تعالى (١١ : ١٠٣ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذَلِكَ يَومٌ مَشْهُودٌ) يشهده الله وملائكته والانس والجن ،

والوحش ، من آياته ، والمشهود من آياته .

وأيضا فكلامه مشهود كما قال تعالى (١٧ : ٧٨ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً) تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار . فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد ، فكل ماوقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل فى هذاالقسم فلاوجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الاعيان إلا على سبيل التمثيل

وأيضا فكتاب الابرار فى عليين يشهده المقربون . فالكتاب مشهود ، والمقربون شاهدون

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب ، لأن القصدالتنبيه على المقسم به ، وانه من آيات الرب العظيمة . ويبعد أن يكون الجواب (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود .

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعودٌ على جانب الأخدود ، شاهدين ما يجرى على عباد الله تعالى وأوليائه عيانا ، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة ، ولا يعيبون عليهم دينا سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض ، وهذا الوصف يقتضى إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم . فعاملوهم بضد مايقتضى أن يعاملوا به . وهذا شأن أعداء الله دائما ، ينقمون على أوليائه ما ينبغى أن يحبوا ويكرموا لأجله ، كما قال تعالى (٥ : ٥٩ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ) وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم ، فقالوا (٧ : ٨٢ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) وكذلك أهل الاشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد ، وإخلاص الدعوة والعبوديه لله وحده ، وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها ، وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الاثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله . وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم ، وترضيهم عنهم وولايتهم اياهم ، وتقديم من قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ، وتنزيلهم منازلهم التى أنزلهم الله ورسوله بها ، وكذلك أهل الرأى المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه . وكل هؤلاء لهم نصيب ، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود . وبينهم وبينهم نسب قريب أو بعيد

ثم أخبر سبحانه أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق ، حيث لم يتوبوا ، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم . وهذا غاية الكرم والجود . قال الحسن : أنظروا الى هذا الكرم والجود ، يقتلون أولياءه ، ويفتنونهم ، وهو يدعوهم الى التوبة والمغفرة . أنظروا الى كرم الرب تعالى ، يدعوهم الى التوبة وقد فتنوا أولياءه ، فحرقوهم بالنار . فلا ييأس العبد من

مغفرته وعفوه ، ولو كان منه ما كان ، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة ، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده، وعبده وحده ، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم ، وألحقهم بأوليائه

ثم ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين ، ثم ذكر شدة بطشه وأنه لايعجزه شيء، فانه هو المبدئ المعيد . ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه ، وهو مع ذلك الغفور الودود ، يغفر لمن تاب اليه ويوده ويحبه ، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش ، ومع ذلك هو الغفور الودود ، المتودد الى عباده بنعمه ، الذى يود من تاب اليه وأقبل عليه ، وهو الودود أيضا أى المحبوب ، قال البخارى فى صحيحه : الودود الحبيب ، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين ، على كونه واداً لأوليائه ومودودا لهم . فأحدهما بالوضع ، والآخر باللزوم . فهو الحبيب المحب لأوليائه ، يحبهم ويحبونه ، وقال شعيب عليه السلام (١١ : ٩٠ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور ، فان الرجل قد يغفر لمن أساء اليه ولا يحبه . وكذلك قد يرحم من لايحب والرب تعالى يغفر لعبده اذا تاب اليه ، ويرحمه ويحبه مع ذلك ، فانه يحب التوابين ، واذا تاب اليه عبده أحبه ، ولو كان منه ما كان

ثم قال (ذُو الْعَرْشِ) فأضاف العرش الى نفسه ، كما تضاف اليه الاشياء العظيمة الشريفة . وهذا يدل على عظمة العرش ، وقربه منه

سبحانه ، واختصاصه به ، بل يدل على غاية القرب والاختصاص ، كما يضيف الى نفسه « بذو » صفاته القائمة به . كقوله (ذُو الْقُوَّةِ) (ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) ويقال : ذو العزة ، وذو الملك وذو الرحمة ونظائر ذلك . فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لا فرق أن يقال : ذو العرش ، وذو الأرض

ثم وصف نفسه بالمجيد ، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها ، وعدم احصاء الخلق لها ، وسعة أفعاله ، وكثرة خيره ودوامه . وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء . والمخلوق انما يصير مجيدا بأوصافه وأفعاله . فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيدا ، وهو معطل عن الأوصاف والأفعال ؟ تعالى الله عما يقول المعطلون علواً كبيرا ، بل هو المجيد الفعال لما يريد . والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال ، وكثرة أفعال الخير . وأحسن ما قرن اسم المجيد الى الحميد ، كما قالت الملائكة لبيت الخليل عليه السلام (١١ : ٧٣ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني على الرب تعالى بأنه حميد مجيد ، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول « ربنا ولك الحمد ، أهل الثناء والمجد » فالحمد والمجد على الاطلاق لله الحميد المجيد ، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال . والمجيد العظيم الواسع القادر الغني ، ذو الجلال والاكرام .

ومن قرأ (المجيد) بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه ، واذا كان عرشه مجيدا فهو سبحانه أحق بالمجد . وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس ، وقال : لم يسمع فى صفات الخلق مجيد ، ثم خرجها على أحد الوجهين ، إما على الجوار ، وإما أن يكون صفة لربك . وهذا من قلة بضاعة هذا القائل . فان الله سبحانه وصف عرشه بالكرم ، وهو نظير المجد . ووصفه بالعظمة . فوصفه سبحانه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم ، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك ، لسعته وحسنه وبهاء منظره ، فانه أوسع كل شىء فى المخلوقات وأجمله ، وأجمعه لصفات الحسن ، وبهاء المنظر ، وعلو القدر والرتبة والذات ، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه ، وبهاء منظره الا الله . ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه . والسموات السبع والأرضون السبع فى الكرسى ـ الذى بين يديه ـ كحلقة ملقاة فى أرض فلاة ، والكرسى فيه كتلك الحلقة فى الفلاة . قال ابن عباس : السموات السبع فى العرش كسبعة دراهم جعلن فى ترس ، فكيف لا يكون مجيدا وهذا شأنه ؟ فهو عظيم كريم مجيد . وأما تكلف هذا المتكلف جره الى الجوار ، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد ، وخروج عن المألوف فى اللغة من غير حاجة الى ذلك

وقوله (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) دليل على أمور ﴿أحدها﴾ أنه سبحانه يفعل بارادته ومشيئته ﴿الثانى﴾ أنه لَمْ يزل كذلك ، لانه لم يزل

كذلك ، لانه ساق ذلك فى معرض المدح والثناء على نفسه ، وأن ذلك من كماله سبحانه . فلا يجوز أن يكون عادما لهذا الكمال فى وقت من الأوقات . وقد قال تعالى (١٦ : ١٧ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟)وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد أن لم يكن ﴿ الثالث ﴾ أنه إذا أراد شيئا فعله ، فان «ما» موصولة عامة ، أى يفعل كل مايريد أن يفعله . وهذا فى فى إرادته المتعلقة بفعله . وأما ارادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر . فان أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلا لم يوجد الفعل وإن أراده ، حتى يريده من نفسه أن يجعله فاعلا ، وهذه هى النكتة التى خفيت على القدرية والجبرية ، وخبطوا فى مسئلة القدر لغفلتهم عنها ، فان هنا إرادتين : إرادة أن يفعل العبد ، وارادة أن يجعله الرب فاعلا ، وليستا متلازمتين ، وان لزم من الثانية الاولى من غير عكس . فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده ، وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله ، وقد يريد فعله ، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل ، فلا يوجد الفعل .

فان اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر الى قول النبي صلى الله عليه وسلم ، حاكيا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة « قد أردتُ منك أهوَنَ مِن هذا وأنت فى صلب أبيك: أن لا تشركَ بى شيئا» ولم يقع هذا المراد ، لانه لم يرد من نفسه اعانته عليه وتوفيقه له

﴿الرابع﴾ أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان . فما أراد أن يفعله فعله ، ومافعله فقد أراده . بخلاف المخلوق، فانه يريد مالا يفعل، وقد يفعل مالا يريد . فما ثم فعّال لما يريد الا الله وحده

﴿الخامس﴾ اثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال ، وأن كل فعل له إرادة تخصه، وهذا هو المعقول فى الفطر ، وهو الذى يعقله الناس من الارادة ، فشانه تعالى أنه يريد على الدوام ، ويفعل مايريد

(السادس) أن كل ماصلح أن تتعلق به ارادته جاز فعله . فاذا أراد أن ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ، وأن يجىء يوم القيامة لفصل القضاء ، وأن يرى نفسه لعباده ، وان يتجلى لهم كيف شاء ، وأن يخاطبهم ويضحك اليهم ، وغير ذلك مما يريد سبحانه ـ لم يمتنع عليه فعله ، فانه فعال لما يريد . وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به . فاذا أخبر به وجب التصديق به ، وكان رده ردا لكماله الذى أخبر به عن نفسه . وهذا عين الباطل . وكذلك إذا أمكن ارادته سبحانه محو ماشاء واثبات ماشاء أمكن فعله ، وكانت الارادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس .

وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة ، وعدم النظير ، والحمد المتضمن لصفات الكمال ، والتنزيه عن أضدادها ، مع محبته وآلهيته ، وملكه السموات والارض، المتضمن لكمال غناه ، وسعة ملكه ، وشهادته على كل شىء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر

الامور وبواطنها ، واحاطته بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها ، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة ، وتفرده بالابداء والاعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه فى المخلوقات بالابداء والاعادة وانقيادها لقدرته ، فلا يستعصى عليه منها شىء . ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده واحسانه وغناه ورحمته . ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبا الى عباده محبا لهم . ووصفه بأنه ذو العرش الذى لايقدر قدره سواه ، وأن عرشه المختص به لايليق بغيره أن يستوى عليه ، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والاحسان والكرم . وكونه فعالا لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته ، وغير ذلك من أوصاف كماله

فهذه السورة كتاب مستقل فى أصول الدين ، تكفى من فهمها فالحمدلله الذى أنزل على عبده الكتاب وتبارك الذى نزل الفرقان على عبده

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به ، وكذب رسله . تحذيرا لعباده من سلوك سبيلهم ، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم ، ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم فى قبضته ، وهو محيط بهم . ولا أسوأ حالا ممن عادى من هو فى قبضته ، ومن هو قادر عليه من كل وجه ، وبكل اعتبار .

فقال ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ فهذا أعجب عجب ممن كفر بمن هو محيط به ، وآخذ بناصيته قادر عليه. ثم وصف كلامه بأنه مجيد ، وهو أحق بالمجد من كل كلام . كما أن المتكلم به له المجد كله . فهو المجيد ، وكلامه مجيد ، وعرشه مجيد . قال ابن عباس رضى الله عنهما : قرآن مجيد ، كريم . لان كلام الرب ليس كما يقول الكافرون : شعر ، وكهانة ، وسحر . وقد تقدم أن المجد السعة ، وكثرة الخير ، وكثرة خير القرآن لا يعلمها الا من تكلم به

وقوله ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أكثر القراء على الجر ، صفة للوح . وفيه اشارة الى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به ، لأن محله محفوظ أن يصلوا اليه ، وهو فى نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان . فوصفه سبحانه بأنه محفوظ فى قوله (١٥: ٩ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ووصف محله بالحفظ فى هذه السورة . فالله سبحانه حفظ محله ، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل ، وحفظ معانيه من التحريف . كما حفظ ألفاظه من التبديل ، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان . ومعانيه من التحريف والتغيير

(١٨) فصل

ومن ذلك اقسامه سبحانه بـ(١:٨٦ السَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) وقد فسره بأنه (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) الذى يثقب ضوؤه. والمراد به الجنس لا نجم معين. ومن عينه بأنه الثريا، أو زُحَل، فان أراد التمثيل فصحيح، وان أراد التخصيص فلا دليل عليه

والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة. وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته، وسمى النجم طارقا، لانه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذى يطرق الناس، أو أهله ليلا. قال الفراء: ما أتاك ليلا فهو طارق. وقال الزجاج، والمبرد: لا يكون الطارق نهاراً. ولهذا تستعمل العرب الطروق فى صفة الخيال كثيرا، كما قال ذو الرمة:

ألا طرقت مَىٌّ هيوما بذكرها وأيدى الثريا جنَّح بالمغارب

وقال جرير:

طرقَتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة، فارجعى بسلام

ولهذا قيل: أول من ردالطيف جرير، فلم يزل الناس على قبوله واكرامه كالضيف. فالطيف والضيف كلاهما لا يرد. وقال الآخر:

ألا طرَقت من آخر الليل زينب عليك سلام، هل لما فات مَطلب؟

(١٩) فصل

والمقسم عليه ههنا حال النفس الانسانية ، والاعتناء بها، واقامة الحفظة عليها . وانها لم تترك سدى ، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ، ويحصيها ، فأقسم سبحانه انه مامن نفس الا عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ عملها وقولها ، ويحصى ماتكتسب من خير اوشر

واختلف القراء فى «لمَّا» فشددها بعضهم، وخففها بعضهم. فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى إلا، وهى تكون بمعنى إلا فى موضعين *(أحدها)* بعد إن المخففة مثل هذا الموضع ، أو المثقلة مثل قوله(١١ : ١١١ وإنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ)*(والثانى)* فى باب القسم، نحو سألتك بالله لما فعلت . قال أبو على الفارسى : من خفف كانت عنده هى المخففة من الثقيلة ، واللام فى خبرها هى الفارقة بين إن النافية والخفيفة وما زائدة ، وإن هى التى يتلقى بها القسم ، كما يتلقى بالمثقلة

ومن قرأها مشددة كانت إن عنده نافية بمعنى ما ، ولما فى معنى إلا . قال سيبويه، عن الخليل ـ فى قولهم: نَشَدْتُكَ بالله لما فعلت ـ قال المعنى: إلا فعلت

ثم نبه سبحانه الانسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن فى الاستدلال على المعاد بالمبدأ . فقال (٥ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ ؟) أى فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذى ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على إعادته

ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق . والدَّفق صب الماء ، يقال دفقت الماء فهو مدفوقٌ ودافقٌ ومندفق . فالمدفوق الذى وقع عليه فعلك ، كالمكسور ، والمضروب ، والمندفق المطاوع لفعل الفاعل تقول دفقته فاندفق ، كما تقول كسرته فانكسر . والدافق قيل انه فاعل بمعنى مفعول ، كقولهم سِرٌ كاتم ، وعيشة راضية . وقيل : هو على النسب ، لا على الفعل ، أى ذى دفق ، أو ذات . ولم يرد الجريان على الفعل وقيل ـ وهو الصواب ـ انه اسم فاعل على بابه ، ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق . فان اسم الفاعل هو من قام به الفعل ، سواء فعله هو أو غيره ، كما يقال : ماء جار ، ورجل ميت وان لم يفعل الموت ، بل لما قام به من الموت نسب اليه على جهة الفعل . وهذا غير منكر فى لغة أمة من الامم ، فضلا عن أوسع اللغات وأفصحها . وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية ، فانها اللائقة بهم ، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها ، كأنها رضيت بهم ورضوا بها . وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمله . وإذا كانوا يقولون : الوقت الحاضر ، والساعة الراهنة ـ وان لم يفعلا ذلك ، فكيف يمتنع أن يقولوا ماء دافق ، وعيشة راضية ؟

ونبه سبحانه بكونه دافقا على انه ضعيف غير متماسك ، ثم ذكر محله الذى يخرج منه ، وهو بين الصلب والترائب . قال ابن عباس :

صلب الرجل ، وترائب المرأة ، وهو موضع القلادة من صدرها .
والولد يخلق من المائين جميعا . وقيل : صلب الرجل وترائبه ، وهي صدره ، فيخرج من صلبه وصدره ، وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم

ثم ذكر الامر المستدل عليه والمعاد بقوله (إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) أي على رجعه اليه يوم القيامة ، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه . هذا هو الصحيح في معنى الآية . وفيها قولان ضعيفان *(أحدهما)* قول مجاهد : على رد الماء في الاحليل لقادر *(والثاني)* قول عكرمة والضحاك . على رد الماء في الصلب . وفيه قول ثالث قال مقاتل : ان شئت رددته من الكبر الى الشباب ، ومن الشباب الى الصبا ، الى النطفة

والقول الصواب هو الاول لوجوه *(أحدها)* انه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد *(الثاني)* أن ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء في الاحليل *(الثالث)* انه لم يأت لهذا المعنى في القرآن نظير في موضع واحد ، ولا أنكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه *(الرابع)* انه قيد الفعل بالظرف وهو قوله (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) وهو يوم القيامة ، أي ان الله قادر على رجعه اليه حيا في ذلك اليوم *(الخامس)* ان الضمير في (رَجْعِهِ) هو الضمير في قوله (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) وهذا للانسان

قطعا لا للماء *(السادس)* انه لا ذكر للاحليل ، حتى يتعين كون المرجع اليه . فلو قال قائل : على رجعه الى الفرج الذى صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول، ولم يكن أولى منه *(السابع)* ان رد الماء الى الاحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة ، وان كان مقدورا للرب تعالى ، ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة ، ولا هو مما تكلم الناس فيه ، نفيا أو اثباتا ، ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه وينبه على منكريه ، وهو سبحانه انما يستدل على أمر واقع ولا بد، إما قد وقع ووجد أو سيقع

فان قيل: فقد قال تعالى (٧٥ : ٣ أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ؟ ٤ بَلَى ، قادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) أى نجعله كخف البعير قيل: هذه أيضا فيها قولان *(أحدهما)* هذا *(والثانى)* — وهو الارجح — أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت ، بعد ما فرقها البلى فى التراب

(الثامن) أنه سبحانه دعا الانسان إلى النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه بما أخبر به ، وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء فى إحليله بعد مفارقته له ، حتى يدعوه الى النظر فيما خلق منه، ليستقبح منه صحة إمكان رد الماء *(التاسع)* أنه لا ارتباط بين النظر فى مبدأ خلقه ورد الماء فى الاحليل بعد خروجه ، ولا تلازم بينهما ، حتى يجعل أحدهما دليلا على إمكان الآخر ، بخلاف الارتباط الذى بين المبدأ والمعاد ، والخلق الأول والخلق الثانى ، والنشأة الأولى والنشأة

الثانية . فانه ارتباط من وجوه عديدة ، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر ، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر . فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر

(العاشر) انه سبحانه نبه بقوله (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) على أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه ، فلا يضيع منه شيء . ثم نبه بقوله (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) على بعثه لجزائه على العمل الذى حفظ وأحصى عليه . فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته ، فبدؤه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه ، ونبه على هذا بقوله (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) أى تختبر . وقال مقاتل : تظهر وتبدو ، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه ، وما خفي منه . والسرائر جمع سريرة ، وهى سرائر الله التى بينه وبين عبده فى ظاهره وباطنه لله . فالايمان من السرائر ، وشرائعه من السرائر . فتختبر ذلك اليوم ، حتى يظهر خيرها من شرها ، ومؤديها من مضيعها . وما كان لله مما لم يكن له . قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : يبدى الله يوم القيامة كل سر فيكون زينا فى الوجوه ، وشينا فيها . والمعنى تختبر السرائر باظهارها ، واظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب ، والحمد والذم

وفى التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة ، وهو ان الأعمال نتائج السرائر الباطنة ، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحا ، فتبدو سريرته على وجهه نورا واشراقا وحياء ، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعا لسريرته ، لا اعتبار بصورته ، فتبدو سريرته على وجهه

سواداً وظلمة وشينا . وان كان الذى يبدو عليه فى الدنيا انما هو عمله لا سريرته ، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته ، ويكون الحكم والظهور لها . قال الشاعر :

فان لها فى مضمر القلب والحشا * سريرة حب يوم تبلى السرائر

ثم أخبر سبحانه عن حال الانسان فى يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله ، لا بقوة منه ولا بقوة من خارج ، وهو الناصر . فان العبد إذا وقع فى شدة ، فاما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره . وكلاهما معدوم فى حقه . ونظيره قوله سبحانه (٢١ : ٤٣ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ)

ثم أقسم سبحانه بـ (السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) فاقسم بالسماء ورجعها بالمطر ، والأرض وصدعها بالنبات . قال الفراء . تبدى بالمطر ثم ترجع به ، فى كل عام . وقال أبو اسحق : الرجع المطر ، لأنه يجىء ويرجع ويتكرر . وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : تبدى بالمطر ثم ترجع به . فى كل عام . والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل . ورجع السماء هو اعطاء الخير الذى يكون من جهتها حالا بعد حال ، على مرور الأزمان . ترجعه رجعا ، أى تعطيه مرة بعد مرة . والخير كله من قبل السماء يجىء . ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به ، وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات ، وفسر الصدع بالنبات ، لانه

يصدع الارض أى يشقها. فاقسم سبحانه بالسماء ذات المطر ، والارض ذات النبات ، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته

واقسم على كون القرآن حقاً وصدقا فقال (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) كما أقسم فى أول السورة على حال الانسان فى مبدئه ومعاده . والقول الفصل هو الذى يفصل بين الحق والباطل ، فيميز هذا من هذا ، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ومصيب الفصل الذى ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره ، كما قال : أصاب الفصل وأصاب المرء . إذا أصاب بكلامه نفس المعنى المراد ، ومنه فصل الخطاب . وأيضا فالقول الفصل بيان المعنى ضد الاجمال . فكون القرآن فصلا يتضمن هذه المعانى كلها ، ويتضمن كونه حقا ليس بالباطل ، وجداً ليس بالهزل . ولما كان الهزل هو الذى لاحقيقة له ـ وهو الباطل واللعب ـ قابل بين الفصل والهزل . وإنما يكيد المكذبون ويحيلون ، ويخادعون لرده ، ولا يردونه بحجة ، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده ، وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون ، والاملاء لهم حتى يأخذهم على غرة ، كما قال تعالى (٧ : ١٨٣ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) فالانسان اذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه ، فيأخذه كما يفعل الملوك ، فاذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد

الله لهم حسنا لاقبح فيه ، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة

ثم قال (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً) أى أنظرهم قليلا ولا تستعجل لهم ، والرب تعالى هو الذى يمهلهم . وانما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم ، أو على معنى انتظر بهم قليلا . ورويدا فى كلامهم يكون اسم فعل ، فينصب بها الاسم نحو رويدا زيدا ، أى خله وأمهله ، وارفق به . الثانى أن يكون مصدرا مضافا الى المفعول ، نحو رويدزيد ، أى امهال زيد ، نحو ضرب الرقاب . الثالث أن يكون نعتا منصوبا ، نحو قولك : ساروا رويدا تقول العرب : ضعه رويدا ، أى وضعا رويدا . وفى حديث عائشة فى خروج النبى صلى الله عليه وسلم بالليل من عندها الى البقيع « فخرج رويدا ، وأجاف الباب رويدا (١) » ويجوز فى هذا الوجه وجهان أحدهما أن يكون حالا . والثانى أن يكون نعتا لمصدر محذوف ، فان أظهرت المنعوت تعين الوجه الثانى . ورويداً فى هذه الآية هو من هذا النوع الثالث . والله اعلم

(٢٠) فصل

ومن ذلك اقسامه (٨٤ : ١٦) الشَّفَقِ ١٧ وَاللَّيْلِ وَمَا وسق ١٨

---

(١) أجاف الباب : اغلقه والحديث رواه الامام احمد

وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل *(أحدها)* الشفق ، وهو فى اللغة الحمرة بعد غروب الشمس الى وقت صلاة العشاء الآخرة ، وكذلك هو فى الشرع. قال الفراء ، والليث، والزجاج، وغيرهم: الشفق الحمرة فى السماء . وأصل موضوع الحرف لرقة الشىء . ومنه شىء شفق لاتماسك له لرقته ، ومنه الشفقة وهو الرقة . واشفق عليه اذا رق له . وأهل اللغة يقولون : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها . ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذى يدخل وقت العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة ، فان الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حداً لوقت المغرب . فاذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء . وأما البياض فانه يمتد وقته بطول لبثه ، ويكون حاصلا مع بعد الشمس عن الأفق . ولهذا صح عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : الشفق الحمرة . والعرب تقول : ثوب مصبوغ كأنه الشفق ، اذا كان أحمر ، حكاه الفراء . وكذلك قال الكلبى : الشفق الحمرة التى تكون فى المغرب . وكذلك قال مقاتل : هو الذى يكون بعد غروب الشمس فى الأفق قبل الظلمة . وقال عكرمة : هو بقية النهار . وهذا يحتمل أن يريد به ان تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التى هى آية النهار . وقال مجاهد : هو النهار كله . وهذا ضعيف جداً . وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق ، ظن أنه النهار . وهذا ليس بلازم

(الثانى) قسمه بالليل وما وسق، أى وما ضم وحوى وجمع . والليل

وما ضمه وحواه آية أخرى ، والقمر آية ، واتساقه آية أخرى . والشفق يتضمن إدبار النهار ، وهو آية ، واقبال الليل ، وهو آية أخرى . فان هذا اذا أدبر خلفه الآخر ، يتعاقبان لمصالح الخلق . فادبار النهار آية . واقبال الليل آية . وتعقب أحدهما الآخر آية ، والشفق الذى هو متضمن الامرين آية . والليل ـ آية . وما حواه آية ، والهلال آية ، وتزايده كل ليلة آية . واتساقه ـ وهو امتلاؤه نورا ـ آية ، ثم أخذه فى النقص آية . وهذه وامثالها آيات دالة على ربوبيته ، مستلزمة للعلم بصفات كماله . ولهذا شرع ـ عند اقبال الليل وادبار النهار ـ ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب . وفى الحديث « اللهم هذا إقبال ليلك وادبار نهارك ، وأصوات دعائك ، وحضور صلواتك اغفر لى (١) » كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند ادبار الليل واقبال النهار . ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله (٧٤: ٣٣ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) وهو يقابل إقسامه بالشفق : ونظيره اقسامه بـ(٨١: ١٧ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٨ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

ولما كان الرب تبارك وتعالى يحدث عن كل واحد من طرفى اقبال الليل والنهار وادبارهما مايحدثه ، ويبث من خلقه ماشاء . فينشر الارواح الشيطانية عند اقبال الليل ، وينشر الارواح الانسانية عند اقبال النهار ،

---

(١) رواه أبو داود والترمذى عن أم سلمة ، قالت : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول عند اذان المغرب . وقال الترمذى حديث غريب

فيحدث هذا الانتشار فى العالم أثره ـ شرع سبحانه فى هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين ، مع مافى ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين ، وعند انصرام احداهما واتصال الأخرى بها ، مع ماينهما من التضاد والاختلاف ، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال الى حال ، ومن حكم الى حكم . وذلك مبدأ ومعاديومى ، مشهود للخليقة كل يوم وليلة ، فالحيوان والنبات فى مبدأ ومعاد ، وزمان العالم فى مبدأ ومعاد (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

(٢١) فصل

وقوله (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ) الظاهر أنه جواب القسم ، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه ، ولتركبن وما بعده مستأنف

وقرىء (وَلَتَرْكَبُنَّ) بضم الباء للجمع ، وبفتحها . فمن فتحها فالخطاب عنده للانسان ، أى لتركبن أيها الانسان . وقيل : هو النبي صلى الله عليه وسلم خاصة . وقيل : ليست التاء للخطاب ، ولكنها للغيبة ، أى لتركبن السماء طبقاً عن طبق . ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا . فمن جعل الكناية للسماء قال : المعنى لتركبن السماء حالا بعد حال من حالاتها التى وصفها الله تعالى ، من الانشقاق ، والانفطار ، والطى ، وكونها كالمهل مرة ، وكالدهان مرة ، ومورانها

وتَفَتُّحها ، وغير ذلك من حالاتها ، وهذا قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . ودل على السماء ذكر الشفق والقمر . وعلى هذا فيكون قسما على المعاد وتغير العالم

ومن قال الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فله ثلاث معان : لتركبن سماء بعد سماء ، حتى تنتهى الى حيث يصعدك الله . هذا قول ابن عباس فى رواية مجاهد ، وقول مسروق والشعبي ، قالوا : والسماء طبق ، ولهذا يقال للسموات السبع الطباق . والمعنى الثانى لتصعدن درجة بعد درجة ، ومنزلة بعد منزلة ، ورتبة بعد رتبة ، حتى تنتهى الى محل القرب والزلفى من الله . والمعنى الثالث لتركبن حالا بعد حال من الاحوال المختلفة التى نقل الله فيها رسوله صلى الله عليه وسلم ، من الهجرة ، والجهاد ، ونصره على عدوه ، وإدالة العدو عليه تارة ، وغناه وفقره ، وغير ذلك من حالاته التى تنقل فيها الى أن بلغ مابلغه إياه

ومن قال : الخطاب للانسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد ، وهو تنقل الانسان حالا بعد حال ، من حين كونه نطفة الى مستقره من الجنة أو النار ، . فكم بين هذين من الاطباق والاحوال للانسان

وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لتصيرن الامور حالا بعد حال . وقيل لتركبن أيها الانسان حالا بعد حال ، من النطفة ، الى العلقة ، الى المضغة ، الى كونه

حيا ، الى خروجه الى هذه الدار ، ثم ركوبه طبق التمييز بين ماينفعه ويضره ، ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر ، وهو طبق البلوغ ثم ركوبه طبق الأشد ، ثم طبق الشيخوخة ، ثم طبق الهرم ، ثم ركوبه طبق مابعد الموت فى البرزخ ، وركوبه فى أثناء هذه الأحوال أطباقا عديدة ، لايزال ينتقل فيها حالا بعد حال الى دار القرار. فذلك آخر أطباقه التى يعلمها العباد ، ثم يفعل الله سبحانه بعد ذلك مايشاء

واختار أبو عبيدة قراءة الضم ، وقال : المعنى بالناس أشبه منه بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فانه ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه بيمينه ومن يؤتى كتابه بشماله ، ثم ذكر بعدها قوله (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟) فذكر كونهم طبقا بعد طبق . قال الواحدى : وهذا قول أكثر المفسرين قالوا : لتركبن حالا بعد حال ، ومنزلا بعد منزل ، وأمرا بعد أمر .

قال سعيد بن جبير ، وابن زيد : لتكونن فى الآخرة بعد الأولى ، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر ، وفقراء بعد الغنى ، وقال عطاء : شدة بعد شدة . وقال أبو عبيدة : لتركبن سنة من كان قبلكم فى التكذيب والاختلاف على الرسل

وانت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية ، وتغيير الله سبحانه للعالم ، وتصريفه له كيف أراد ، ونقله إياه من حال الى حال . وهذا محال أن يكون

بنفسه من غير فاعل مدبر له . ومحال أن يكون فاعله غير قادر ، ولا حي ، ولا مريد ، ولا حكيم ، ولا عليم . وكلاهما في الامتناع سواء

فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته ، وتوحيده ، وصفات كماله ، وصدقه ، وصدق رسله ، وعلى المعاد . ولهذا عقب ذلك بقوله (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) إنكارا على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام . وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك ، بأفصح عبارة وأبينها وأجزلها وأوجزها . فالمعنى أشرف معنى ، والعبارة أشرف عبارة : غاية الحق بغاية البيان والفصاحة

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ) ولا يصدقون بالحق جحودا وعنادا (واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) بما يضمرون في صدورهم ويكتمونه ، ومايسرونه من أعمالهم ومايجمعونه ، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

(٢٢) فصل

ومن ذلك قوله سبحانه (٨١ : ١٥ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ١٦ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٧ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٨ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أقسم

سبحانه بالنجوم فى أحوالها الثلاثة . من طلوعها ، وجريانها ، وغروبها . هذا قول على ، وابن عباس ، وعامة المفسرين . وهو الصواب

والخنس جمع خانس . والخَنْس الانقباض والاختفاء ، ومنه سمى الشيطان خناسا ، لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه . ومنه قول أبى هريرة فانخنست (١) والكنس جمع كانس ، وهو الداخل فى كناسه ، أى فى بيته . ومنه تكنست المرأة اذا دخلت فى هودجها . ومنه كنست الظباء ، اذا أوت الى أكناسها

والجوارى جمع جارية ، كغاشية وغواش . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل. وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم . قالوا : الكواكب تخنس بالنهار ، فتختفى ولا ترى ، وتكنس فى وقت غروبها . ومعنى تخنس - على هذا القول - تتأخر عن البصر ، وتتوارى عنه باخفاء النهار لها . وفيه قول آخر ، وهو ان خنوسها رجوعها ، وهى حركتها الشرقية ، فان لها حركتين حركة بفعلها وحركة بنفسها ، فخنوسها حركتها بنفسها

(١) روى أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لقيه فى بعض طرق المدينة وهو جنب ، فانخنس منه فذهب فاغتسل ، ثم جاء ، فقال له « أين كنت يا أبا هريرة ؟ » فقال كنت جنبا ، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة . فقال « سبحان الله ، ان المؤمن لا ينجس »

راجعة . وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب ، وهى السيارة وهذا قول الفراء . وفيه قول ثالث ، وهو ان خنوسها وكنوسها اختفاؤها وقت مغيبها ، فتغيب فى مواضعها التى تغيب فيها . وهذا قول الزجاج

ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاء ، وحال جريان ، وحال غروب ـ أقسم سبحانه بها فى أحوالها كلها . ونبه بخنوسها على حال ظهورها ، لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ، ولا يقال لما لا يزال مختفياً : انه قد خنس . فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحا ، وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى مبدؤه الطلوع . فالطلوع أول جريانها

فتضمن القسم طلوعها ، وغروبها وجريانها ، واختفاءها . وذلك من آياته ودلائل ربوبيته .

وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه *(احدها)* أن هذه الاحوال فى الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة *(الثانى)* اشتراك أهل الارض فى معرفته بالمشاهدة والعيان *(الثالث)* أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفى فيها عن العيان مطلقاً ، بل لاتزال ظاهرة فى الفلوات *(الرابع)* ان الذين فسروا الآية بذلك قالوا ليس خنوسها من الاختفاء . قال الواحدى : هو من الخنَس فى الانف ، وهو تأخر الارنبة وقصر القصبة ، والبقر والظباء أنوفهن خنس والبقرة خنساء ، والظبى أخنس . ومنه سميت

الخنساء (١) لخنس أنفها . ومعلوم ان هذا أمر خفي يحتاج الى تأمل ، وأكثر الناس لايعرفونه . وآيات الرب التي يقسم بها لاتكون الا ظاهرة جلية يشترك فى معرفتها الخلائق ، وليس الخنَس فى أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال فى أنف ابن آدم ، فالآية فيه أظهر *(الخامس)* أن كنوسها فى أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات فى بيته الذى يأوى فيه ، ولا أظهر منه ، حتى يتعين للقسم *(السادس)* انه لو كان جمعا للظبى لقال الخنْس ـ بالتسكين ـ لأنه جمع أخنس ، فهو كأحمر وحُمْر ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضا ، كحمراء وحُمْر فلما جاء جمعه على فُعَّل ـ بالتشديد ـ استحال أن يكون جمعا لواحد من الظباء والبقر . وتعين أن يكون جمعا لخانس ، كشاهد وشُهَّد ، وصائم وصُوَّم ، وقائم وقُوَّم ، ونظائرها *(السابع)* انه ليس بالبيِّن اقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان ، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته ، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه ، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها ، وهى النفس الانسانية . ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله ، وهو القرآن . ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهى السماء ، وشمسها وقمرها ، ونجومها . ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه ، وهو الليالى العشر . واذا أراد سبحانه أن يقسم بغير

---

(١) هى تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الصحابية رضى الله عنها

ذلك ادرجه في العموم ، كقوله (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) وقوله؛ الذَّكَرَ والأُنْثَى) فى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك *(الثامن)* أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم ، والافليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح فى قسم واحد . وبهذا احتج أبو اسحاق على أنها النجوم . فقال : هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش *(التاسع)* انه لو أراد ذلك سبحانه لبينه وذكر مايدل عليه ، كما انه لما أراد بالجوارى السفن قال (٤٢ : ٣٢ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وهنا ليس فى اللفظ ولا فى السياق مايدل على أنها البقر والظباء . وفيه مايدل على أنها النجوم من الوجوه التى ذكرناها وغيرها *(العاشر)* أن الارتباط الذى بين النجوم التى هى هداية للسالكين ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه ـ وهو القرآن ، الذى هو هدى للعالمين ، وزينة للقلوب ، وداحض لشبهات الشيطان ـ أعظم من الارتباط الذى بين البقر والظباء والقرآن . والله أعلم

(٢٣) فصل

واختلف فى عسعسة الليل ، هل هى اقباله أم إدباره ؟ فالأكثرون على ان عسعس بمعنى ولى وذهب وأدبر . هذا قول على وابن عباس

وأصحابه . قال الحسن : أقبل بظلامه . وهو إحدى الروايتين عن مجاهد

فمن رجح الاقبال قال : اقسم الله سبحانه وتعالى باقبال الليل واقبال النهار . فقوله (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) مقابل لليل إذا عسعس . قالوا : ولهذا أقسم الله : (بالَّيْلِ إِذَا يَغْشَى والنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) وبالضحى . قالوا فغشيان الليل نظير عسعسته ، وتجلى النهار نظير تنفس الصبح ، اذ هو مبدؤه وأوله

ومن رجح أنه ادباره احتج بقوله تعالى (٧٤ : ٣٢ كَلَّا وَالْقَمَرِ ٣٣ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٤ والصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) فأقسم بادبار الليل واسفار الصبح ، وذلك نظير عسعسة الليل ، وتنفس الصبح . قالوا : والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل ، واقبال النهار . فانه عقيبه من غير فصل . فهذا أعظم فى الدلالة والعبرة . بخلاف اقبال الليل واقبال النهار ، فانه لم يعرف القسم فى القرآن بهما ، ولان بينهما زمنا طويلا . فالآية فى انصرام هذا ومجىء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ . فذكر سبحانه حالة ضعف هذا ، وادباره ، وحالة قوة هذا وتنفسه . واقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه ، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه . وهذا هو القول . والله أعلم

(٢٦) فصل

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو القرآن ، وأخبر أنه قول رسول كريم ، وهو ههنا جبريل قطعا . لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به . وأما الرسول الكريم فى الحاقة فهو محمد صلى الله عليه وسلم لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه انه قوله . فقال (٦٩ : ٤١ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَاتُؤْمِنُونَ ٤٢ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَاتَذَكَّرُونَ) فأضافه الى الرسول المَلَكى تارة ، والى البشرى تارة ، وإضافته الى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده ، والا تناقضت النسبتان . ولفظ الرسول يدل على ذلك . فان الرسول هو الذى يبلغ كلام من أرسله . وهذا صريح فى انه كلام من أرسلَ جبريل ومحمداً صلى الله عليه وسلم ، وأن كلا منهما بلغه عن الله ، فهو قوله مبلغا ، وقول الله الذى تكلم به حقا . فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلما بالقرآن وهو كلامه حقا فى هاتين الآيتين ، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى ، وانه ليس للرسولين الكريمين منه الا التبليغ ، فجبريل سمعه من الله ، ومحمد صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل

ووصف رسوله الملكى فى هذه السورة بأنه كريم ، قوىٌّ ، مَكين عند الرَّبِّ تعالى ، مطاع فى السموات ، أمين ، فهذه خمس صفات تتضمن

تذكية سند القرآن ، وانه سماع محمد من جبريل ، وسماع جبريل من رب العالمين . فناهيك بهذا السند علوا وجلالة : قول الله سبحانه بنفسه تزكيته

الصفة الأولى كون الرسول الذى جاء به الى محمد صلى الله عليه وسلم كريما ليس كما يقول اعداؤه : ان الذى جاء به شيطان ، فان الشيطان خبيث مخبث ، لئيم ، قبيح المنظر ، عديم الخير ، باطنه أقبح من ظاهره ، وظاهره أشنع من باطنه ، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن الكرم . والرسول الذى ألقى القرآن الى محمد صلى الله عليه وسلم كريم ، جميل المنظر ، بهى الصورة ، كثير الخير ، طيب مطيب ، معلم الطيبين . وكل خير فى الأرض من هدى وعلم ومعرفة وايمان وبر ، فهو مما أجراه ربه على يده وهذا غاية الكرم الصورى والمعنوى

الوصف الثانى انه ذو قوة كما قال فى موضع آخر (٥٣ : ٥ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) وفى ذلك تنبيه على أمور

(أحدها) انه بقوته يمنع الشياطين ان تدنو منه ، وأن ينالوا منه شيئا ، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه ، بل اذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه

(الثانى) انه موال لهذا الرسول الذى كذبتموه ، ومعاضد له ، وموادله وناصر ، كما قال تعالى (٦٦ : ٤ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

ومن كان هذا القوىُّ وليَّه ، ومن انصاره ، وأعوانه ، ومعلمه ، فهو المهدى المنصور ، والله هاديه ، وناصره

(الثالث) أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل ، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك

(الرابع) أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته ، فلا يعجز عن ذلك ، مؤد له كما أمر به لأمانته ، فهو القوى الأمين ، وأحدكم اذا انتدب غيره فى أمر من الأمور لرسالة ، أو ولاية ، أو وكالة أو غيرها فانما ينتدب لها القوى عليه الأمين على فعله ، وان كان ذلك الأمر من أهم الامور عنده انتدب له قويا أمينا معظما ذا مكانة عنده ، مطاعا فى الناس ، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات . وهذا يدل على عظمة شأن المرسل ، والرسول ، والرسالة ، والمرسل اليه ، حيث انتدب له الكريم القوى المكين عنده ، المطاع فى الملأ الأعلى ، الأمين حق الأمين . فان الملوك لا ترسل فى مهماتها إلا الاشراف ، ذوى الاقدار والرتب العالية

وقوله (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ) أي له مكانة ووجاهة عنده ، وهو أقرب الملائكة اليه . وفى قوله (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ) اشارة ، الى علو منزلة جبريل ، اذ كان قريباً من ذى العرش سبحانه

وفى قوله (مُطَاعٍ ثَمَّ) أشارة الى أن جنوده وأعوانه

يطيعونه اذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
وفيه اشارة أيضا الى أن هذا الذى تكذبونه وتعادونه سيصير
مطاعا فى الارض، كما أن جبريل مطاع فى السماء، وأن كلا من الرسولين
مطاع فى محله وقومه . وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين فى
قومهم ، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم الا مثل هذا الملك المطاع
وفى وصفه بالامانة إشارة الى حفظه ماحمله ، وأدائه له على وجهه
ثم نزه رسوله البشرى وزكاه عما يقول فيه أعداؤه . فقال (وَمَا صَاحِبُكُمْ
بِمَجْنُونٍ) وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وان قالوا بألسنتهم
خلافه ، فهم يعلمون انهم كانوا كاذبين

ثم أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل . وهذا يتضمن
انه ملك موجود فى الخارج ، يرى بالعيان ، ويدركه البصر ، لا كما
يقوله المتفلسفة ، ومن قلدهم : انه العقل الفعال، وانه ليس مما يدرك
بالبصر ، وحقيقته عندهم انه خيال موجود فى الاذهان لا فى الاعيان
وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم ، وخرجوا به عن جميع
الملل . ولهذا كان تقرير رؤية النبى صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل أهم
من تقرير رؤيته لربه تعالى . فان رؤيته لجبريل هى أصل الأيمان الذى
لا يتم الا باعتقادها . ومن أنكرها كفر قطعا . وأما رؤيته لربه
تعالى فغايتها أن تكون مسئلة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق .
وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره . وحكى عثمان بن سعيد

الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك (١) فنحن الى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا الى تقرير رؤيته لربه تعالى. وان كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه . فان النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة

ثم نزه رسوليه كليهما ـ أحدهما بطريق النطق ، والثانى بطريق اللزوم ـ عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذى هو الضنة والبخل ، والتبديل ، والتغيير الذى يوجب التهمة ، فقال(وَمَاهُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِين) فان الرسالة لا يتم مقصودها الا بأمرين : أداثها من غير كتمان ، وأداثها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان. والقراءتان كالآيتين ، فتضمنت احداهما ـ وهى قراءة الضاد ـ تنزيهه عن البخل . فان الضنين هو البخيل ، يقال ضننت به أضن ، بوزن بخلت به ابخل ومعناه ، ومنه قول جميل بن معمر :

أجود بمضنون التلاد واننى ٭ بسرك عمن سالنى لضنين

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس بخيلا بما أنزل الله . وقال مجاهد : لا يضن عليهم بما يعلم .

وأجمع المفسرون على ان الغيب هنا القرآن والوحى . وقال

---

(١) فى كتاب الرد على بشر المريسي الجهمى . وهو من أنفس ما كتب في بيان عقيدة أهل السنة من السلف . وفى الرد على الجهمية وغيرهم من أهل العقائد الزائغة الضالة

الفراء، يقول تعالى : يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم، وهذا معنى حسن جدا، فان عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ويذمه ويذم من هو عنده ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحى الذى هو أنفس شيء وأجله. وقال أبو على الفارسي : المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده، ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانا. وفيه معنى آخر، وهو أنه على ثقة من الغيب الذى يخبر به فلا يخاف أن ينتقض، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به، كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب. فان كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه، بل هو خائف من ظهور كذبه. فاقدام هذا الرسول على الاخبار بهذا الغيب العظيم الذى هو أعظم الغيب واثقا به، مقيما عليه، مبديا له فى كل مجمع، ومعيدا مناديا به على صدقه، مجلبا به على أعدائه من أعظم الادلة على صدقه

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء، فمعناه المتهم، يقال : ظننت زيدا بمعنى اتهمته، وليس من الظن الذى هو الشعور والادراك، فان ذاك يتعدى الى مفعولين. ومنه ما أنشده أبو عبيدة :

أما وكتاب الله لا عن شناءة * هجرت، ولكن المحب ظنين

والمعنى : وماهذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد

فيه ولا ينقص، وهذا يدل على ان الضمير يرجع الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لانه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالامانة. ثم قال (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ) ثم قال (وَمَا هُوَ) أي وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل

واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين: أحدهما أن الكفار لم يبخلوه. وإنما اتهموه، فنفي التهمة أولى من نفي البخل. الثاني انه قال (على الغيب) ولو كان المراد البخل لقال بالغيب، لانه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا

قلت: ويرجحه انه وصفه بما وصف به رسوله الملكي، من الامانة، فنفى عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين، ويرجحه ايضا انه سبحانه نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب. فان ذلك لو كان كذبا، فاما أن يكون منه، أو ممن علمه، وان كان منه، فاما أن يكون تعمده أو لم يتعمده، فان كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم، وان كان منه مع التعمد فهو المتهم، ضد الامين. وان كان عن غير تعمد فهو المجنون. فنفى سبحانه عن رسوله ذلك كله، وزكى سند القرآن أعظم تزكية. فلهذا قال سبحانه (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه، ولا يحسن منه كما قال تعالى (٢٦: ٢١٠ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١١ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) فنفى فعله وابتغاءه منهم، وقدرتهم عليه. وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين، وأحوال الرسل يعلم علما

لايمارى فيه ولا يشك ، بل علماضروريا ، كسائر الضروريات ـ منافاة أحدهما للآخر ، ومضادته له . كمنافاة أحد الضدين لصاحبه بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر . ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعدظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين . فقال(أَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟)قال أبو اسحاق فأى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم ؟

قلت : هذا من أحسن اللازم وأبينه ، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له : ايش تقول خلاف هـذا ؟ وأين تذهب خلاف هـذا . قال تعالى (٧٧ : ٥٠ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤمنون) وقال (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ؟) فالأمر منحصر فى الحق والباطل ، والهدى والضلال ، فاذا عدلتم عن الهدى والحق ، فأين العدول ، وأين المذهب ؟

ونظير هذا قوله (٤٧ : ٢٢ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) أى ان أعرضتم عن الايمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس الا الفساد فى الأرض ، والشرك والمعاصى وقطيعة الرحم . ونظيره قوله تعالى (٥٠ : ٥ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس ، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون ، بل لا يقولون شيئا

الا كان باطلا ، ولا يفعلون شيئا الا كان ضائعا غير نافع لهم ، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل الى المقصود ، ونظيره قوله تعالى (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ) وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عز وجل(١٠:٣٢ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟)

(٢٥) فصل

ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين . وفى موضع آخر تذكرة للمتقين . وفى موضع آخر ذكرٌ لرسوله صلى الله عليه وسلم ولقومه. وفى موضع آخر ذكرٌ مطلق . وفى موضع آخر ذكر مبارك . وفى موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر

ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرا عاما وخاصا ، وكونه ذا ذكر ، فانه يذكر العباد بمصالحهم فى معاشهم ومعادهم ، ويذكرهم بالمبدأ والمعاد ، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وحقوقه على عباده ، ويذكرهم بالخير ليقصدوه ، وبالشر ليجتنبوه . ويذكرهم بنفوسهم ، وأحوالها وآفاتها ، وما تكمل به . ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم ، وبماذا يحترزون من كيده ، ومن أى الأبواب والطرق يأتى اليهم . ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم اليه ، وانهم مضطرون اليه لا يستغنون عنه نفسا واحدا . ويذكرهم

بنعمه عليهم، ويدعوهم بها الى نعم أخرى أكبر منها ويذكرهم بأسه وشدة بطشه . وانتقامه ممن عصى أمره ، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه

ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما فى كتابه ، كما قال :

(٢ : ٦٣ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

واذا كان كذلك فأحق واولى وأول من كان ذاكرا له من أنزل عليه ، ثم لقومه ، ثم لجميع العالمين . وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر ، فهو صاحب الذكر ، ومنه الذكر . فهو ذكر وفيه الذكر . كما أنه هدى وفيه الهدى وشفاء وفيه الشفاء ، ورحمة وفيه الرحمة

وقوله سبحانه (٨١ : ٢٨ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) بدل من العالمين . وهو بدل بعض من كل . وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل فى قوة ذكر عاملين مقصودين فان جهة كونه ذكرا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكراً لاهل الاستقامة فانه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع ، فكما أن البدل أخص من المبدل منه فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ فى المبدل منه . ولا بد من هذا فتأمله

وقوله (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ) رد على الجبرية القائلين بأن العبد لامشيئة له ، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لاارتباط

بينها و بينه الامجرد اقتران عادى من غير أن يكون سببا فيه

وقوله (٨١: ٢٩ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ) ردعلى القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بايجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله ، بل متى شاء العبد الفعل وجد ، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين. فان قال الجبرى : هو سبحانه لم يقل إن الفعل واقع بمشيئة العبد ، بل أخبر أن الاستقامة تحصل عند المشيئة ، ونحن قائلون بذلك. وقال القدرى قوله (وماتشاؤون الا أن يشاء الله) مختلقة ، فمشيئة العبد هى الموجبة للفعل التى بها يقع ومشيئة الله لفعله هو أمره بذلك ونحن لا ننكر ذلك

فالجواب أن هذا من تحريف الطائفتين . أما الجبرى فيقال له اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر أغراضه التى لا تأثير لها فى الفعل ، فان نسبة جميع أغراضه إلى الفعل فى عدم التأثير نسبة إرادية عندك، والاقتران حاصل بجميع أغراضه . فما الذى أوجب تخصيص المشيئة ؟ سوّى الله سبحانه فى فطر الناس أو عقولهم ، أو شرائعهم، بين نسبة المشيئة والارادة الى الفعل ، ونسبة سائر أغراض الحى إذا كان عندك ليس إلا مجرد الاقتران عادة؟ والاقتران العادى حاصل مع الجميع

وأما القدرى فتحريفه أشد، لانه حمل المشيئة على الأمر وقال: المعنى

وما تشاؤون الا بأمر الله . وهذا باطل قطعاً ، فان المشيئة فى القرآن لم تستعمل فى ذلك ، وإنما استعملت فى مشيئة التكوين كقوله (٦ : ١١٢ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) وقوله (٢ : ٢٥٣ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا) وقوله (٣٢ : ١٣ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) وقوله (١٣ : ٣١ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً) ونظائر ذلك ، مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الأمر ألبتة

والذى دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد، وأدلة العقل الصريح ، أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التى لا توجد إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، فما لم يشأ لم يكن ألبتة . كما أن ما شاء كان ولا بد

ولكن هنا أمراً يجب التنبيه عليه ، وهو أن مشيئة الله سبحانه تارة تتعلق بفعله ، وتارة تتعلق بفعل العبد ، فتعلقها بفعله وهو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل ، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته ، ولا يكفى فى وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده ، دون أن يشاء فعله ، فانه سبحانه قد يشاء من عبده المشيئة وحدها ، فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله ، لانه لم يشأ من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له

وقد دل على هذا قوله تعالى (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وقوله (٧٤ : ٥٦ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ)

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر ، والأسباب والمسببات ، وفعل العبد واستناده الى فعل الرب . ولكل منهما عبودية مختص بها : فعبودية الآية الاولى الاجتهاد ، واستفراغ الوسع ، والاختيار ، والسعي . وعبودية الثانية الاستعانة بالله ، والتوكل عليه ، واللجأ اليه ، واستنزال التوفيق ، والعون منه ، والعلم بأن العبد لا يمكنه ان يشاء ، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك

وقوله (رَبُّ الْعَالَمِيْنَ) ينتظم ذلك كله ، ويتضمنه . فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها . وبالله التوفيق

(٢٦) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٩ : ١ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ٢ والنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ٣ وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً ٤ فالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ٥ فالمُدَبِّرَاتِ أمْراً) فهذه خمسة أمور . وهي صفات الملائكة

فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الافعال ، إذ ذلك من أعظم آياته ، وحذف مفعول النزع والنشط . لانه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به . وان القسم على نفس الافعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين ، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول ، كقوله (٩٢: ٦ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى) ونظائره . فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة التى تنزع أرواح بنى آدم من أجسامهم ، وهم جماعة كقوله (٦ : ٦١ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) وقوله (٤ : ٩٧ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) وأما قوله (٣٢ : ١١ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ) فاما أن يكون واحدا ، وله أعوان ، واما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله (٦٦ : ١٢ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ) وقوله (١٦ : ١٨ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا)

والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة ، والاغراق فى النزع هو أن يجتذبه الى آخره . ومنه اغراق النزع فى جذب القوة . بأن يبلغ بها غاية المد ، فيقال : أغرق فى النزع ، ثم صار مثلا لكل من بالغ فى فعل حتى وصل إلى آخره

والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام . أقيم مقامه الاعطاء والتكلم

واختلف الناس هل النازعات متعد أو لازم ؟ فعلى القول الذى حكيناه يكون متعديا ، وهذا قول على ، ومسروق ، ومقاتل ، وأبى صالح ، وعطية عن ابن عباس . وقال ابن مسعود : هى أنفس الكفار ، وهو قول قتادة ، والسدى ، وعطاء عن ابن عباس . وعلى

هـذا فهو فعل لازم . وغرقا على هـذا معناه نزعا شديدا أبلغ مايكون وأشده

وفى هذا القول ضعف من وجوه ﴿ أحدها ﴾ أن عطف مابعده عليه يدل على أنها الملائكة ، فهى السابحات والمدبرات ، والنازعات ﴿ الثانى ﴾ أن الاقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين ، ولا فى اللفظ مايدل عليه ﴿ الثالث ﴾ أن النزع مشترك بين نفوس بنى آدم ، والاغراق لايختص بالكافر . وقال الحسن : النازعات هى النجوم ، تنزع من المشرق الى المغرب . وغرقا هو غروبها قال : تنزع من ههنا وتغرق ههنا . واختاره الاخفش وأبو عبيد . وقال مجاهد : هى شدائد الموت وأهواله ، التى تنزع الارواح نزعا شديدا . وقال عطاء ، وعكرمة : هى القِسِىّ . والنازعات على هذا القول بمعنى النسب أى ذوات النزع التى ينزع بها الرامى ، فهو النازع

قلت : النازعات اسم فاعل من نزع ، ويقال : نزع كذا . اذا اجتذبه بقوة . ونزع عنه إذا خلاه وتركه ، بعد ملابسته له . ونزع اليه إذا ذهب اليه ومال اليه . وهذا انما توصف به النفوس التى لها حركة إرادية للميل الى الشىء أو الميل عنه ، وأحق ماصدق عليه هذا الوصف الملائكة . لأن هذه القوة فيها أكمل ، وموضع الآية فيها أعظم . فهى التى تغرق فى النزع اذا طلبت ماتنزعه أو تنزع اليه ، والنفس الانسانية أيضا لها هـذه القوة ، والنجوم أيضا تنزع من

أفق الى افق . فالنزع حركة شديدة . سواء كانت من ملك ، أو نفس انسانية ، أو نجم . والنفوس تنزع الى أوطانها ، والى مألفها ، وعند الموت تنزع الى ربها ، والمنايا تنزع النفوس ، والقسى تنزع بالسهام ، والملائكة تنزع من مكان الى مكان ، وتنزع ماوكلت بنزعه ، والخيل تنزع فى أعنتها نزعا تغرق فيه الاعنة لطول أعناقها

فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التى هى آية من آيات الرب تعالى ؛ فانه هو الذى خلقها وخلق محلها ، وخلق القوة والنفس التى بها تتحرك . ومن ذكر صورة من هذه الصور فانما أراد التمثيل . وان كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف

فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم : فهم النازعات التى تنزع الارواح من الاجساد ، والناشطات التى تنشطها أى تخرجها بسرعة وخفة من قولهم : نشط الدلو من البئر اذا أخرجها ، وانا أنشط بكذا أى أخف له وأسرع (والسابحات) التى تسبح فى الهواء فى طريق ممرها الى ما أمرت به ، كما تسبح الطير فى الهواء (فالسابقات) التى تسبق وتسرع الى ما أمرت به لاتبطىء عنه ولا تتأخر (فالمدبرات) أمور العباد التى أمرها ربها بتدبيرها . وهذا أولى الأقوال

وقد روى عن ابن عباس : أن (النازعات) الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف (والناشطات) الملائكة التى تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة . واختار الفراء هذا القول ، فقال : هى الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها ، وتنزع نفس الكافر . قال

الواحدى : انما اختار ذلك ، لما بين النشط والنزع من الفرق فى الشدة واللين ، فالنزع الجذب بشدة ، والنشط الجذب برفق ولين (والناشطات) هى النفوس التى تنشط لما أمرت به ، والملائكة أحق الخلق بذلك ، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به

وقيل (السابحات) هى النجوم تسبح فى الفلك ، كما قال تعالى (٣٦ : ٤٠ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وقيل : هى السفن تسبح فى الماء . وقيل : هى نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة الى ربها

قلت : والصحيح أنها الملائكة ، والسياق يدل عليه . وأما السفن والنجوم ، فانما تسمى جارية وجوارى كما قال تعالى (٤٢ : ٣٢ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)وقال(٦٩ : ١١ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) وقال (٨١ : ١٦ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) ولم يسمها سابحات . وان أطلق عليها فعل السباحة ، كقوله(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ويدل عليه ذكره السابقات بعدها والمدبرات بالفاء ، وذكره الثلاثة الأول بالواو ، لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله ، فانها نزعت ونَشَطَتْ وَسَبَحَتْ فسبقت الى ما أمرت به فدبرته . ولو كانت السابحات هى السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء . فتأمله

قال مسروق ، ومقاتل ، والكلبى : (فالسابقات سبقاً) هى الملائكة قال مجاهد وأبو روق : سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح

والايمان والتصديق . قال مقاتل : تسبق بارواح المؤمنين الى الجنة . وقال الفراء ، والزجاج : هى الملائكة ، تسبق الشياطين بالوحى الى الأنبياء اذ كانت الشياطين تسترق السمع . وهذا القول خطأ لا يخفى فساده ، اذ يقتضى الاشتراك بين الملائكة والشياطين فى إلقائهم الوحى ، وأن الملائكة تسبقهم به الى الأنبياء . وهذا ليس بصحيح . فان الوحى الذى تأتى به الملائكة الى الأنبياء لا تسترقه الشياطين ، وهم معزولون عن سماعه . وان استرقوا بعض مايسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث ، فالله سبحانه صان وحيه الى الأنبياء أن تسترق الشياطين شيئا منه ، وعزلهم عن سمعه . ولو أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التى تسبق الشياطين بالرَّجم بالشُّهُب قبل إلقاء الكلمة التى استرقها لكان له وجه . فان الشيطان يبدر مسرعا بالقائه الى وليه ، فتسبقه الملائكة فى نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه . وربما ألقى الكلمة قبل ادراك الشهاب له

وفسرت (السابقات سبقا) بالأنفس السابقات الى طاعة الله ومرضاته .

وأما (المدبرات أمرا) فأجمعوا على أنها الملائكة ، قال مقاتل : هم جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وملك الموت : يدبرون أمر الله تعالى فى الارض . وهم (المقسمات أمرا) . قال عبد الرحمن بن سابط : جبريل موكل بالرياح وبالجنود ، وميكائيل موكل بالقطر والنبات ، وملك الموت موكل بقبض الأنفس ، واسرافيل ينزل بأمر الله عليهم . وقال ابن عباس : هم الملائكة ، وكلهم الله بأمور

عرفهم العمل بها والوقوف عليها ، بعضهم لبنى آدم يحفظون ويكتبون.
وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات . والخسف والمسخ . والرياح
والسحاب. انتهى

وقد أخبر أن الله وكل بالرحم ملكا ، وللرؤيا ملك موكل بها ،
وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها ،وعمل آلاتها . وأوانيها، وغراسها
وفرشها ، ونمارقها ، وأرائكها . وللنار ملائكة موكلة بعمل مافيها
وإيقادها ، وغير ذلك

فالدنيا وما فيها ، والجنة والنار ، والموت وأحكام البرزخ - قد
وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ماشاء الله من ذلك . ولهذا كان
الايمان بالملائكة أحد أركان الايمان الذى لايتم الايمان إلا به

وأما من قال انها النجوم فليس هذا من قول أهل الاسلام ،
ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئا من الخلق ، بل هى مدبَّرة مسخَّرة .
كما قال تعالى(١٦ : ١٢وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ)فالله
سبحانه هو المدبر بملائكته لامر العالم العلوى والسفلى

قال الجرجانى : وذكر السابقات والمدبرات بالفاء، وماقبلها بالواو،
لان ماقبلها أقسام مستأنفة ، وهذان القسمان منشآن عن الذى قبلهما
كأنه قال : فاللاتى سبحن فسبقن ، كما تقول قام فذهب ، أوجب
الفاء ان القيام كان سببا للذهاب ولو قلت : قام وذهب لم تجعل
القيام سببا للذهاب

واعترض عليه الواحدى ، فقال : هذا غير مطرد فى هذه الآية

لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبير ، مع أن السابقات ليست الملائكة في قول المفسرين

قلت : الملائكة داخلون في السابقات قطعا . وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا محتمل . وأما قوله : يبعد أن يكون السبق سببا للتدبير فليس كما زعم ، بل السبق المبادرة الى تنفيذ ما يؤمر به الملك ، فهو سبب للفعل الذى أمر به . وهو التدبير ، مع أن الفاء دالة على التعقيب ، وان التدبير يتعقب السبق بلا تراخ . بخلاف الاقسام الثلاثة . والله أعلم

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق ـ وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن ، أو أنه من القسم الذى أريد به التنبيه على الدلالة ، والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسما عليه بعينه . وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وان لم يذكر لفظاً ، ولعل هذا مراد من قال انه محذوف للعلم به ، لكن هذا الوجه ألطف مسلكا . فان المقسم به إذا كان دالا على المقسم عليه مستلزماً استغنى عن ذكره بذكره ، وهذا غير كونه محذوفاً لدلالة مابعده عليه فتأمله . ولعل هذا قول من قال انه إنما أقسم برب هذه الأشياء ، وحذف المضاف . فان معناه صحيح لكن على غير الوجه الذى قدروه . فان إقسامه سبحانه بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وحكمته ، فالأقسام بها فى الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمله

ثم قرر سبحانه بعد هذا القسم أمر المعاد ، ونبوة موسى المستلزمة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ من المحال أن يكون موسى نبياً ومحمد ليس نبياً مع أن ما يثبت نبوة موسى فلمحمد نظيره أو أعظم منه . وقرر سبحانه تكليمه لموسى بندائه له بنفسه ، فقال (١٦:٧٩ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ) فأثبت المستلزم للكلام والتكليم . وفي موضع آخر أثبت النجاء والنداء ، والنجاء : نوع من التكليم . ومحال ثبوت النوع بدون الجنس

ثم أمره أن يخاطبه بألين خطاب فيقول له : (هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ؟) ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه

﴿ أحدها ﴾ اخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرجه مخرج الأمر والالزام ، وهو ألطف . ونظيره قول ابراهيم لضيفه المكرمين (٥١:٢٧ ألا تأكلون) ولم يقل كلوا ﴿ الثاني ﴾ قوله (إلى أن تزكى) والتزكي النماء ، والطهارة ، والبركة ، والزيادة . فعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل ولا يرده الا كل أحمق جاهل ﴿ الثالث ﴾ قوله (تزكى) ولم يقل أزكيك فأضاف التزكية إلى نفسه . وعلى هذا يخاطب الملوك ﴿ الرابع ﴾ قوله (وأهديك) أي أكون دليلا لك ، وهاديا بين يديك ، فنسب الهداية اليه والتزكي الى المخاطب ، أي أكون دليلا لك وهاديا فتتزكى أنت ، كما تقول للرجل : هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت ؟ وهذا أحسن من قوله أعطيك ﴿ الخامس ﴾ قوله (إلى ربك) فان في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه وهو انه يدعوه ويوصله الى ربه فاطره

وخالقه الذي أوجده ، ورباه بنعمه : جنينا ، وصغيرا ، وكبيرا ، وآتاه الملك . وهو نوع من خطاب الاستعطاف والالزام . كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده : ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك ؟ وتقول للولد ألا تطيع أباك الذى رباك ﴿ السادس ﴾ قوله (فتخشى) أى اذا اهتديت اليه وعرفته خشيته ، لان من عرف الله خافه ، ومن لم يعرفه لم يخفه ، فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته ، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية ﴿ السابع ﴾ ان فى قوله (هل لك) فائدة لطيفة ، وهى ان المعنى هل لك فى ذلك حاجة أو أرب ؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك . لان الداعى إنما يدعو الى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعى ، فكأنه يقول : الحاجة لك وأنت المتزكى ، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك ، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد . وادعى انه رب العباد . هذا . وهو يعلم أنه ليس بالذى خلق فسوى ، ولا قدر فهدى ، فكذب الخبر ، وعصى الأمر ، ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر ، فحشر جنوده فأجابوه ، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى ، واستخفهم فأطاعوه ، فبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر ، وأخذه نكال الآخرة والأولى ، ليعتبر بذلك من يعتبر ، فاعتبر بذلك من خشى ربه من المؤمنين ، وحق القول على الكافرين

ثم أقام سبحانه حجته على العالمين بخلق ماهو أشد منهم وأكبر ، وأعظم وأعلى وأرفع ، وهو خلق السماء وبناؤها ، ورفع سمكها وتسويتها ،

وإظلام ليلها . وإخراج ضحاها ، وخلق الأرض ومدها وبسطها وتهيئتها لما يراد منها . وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم ، وأرسى الجبال فجعلها رواسى للارض ، لئلا تميد بأهلها ، وأودعها من المنافع مايتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم . فمن قدر على ذلك كله كيف يعجز عن إعادتكم خلقا جديدا ؟

فتأمل دلالة المقسم به المذكور فى أول السورة على المعاد والتوحيد وصدق الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور . وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجا الى جواب . والله أعلم

فصل (٢٧)

ومن ذلك قوله تعالى (٧٧ : ١ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً ٢ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ٣ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً ٤ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ٥ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ٦ عُذْراً أَو نُذْراً ٧ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) فسرت المرسلات بالملائكة . وهو قول أبى هريرة ، وابن عباس،فى رواية مقاتل وجماعة ، وفسرت بالرياح ، وهو قول ابن مسعود واحدى الروايتين عن ابن عباس وقول قتادة . وفسرت بالسحاب ، وهو قول الحسن ، وفسرت بالانبياء ، وهو رواية عطاء عن ابن عباس

قلت : الله سبحانه يرسل الملائكة ، ويرسل الانبياء ، ويرسل الرياح ، ويرسل السحاب ، فيسوقه حيث يشاء ، ويرسل الصواعق

فيصيب بها من يشاء ، فارساله واقع على ذلك كله . وهو نوعان :
إرسال دين يحبه ويرضاه ، كارسال رسله وأنبيائه ، وإرسال كون
وهو نوعان : نوع يحبه ويرضاه ، كارسال ملائكته فى تدبير أمر
خلقه . ونوع لا يحبه . بل يسخطه ويبغضه ، كارسال الشيطان على الكفار
فالارسال المقسم به ههنا مقيد بالعرف . فاما أن يكون ضد
المنكر ، فهو إرسال رسله من الملائكة ، ولا يدخل فى ذلك إرسال
الرياح ، ولا الصواعق ، ولا الشياطين . وأما إرسال الانبياء فلو أريد
لقال : والمرسلين . وليس بالفصيح تسمية الانبياء مرسلات . وتكلف
الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ . فلم يطلق فى
القرآن جمع ذلك الا جمع تذكير لا جمع تأنيث . وأيضا فاقتران اللفظة بما
بعدها من الاقسام لا يناسب تفسيرها بالانبياء . وأيضا فان الرسل
مقسم عليهم فى القرآن لا مقسم بهم كقولهم (١٦ : ٦٣ تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى
أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ) وقوله (وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وقوله (٣٦ : ١ يس ٢ وَالْقُرْآنِ
الْحَكِيمِ ٣ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وان كان العرف من التابع ،
كعرف الفرس وعرف الديك ، والناس الى فلان عرف واحد ،
أى سابقون فى قصده والتوجه اليه - جاز أن تكون المرسلات الرياح
ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات . وجاز أن تكون الملائكة ،
وجاز أن يعمَّ النوعين لوقوع الارسال عرفا عليهما . ويؤيده أن
الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها ، ويَؤيد كونها الرياح

عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب والتسبب . فكأنها أرسلت ، فعصفت . ومن جعل المرسلات الملائكة قال : هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح والأكثرون على انها الرياح . وفيها قول ثالث انها تعصف بروح الكافر ، يقال عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه . قال الأعشى

تعصف بالدارع والحاسر *

حكاه أبو اسحق . وهو قول متكلف ، فان المقسم به لا بد أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية ، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها فانما يقسم عليه ، وانما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه ، لظهور شانهما ولقيام الأدلة والاعلام الظاهرة الدالة على ثبوتهما

وأما (الناشرات نشرا) فهو استئناف قسم آخر ، ولهذا أتى به بالواو وماقبله معطوف على القسم الأول بالفاء . قال ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة : هي الرياح تأتي بالمطر . ويدل على صحة قولهم قوله تعالى (٧ : ٥٧ وهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) يعني أنها تنشر السحاب نشرا ، وهو ضد الطي ، وقال مقاتل : هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم . وقاله مسروق ، وعطاء عن ابن عباس . وقالت طائفة : هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها . وقيل : تنشر أوامر الله في الأرض والسماء . وقيل : تنشر النفوس ، فتحييها بالايمان . وقال أبو صالح : هي الأمطار تنشر الأرض ، أي تحييها

قلت : ويجوز أن تكون الناشرات لازما لامفعول له ، ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا ، فانه يقال : نشر الميت:حي،وأنشره الله : إذاأحياه ، فيكون المراد بها الأنفس التى حييت بالعرف الذى أرسلت به المرسلات ، أوالأشباح والأرواح والبقاع التى حييت بالرياح المرسلات . فان الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات ، والوحى سبب لنشور الأرواح وحياتها . لكن هنا أمراً ينبغى التفطن له ، وهو أنه سبحانه جعل الاقسام فى هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر ، وجعل العاصفات معطوفا على المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد ، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو ، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء ، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبط بالناشرات ، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات . وقد اختلف فى الفارقات ، والأكثرون على أنها الملائكة . ويدل عليه عطف الملقيات ذكرا عليها بالفاء ، وهى الملائكة بالاتفاق

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التى تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل ، فألقت الذكر على الرسل إعذارا وانذارا

ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها . وقال : هى تفرق السحاب ههنا وههنا . ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها . ومن قال : الفارقات أى القرآن يفرق بين الحق

والباطل فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل : إنها الرياح . ومن قال : هى جماعات الرسل فان أراد الرسل من الملائكة فظاهر ، وان أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول

ويظهر ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ أن القسم فى هذه الآية وقع على النوعين : الرياح ، والملائكة . ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح ، فانها من روح الله ، وقد جعلها الله تعالى نشورا ، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة . فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة . ولهذا ـ والله أعلم ـ فصل أحد النوعين من الآخر بالواو وجعل ماهو تابع لكل نوع بعده بالفاء .

وتأمل كيف وقع القسم فى هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية ، وحال السعداء والاشقياء فيها ، وقررها بالحياة الاولى فى قوله (٧٧ : ٢٠ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) فذكر فيها المبدأ والمعاد ، وأخلص السورة لذلك ، فحسن الاقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة : وهو الرياح ، والملائكة . فكان فى القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة . ولهذا كان المكذب بعد ذلك فى غاية الجحود والعناد والكفر ، فاستحق الويل بعد الويل ، فتضاعف عليه الويل ، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب

فلا أحسن من هذا التكرار فى هذا الموضع ، ولا أعظم منه

موقعا فانه تكرر عشر مرات ، ولم يذكر إلا فى أثر دليل أو مدلول عليه عقيب مايوجب التصديق ومايوجب التصديق به فتأمله

(٢٨) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٥ : ١ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ ٢ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) وقد تقدم ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما فى الذكر ، وكون الجواب غير مذكور ، وأنه يجوز أن يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به . ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به ، وكونه آية ، ولم يقصد به مقسما عليه معينا . فكأنه يقول : اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسما بها ، لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا

ثم أنكر على الانسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه أن الله لا يجمع عظامه بعد مافرقها البلى . ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه . وعلى هذا فيكون سبحانه قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه . وأخبر عن فعله بأنه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور . والمعنى : بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه . ودل على هذا المعنى المحذوف قوله (بلى) فانها حرف ايجاب لما تقدم من النفى . فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه . فدلت الآية على الفعل . وذكرت القدرة لابطال قول المكذبين

وفى ذكر البنان لطيفة أخرى ، وهى أنها أطرافه ، وآخر مايتم به خلقه . فمن قدر على جمع أطرافه وآخر مايتم به خلقه ، مع دقتها وصغرها ولطافتها ، فهو على مادون ذلك أقدر . فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والارمام ، قيل إنا نجمع ونسوى أكثرها تفرقا ، وأدقها أجزاء ، وآخر أطراف البدن ، وهى عظام الأنامل ومفاصلها

وقالت طائفه : المعنى نحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئا واحدا كخف البعير ، وحافر الحمار لانفرق بينهما ، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض . والتأتى لما يريد من الحوائج . وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين . والمعنى على هذا القول : إنا فى الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق ، فكيف لانقدر على جمعها بعد تفريقها

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول ، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التى فرقها ، ولم يجمعها ، والأول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها ، وهما وجهان حسنان ، وكل منهما له ترجيح من وجه ، فيرجح الاول أنه هو المقصود ، وهو الذى أنكره الكفار ، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده ، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها فى

الدنيا ، وإنما سيق لجمعها فى الآخرة بعد تفرقها بالموت . ويرجح القول الثانى ـ ولعله قول جمهور المفسرين ، حتى أن فيهم من لم يذكر غيره ـ وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة ، وهى تفريق البنان مع انتظامها فى كف واحد ، وارتباط بعضها ببعض ، فهى متفرقة فى عضو واحد ، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى ، ويحرك واحدة والاخرى ساكنة ، ويعمل بواحدة والاخرى معطلة ، وكلها فى كف واحد ، قد جمعها ساعد واحد ، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التى حصلت بتفريقها . فى هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت

ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الانسان وإصراره على المعصية والفجور ، وانه لا يرعوى ولا يخاف يوما يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيا ، بل هو مريد للفجور ماعاش ، فيفجر فى الحال ، ويريد الفجور فى غد ومابعده . وهذا ضد الذى يخاف الله والدار الآخرة فهذا لايندم على مامضى منه ولا يقلع فى الحال، ولا يعزم فى المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار ، وهذا ضد التائب المنيب

ثم نبه سبحانه على الحامل له على ذلك ، وهو استبعاده ليوم القيامة وليس هذا استبعاداً لزمنه مع اقراره بوقوعه ، بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه فى موضع آخر قوله (٥٠ : ٣ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

أى بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه . هذا قول جماعة من المفسرين ، منهم ابن عباس وأصحابه . قال ابن عباس : يقدم الذنب ويؤخر التوبة . وقال قتادة ، وعكرمة : قُدُماً قُدُماً فى معاصى الله لا ينزع عن فجوره

وفى الآية قول آخر ، وهو أن المعنى بل يريد الانسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة . وهذا قول ابن زيد ، واختيار ابن قتيبة وأبى اسحق . قال هؤلاء : ودليل ذلك قوله (٧٥:٦ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ) ويرجح هذا القول لفظة (بل) فانها تعطى أن الانسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة ، بل هو مريد للتكذيب به ، ويرجحه أيضا أن السياق كله فى ذم المكذب بيوم القيامة لا فى ذم العاصى والفاجر ، وأيضا فان ماقبل الآية وما بعدها يدل على المراد . فانه قال (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ؟ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ) فأنكر سبحانه عليه حسبانه ان الله لا يجمع عظامه . ثم قرر قدرته على ذلك . ثم انكر عليه ارادة التكذيب بيوم القيامة . فالأول حسبان منه أن لا يحييه بعد موته والثانى تكذيب منه بيوم البعث وانه يريد أن يكذب بما وضح وبان دليل وقوعه وثبوته . فهو مريد للتكذيب به . ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ) فالأول

ارادة التكذيب والثانى نطق بالتكذيب وتكلم به . وهذا قول قوى ، كما ترى . لكن ينبغى إفراغ هذه الالفاظ فى قوالب هذا المعنى . فان لفظة (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب وحذف الموصول مع ماجره وإبقاء الصلة خلاف الأصل . فان أصحاب هذا القول قالوا تقديره ليكفر بما أمامه ، وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة

فالجواب أن الأمر كذلك لكن الفعل اذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم اعطاءه حكمه من جميع الوجوه ، بل من جلالة هذه اللغة لعظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلا ، وما يضمنه معنى فعل آخر ويجرى على المضمن أحكامه لفظا وأحكام الفعل الآخر معنى ، فيكون فى قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار . ومن تدبر هذا وجده كثيرا فى كلام الله تعالى

فلفظ (يفجر) اقتضت (أمامه) بلا واسطة حرف ولا اسم موصول ، فأعطيت ما اقتضته لفظا واقتضى ماتضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول ، فأعطيته معنى . فهذا وجه هذا القول لفظا ومعنى. والله أعلم

ثم أخبر سبحانه عن حال هذا الانسان اذا شاهد اليوم الذى كذب به ، فقال (٧٥:٧-١٠ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ) فبرق بصره أى يشخص

يشاهده من العجائب التى كان يكذب بها وخسف القمر ذهب ضوؤه وانمحى . وجمع الشمس والقمر ولم يجتمعا قبل ذلك بل يجمعهما الذى يجمع عظام الانسان بعد مافرقها البلى ومزقها ، ويجمع للانسان يومئذ جميع عمله الذى قدمه وأخره من خير أو شر . ويجمع ذلك من جمع القرآن فى صدر رسوله . ويجمع المؤمنين فى دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر اليه ويجمع المكذبين فى دار الهوان ، وهو قادر على ذلك كله كما جمع خلق الانسان من نطفة من مَنِيّ يُمنَى ثم جعله علقة مجتمعة الاجزاء بعد ما كانت نطفة متفرقة فى جميع بدن الانسان ، وكما يجمع بين الانسان وملك الموت ، ويجمع بين الساق والساق إما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر ، ومن يجهز روحه من الملائكة ، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة فكيف (أنكر) هذا الانسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه . وأن يجمع مع بنى جنسه ليوم الجمع وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه . وعبوديته فلا يُترَك سُدًى مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يثاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه ذلك

فما أجمع هذه السورة لمعان الجمع . والضم . وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذى يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين ، وبالنفس اللوامة التى اجتمع فيها همومها ، وغمومها ، وارادتها ، واعتقاداتها . وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد ، والقيامة الصغرى ، والكبرى ، وأحوال الناس فى المعاد ، وانقسام وجوههم الى ناظرة منعمة ،

وباسرة معذبة . وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان الى مكان . فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراق ، ويقول الحاضرون (مَنْ رَاقٍ ؟) أى من يرقى من هذه العلة التى أعيت على الحاضرين ، أى التمسوا له من يرقيه . والرقية آخر الطب ، وقيل : من يرقى بها ويصعد ، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقى كرمى يرمى . وعلى الثانى من رقى يرقى كشقى يشقى . ومصدره الرقاء ومصدر الأول الرقية . والقول الأول أظهر لوجوه ﴿ أحدها ﴾ انه ليس كل ميت يقول حاضروه : من يرقى بروحه وهذا انما يقوله من يؤمن برقى الملائكة بروح الميت ، وانهم ملائكة رحمة ، وملائكة عذاب . بخلاف التماس الرقية وهى الدعاء فانه قل مايخلو منه المحتضر ﴿ الثانى ﴾ ان الروح انما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من يرقى بها . وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها الى الله ﴿ الثالث ﴾ ان فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع ، وأما الراقى الى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه ، و (من) إنما يسئل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل الى العلم بتعيينه ﴿ الرابع ﴾ أن مثل هذا السؤال انما يراد به تحضيض واثارة اهتمام الى فعل يقع بعد من نحو قوله (٢ : ٢٤٥ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً) أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها

كقوله (٢ : ٢٥٥ مَنْ ذَ الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بإذْنِهِ) وفعل الراقى الى الله لايحسن فيه واحد من الامرين هنا بخلاف فاعل الرقية فانه يحسن فيه الاول ﴿ الخامس ﴾ ان هـذا حرج على عادة العرب وغيرهم فى طلب الرقية لمن وصل الى مثل تلك الحال ، فحكى الله سبحانه ماجرت عادتهم بقوله وحـذف فاعل القول ، لأنه ليس الغرض متعلقـا بالقائل بل بالقول ، ولم تجر عادة المخاطبـين بأن يقولوا من يرقى بروحه ، فـكان حمل الـكلام على ماألف وجرت العادة بقوله أولى ، اذ هو تذكير لهم بمـــا يشاهدونه ويسمعونه ﴿ السادس ﴾ انه لو أريد هذا المعنى لـكان وجه الـكلام ان يقال من هو الراقى ، ومن الراقى ، لاوجه للـكلام غير ذلك ، كما يقال من هو القائل منكما كذا وكذا ، وفى الحديث « من القائل كلمة كذا » (١) ﴿ السابع ﴾ ان كلمة من انما يسئل بها عن التعيين كما يقول : من الذى فعل كذا ، ومن ذا الذى قاله . فيعلم أن فاعلا وقائلا فعل وقال ، ولا

---

(١) روى البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى واللفظ له — عن رفاعة بن رافع قال : صليت خلف النبي ﷺ فعطست ، فقلت : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى . فلما صلى النبي ﷺ قال « من المتكلم فى الصلاة ؟ » فلم يتكلم أحد . ثم قالها الثانية فلم يتكلم أحد . ثم قالها الثالثة . فقال رفاعة أنا يارسول الله . فقال « والذى نفسى بيده لقد ابتدرها بضع وثلاثون ملـكا أيهم يصعد بها »

يعلم تعيينه ، فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأى تارة وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقى بالروح الى الله

فان قيل : بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه،ولم يعلموا تعيينه فيسأل عن تعيين أحدهما . قيل : هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن ، فكيف يسألون عن تعيين مالا سبيل للسامع الى تعيينه . ولا الى العلم به ﴿ الثامن ﴾ ان الآية انما سيقت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت ، وانه قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه ولا مخلص منه ، بل هو قد ظن أنه مفارق لامحالة . فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لاسباب الحياة المعتادة تأثير فى بقائه ، فطلبوا أسبابا خارجة عن المقدور تستجلب بالرقى والدعوات ، فقالوا من راق ؟ أى من يرقى هذا العليل من أسباب الهلاك . والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لايجدى الدواء ﴿ التاسع ﴾ أن مثل هذا إنما يراد به النفى والاستبعاد ، وهو أحد التقديرين فى الآية ، أى لا أحد يرقى من هذه العلة بعدما وصل صاحبها الى هذه الحال . فهو استبعاد لنفى الرقية لاطلب لوجود الراقى ، كقوله (٣٦ : ٧٨ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) أى لا أحد يحييها، وقد صارت إلى هذه الحال . فان أريد بها هذا المعنى استحال أن يكون من الرُّقِيّ ، وان أريد بها الطلب استحال أيضا أن يكون منه . وقد بينا أنها فى مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو للانكار . وحينئذ فنقول فى ﴿ الوجه العاشر ﴾ إنها إما أن يراد

بها الطلب أو الاستبعاد . والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين . ولا سبيل الى حمل واحد من هذه المعانى على الرق لما بيناه . والله أعلم

(٢٩) فصل

ومن أسرار هذه السورة أنه سبحانه جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن : فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر اليه . فلا أجمل لبواطنهم . ولا أنعم . ولا أحلى - من النظر اليه ، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه . وهى إشراقه . وتحسينه . وبهجته . وهذا كما قال فى موضع آخر (٧٦ : ١١ ولَقَّاهُمْ نَضْرَةً وسُرُوراً) ونظيره قوله (٧ : ٢٦ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ورِيشاً) فهذا جمال الظاهر وزينته ثم قال (ولِبَاسُ التَّقْوَى ذٰلِكَ خَيْرٌ) فهذا جمال الباطن . ونظيره قوله (٣٧ : ٦ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) فهذا جمال ظاهرها ، ثم قال (وحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ) فهذا جمال باطنها . ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوسف (١٢ : ٣١ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هٰذَا بَشَراً إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣٢ قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ولَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ

فَٱسْتَعْصَمَ) فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه ، وأنه فى غاية المحاسن ظاهرا وباطنا. وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قوله (٢٠:١١٨ إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ١١٩ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى) فقابل بين الجوع والعرى ، لان الجوع ذل الباطن والعرى ذل الظاهر . وقابل بين الظمأ ، وهو حر الباطن ، والضحى، وهو حر الظاهر بالبروز للشمس . وقريب من هذا قوله (٢ : ١٩٧ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) فى ذكر الزاد الظاهر الحسى والزاد الباطن المعنوى . فهذا زاد سفر الدنيا ، وهذا زاد سفر الآخرة . ويلم به قول هود (١١: ٥٢ يَاقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) فالأول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم والثانى الباطنة المتصلة بهم . ويشبهه قوله (٨٦:١٠ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) فنفى عنهم الدافعين: الدافع من أنفسهم . والدافع من خارج، وهو الناصر

(٣٠) فصل

ومن أسرارها أنها تضمنت إثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله . وهذا على أحد القولين فى قوله (٧٥:٤ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) فأخبر أنه قادر عليه ولم يفعله ولم يرده. وأصرح

من هذا قوله تعالى (٢٣ : ١٨ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون) وهذا أيضا على أحد القولين ، أى تغور العيون فى الارض فلا يقدر على الماء . قال ابن عباس : يريد أن سيغيض فيذهب . فلا يكون من هذا الباب ، بل يكون من باب القدرة على ماسيفعله . وأصرح من هذين الموضعين قوله تعالى (٦ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزول هذه الآية « أعوذ بوجهك (١) » ولكن قد ثبت عنه ﷺ

---

(١) روي البخاري فى باب التفسير من سورة الانعام عن جابر قال : لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال رسول الله ﷺ « أعوذ بوجهك) قال (أو من تحت أرجلكم) قال « أعوذ بوجهك » (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) قال رسول الله ﷺ « هذا أهون ـ أوهذا أيسر » اه قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨ : ٢٠٣) وقد روى ابن مردويه من حديث ابن عباس مايفسر به حديث جابر . ولفظه عن النبي ﷺ « دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعا ، فرفع عنهم اثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت الله أن يرفع الرجم من السماء ، والخسف من الارض ، وأن لا يلبسهم شيعا ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الآخرين »

انه لابدأن يقع فى أمته خسف ، ولكن لا يكون عاما . وهذا عذاب من تحت الأرجل . وروى انه كان فى الأمة قذف أيضا . وهذا عذاب من فوق ، فيكون هذا من باب الاخبار بقدرته على ما سيفعله ، وان أريد به القدرة على عذاب الاستئصال ، فهو من القدرة على مالا يريده . وقد صرح سبحانه بأنه لو شاء لفعل مالم يفعله فى غير موضع من كتابه كقوله (١٠ : ٩٩ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً) وقوله (٣٢ : ١٣ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) ونظائره . وهذا مما لاخفاء فيه بين أهل السنة ، وبه تبين فساد قول من قال : ان القدرة لا تكون الا مع الفعل لا قبله ، وأن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة ، فنفى القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقا خطأ . والله أعلم

(٣١) فصل

ومن أسرارها أنها تضمنت التأنى والتثبت فى تلقى العلم ، وان لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه ، بل من آداب الرب التى أدب بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمره بترك الاستعجال على تلقى الوحى ، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته ، ثم يقرأه بعد فراغه عليه . فهكذا ينبغى لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضى كلامه ،

ثم يعيده عليه ، أو يسأل عما أشكل عليه منه ، ولا يبادره قبل فراغه

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى فى ثلاثة مواضع من كتابه هذا أحدها ، والثانى قوله (٢٠ : ١١٣ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ١١٤ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) والثالث قوله (٨٧ : ٦ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ٧ إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ) فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه إياه وهذا يتناول القراءة ومابعدها

وقد ذم الله سبحانه فى هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة ، وهذا الاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبقى ، ورتب كل ذم ووعيد فى هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة ، فارادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة ، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة ، وإيثاره لها ، واستعجاله بنصيبه ، وتمتعه به قبل أوانه . ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به فى الآجلة أكمل مايكون ، وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة ، والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك ، فلم يعجل على عبده ، بل أمهله الى أن بلغت الروح التراقى ، وأيقن بالموت ، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولى ، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله ، ويحدث له الذكر شيئا بعد شىء ، ويصرف له الآيات ، ويضرب

له الأمثال . وينبهه على مبدئه : من كونه نطفة من منى يمنى ، ثم علقة ، ثم خلقا سويا ، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ، ولا بالعقوبة اذ كذب خبره ، وعصى أمره . بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة . ولهذا ذم الانسان بالعجلة بقوله : (١٧ : ١١ وكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً) وقال (٢١ : ٣٧ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

(٣٣) فصل

ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل . وهذا أحد القولين ، لأصحابنا وغيرهم ، وهو الصواب ، فان الله سبحانه أنكر على من حسب انه يترك سدى : فلا يؤمر ، ولا ينهى ، ولا يثاب ، ولا يعاقب . ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد ، بل نفاه نفى مالا يليق نسبته اليه ، ونفى منكر على من حكم به وظنه . ثم استدل سبحانه على فساد ذلك ، وبين أن خلقه الانسان فى هذه الأطوار ، وتنقله فيها طورا بعد طور حتى بلغ نهايته - يأبى أن يتركه سدى . فانه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص

وهذه طريقة القرآن فى غير موضع كما قال تعالى (٢٣ : ١١٥ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٦ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) فجعل كمال ملكه ، وكونه

ـ حانه الحق ، وكونه لا إله الا هو ، وكونه رب العرش المستلزم لربوبيته لكل مادونه ـ مبطلا لذلك الظن الباطل ، والحكم الكاذب ، وانكار هذا الحسبان عليهم مثل انكاره عليهم حسبانهم انه لا يسمع سرهم ونجواهم ، وحسبان انه لا يراهم ولا يقدر عليهم ، وحسبان انه يسوى بين أوليائه وبين أعدائه فى محياهم ومماتهم ، وغير ذلك مما هو منزه عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص ، وان نسبة ذلك كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق : من اتخاذ الولد ، والشريك ، ونحو ذلك ، مما ينكره سبحانه على من حسبه أشد الانكار . فدل على أن ذلك قبيح ممتنع نسبته اليه ، كما يمتنع أن ينسب اليه سائر ما ينافى كماله المقدس

ولو كان نفى تركه سدى انما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك (٧٥ : ٣٧ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً) الى آخره ، ومما يدل أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع ، وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها ، فان ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وكذلك يستلزم ارسال رسله وانزال كتبه ، وبعث المعاد ليوم يجزى فيه المحسن باحسانه والمسىء باساءته . فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك الحق ، ولذلك كان منكر ذلك كافرا بربه ، وان زعم أنه يقر بصانع العالم ، فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال ، والمستحق لنعوت الكمال ، كما أن المعطل لكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه ، فانه آمن برب لا يتكلم ، ولا يأمر ، ولا ينهى ، ولا يصعد اليه قول ، ولا

عمل ، ولا ينزل من عنده ملك ، ولا أمر . ولا نهى ، ولا ترفع اليه الأيدى . ومعلوم أن هذا الذى آمن به رب مقدر فى ذهنه ، ليس هو رب العالمين وإله المرسلين

وكذلك اذا اعتبرت اسمه الحى وجدته مقتضيا لصفات كماله من علمه ، وسمعه ، وبصره ، وقدرته ، وارادته ، ورحمته ، وفعله ما يشاء . واسمه القيوم مقتض لتدبير أمر العالم العلوى والسفلى ، وقيامه بمصالحه ، وحفظه له ، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحى القيوم ، وإن أقر بذلك ألحد فى اسمائه ، وعطل حقائقها ، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها ، وبالله التوفيق

(٣٣) فصل

ومن ذلك قوله تعالى(٧٤ : ٣٢ كَلَّا وَالْقَمَرِ ٣٣ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٤ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٣٥ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ٣٦ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) أقسم سبحانه بالقمر الذى هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه ، وحكمته وعلمه ، وعنايته بخلقه ـ ما هو معلوم بالمشاهدة .

وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها ، مما لا نراه من الملائكة ، وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم ، وما يحدث بسبب حركات

الشمس والقمر : من الليل والنهار ، وكل ذلك آية من آياته ،
ودلالة من دلائل ربوبيته

ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات
فى خلقهما ، وجرمهما ، ونورهما ، وحركتهما على نهج واحد ، لا
ينيان ولا يفترقان دائبين ، ولا يقع فى حركتهما اختلاف بالبطء ،
والسرعة ، والرجوع ، والاستقامة ، والانخفاض ، والارتفاع ،
ولا يجرى أحدهما فى فلك صاحبه ، ولا يدخل عليه فى سلطانه ، ولا
تدرك الشمس القمر ، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار ، بل لكل
حركة مقدرة ، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر . كما أن له تأثيراً
ومنفعة لا يشركه فيها الآخر . وذلك مما يدل من له أدنى عقل على
انه بتسخير مسخر ، وأمر آمر ، وتدبير مدبر ، بهرت حكمته العقول ،
وأحاط علمه بكل دقيق وجليل ، وفرق ما علمه الناس من الحكم
التى فى خلقهما ما لا تصل اليه عقولهم ، ولا تنتهى إلى مباديها أوهامهم ،
فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما ، وكمال حكمته ، ولطف تدبيره ،
وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا (٣ : ١٩١ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) ولو أن العبد وصف له جرم أسود
مستدير عظيم الخلق ، يبدو فيه النور كخيط متسخن ، ثم يتزايد
كل ليلة حتى يتكامل نوره ، فيصير أضوأ شيء وأحسنه وأجمله ، ثم
يأخذ فى النقصان حتى يعود الى حاله الأول فيحصل بسبب ذلك معرفة

الأشهر والسنين، وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم، وصلاتهم، ومواقيت أجائرهم ، ومداينانهم ، ومعاملتهم التى لا تقوم مصالحهم الا بها ، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة

وقد ذكر سبحانه ذلك فى ثلاث آيات من كتابه : أحدها قوله (٢ : ١٨٩ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) والثانية قوله (١٠ : ٥ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) والثالثة قوله (١٧ : ١٢ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) فلولا مايحدثه الله سبحانه فى آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج، والصوم ، والعدد ، ومدة الرضاع، ومدة الحمل ، ومدة الاجارة ، ومدة آجال الحاملات

فان قيل : كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التى تحفظ بطلوع الشمس وغروبها ، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس ، قيل : هذا وإن كان ممكنا إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس . ولاريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس

وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس ، وأقل اضطرابا واختلافا . ولايحتاج الى تكلف حساب . وتقليد من لايعرفه من الناس لمن يعرفه . فالحكمة البالغة التى فى تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر ، وأنفع ، وأصلح ، وأقل اختلافا من تقديرها بسير الشمس . فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه ، فى مصالح دينهم ودنياهم ، مع مايتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب . وكمال حكمته ، وعلمه ، وتدبيره . فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية . وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها . فهى آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية ، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين : بأنها أزلية أبدية لايتطرق اليها التغيير ، ولايمكن عدمها

فاذا تأمل البصير القمر مثلا ، وافتقاره إلى محل يقوم به ، وسيره دائبا لايفتر ، مسيره مسخر ، مدبر ، وهبوطه تارة ، وارتفاعه تارة ، وأفوله تارة ، وظهوره تارة ، وذهاب نوره شيئا فشيئا ، ثم عوده اليه كذلك ، وسبب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف ـ علم قطعا أنه مخلوق مربوب مسخر ، تحت أمر خالق قاهر مسخر له . كما يشاء ، وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلا ، وأن هذه الحركة فيه لابد أن تنتهى الى الانقطاع والسكون ، وأن هذا الضوء والنور لابد أن ينتهى الى ضده ، وأن هذا السلطان لابد أن ينتهى إلى العزل .

وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين ، ويذهب بهما حيث شاء ، ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه ، كما يرى عباد الكواكب انتثارها . وعباد السماء انفطارها وعباد الشمس تكويرها . وعباد الأصنام اهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله وأصغره ، كما أرى عباد العجل في الدنيا حاله ومبارد وعباده تسحقه وتمحقه . والريح تمزقه وتذروه وتنسفه في اليم ، وكما أرى الأصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردلة ملقاة بالأمكنة القذرة ، ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه . وكسرت تلك الرؤوس ، وقطعت تلك الأيدى والأرجل ، التي كانت لايوصل اليها بغير التقبيل والاستلام . وهذه سنة الله التي لاتبدل ، وعادته التي لاتحول : انه يرى عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة ، وان كان المعبود غير راض بعبادة غيره ويريه تبريه منه ، ومعاداته له أحوج مايكون اليه (٨ : ٤٢ ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيّ عن بينة) ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين

تأمل سطور الكائنات فانها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خطّ فيها ـ لو تأملت خطها ـ ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لايتغير ، وجعل التغيير في الشمس . ولو شاء لغيرهما معا ، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة ، ولكن يرى عباده آياته في أنواع تصاريفها ليدلهم على أنه

الله الذى لا إله إلا هو الملك الحق المبين . الفعال لما يريد (٧ : ٥٤ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وأما تأثير القمر فى ترطيب أبدان الحيوان والنبات . وفى المياه ، وجَزْرِ البحر ومدّه ، وبحرانات الأمراض . وتنقلها من حال الى حال ، وغير ذلك من المنافع، فأمر ظاهر

فصل (٣٦)

وأما أقسامه سبحانه بـ(٧٤ : ٣٣ الليل إذا أدبَر) فلما فى أدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد ، فانه مبدأ ومعاد يومى مشهود بالعيان ، بينما الحيوان فى سكون الليل قد هدأت حركاتهم ، وسكنت اصواتهم ، ونامت عيونهم ، وصاروا اخوان الأموات ، إذ أقبل من النهار داعيه ، وأسمع الخلائق مناديه ، فانتشرت منهم الحركات ، وارتفعت منهم الأصوات ، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور ، يقول قائلهم « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور » (١) فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذى يبدئ ويعيد . فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار ؟

---

(١) روى البخارى فى صحيحه فى باب وضع اليد تحت الخد اليمنى عن حذيفة قال : كان النبي ﷺ اذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ، ثم يقول « اللهم باسمك أموت وأحيا » واذا استيقظ قال « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر ، والصبح إذا تنفس وأسفر ، فهزم جيوش الظلام بنفسه ، وأضاء أفق العالم بقبسه ، وفل كتائب الكواكب بعساكره ، وأضحك نواحى الأرض بتباشيره وبشائره . فيالهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما ، وكمال ربوبيته ، وعظم قدرته وحكمته . فتبارك الذى جعل طلوع الشمس وغروبها مقيما لسلطان الليل والنهار ، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله . فكيف كان الناس يسعون فى معاشهم ، ويتصرفون فى أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه ، وأى ثمار ونبات وحيوان كان يوجد ؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات ؟ ولولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار ، مع عظم حاجتهم إلى الهدو ، لراحة أبدانهم ، وجموم حواسهم . فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ماهدأوا ولا قروا ولا سكنوا ، بل جعله أحكم الحاكمين سكنا ولباسا ، كما جعل النهار ضياء ومعاشا . ولولا الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها ، وكان يحرق ماعليها من نبات وحيوان ، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجا يطلع على العالم فى وقت حاجتهم اليه ، ويغيب فى وقت استغنائهم عنه . فطلوعه لمصلحتهم ، وغيبته لمصلحتهم ، وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظاهرين على مصلحة هذا العالم وقوامه . فلو جعل الله سبحانه النهار سرمدا الى يوم القيامة ، والليل سرمدا الى

يوم القيامة لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة الى تغيير ذلك وإزالته بضده

وتأمل حكمته سبحانه فى ارتفاع الشمس ، وانخفاضها لاقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة ، وما فى ذلك من مصالح الخلق . فى الشتاء تغور الحرارة فى الشجر والنبات ، فيتولد منها مواد الثمار ، ويكثف الهواء ، فينشأ منه السحاب ، وينعقد فيحدث المطر الذى به حياة الأرض ونماء أبدان الحيوان والنبات ، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع . وفى الصيف يحرم الهواء ، فينضج الثمار ، وتشتد الحبوب ، ويجف وجه الأرض ، فيتهيأ العمل . وفى الخريف يصفو الهواء ، وتبرد الحرارة ، ويمتد الليل ، وتستريح الارض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية ، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ، فى هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود ، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبى .

والمقصود أن بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم ، وبذلك يظهر الزمان ، فان الزمان مقدار الحركة : فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطه الحمل الى مثلها . والسنة القمرية مقدرة بسير القمر ، وهو أقرب الى الضبط . واشترك الناس فى العلم به ، وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما فى منازلها ، لما فى ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير ، فان الشمس لو كانت تطلع وتغرب فى موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوءها وشعاعها الى كثير من الجهات ، فكان نفعها يفقد هناك فجعل الله سبحانه طلوعها دولا بين الارض لينال نفعها وتأثيرها

البقاع ، فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها الا أخذ بقسطه من نفعها . واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة ، ويأخذ كل منهما من صاحبه ، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة . فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلا أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات ، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضا وتعطلت المصالح . ولو استويا دائما لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان . فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم ؛ ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه ، كما قال تعالى (٣٦ : ٣٧ وآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ٣٨ والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) وقال تعالى (٤١ : ٩ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٠ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ١١ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٢ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ .

تَقْدِيْرُ العَزِيزِ العَلِيمِ) وقال تعالى (٦ : ٩٦ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا والشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيْرُ العَزِيزِ العَلِيمِ) فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والاجرام العلوية وماينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه ، وأنه قدره بهاتين الصفتين . وفى هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره ، وعلمه بالمغيبات

(٣٥) فصل

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة ـ وهى القمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ـ على المعاد لما فى القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه ، فانه يتضمن كمال قدرته وحكمته ، وعنايته بخلقه ، وابداء الخلق واعادته ، كما هو مشهود فى ابداء النهار والليل واعادتهما ، وفى ابداء النور واعادته فى القمر ، وفى ابداء الزمان واعادته الذى هو حاصل بسير الشمس والقمر ، وابداء الحيوان والنبات واعادتهما ، وابداء فصول السنة واعادتها ، وابداء ما يحدث فى تلك الفصول واعادته . فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذى أخبرت به الرسل كلهم عنه ، فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها ، وجعلها للفطر تارة ، وللسمع تارة ، وللمشاهدة تارة ، فجعلها آفاقية ، ونفسية ، ومنقولة ، ومعقولة ، ومشهودة بالعيان ، ومذكورة بالجنان . فأبى الظالمون الا كفورا (٢٥ : ٣ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُوْنِهِ آلِهَةً لَايَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ

يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً ولاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً ولاَ حيَاةً ولاَ نُشُوراً)

ولما أقام الحجة وبين المحجة ارتهن كل نفس بكسبها ، وآخذها بذنبها ، واستثنى من أولئك من قبل هداه واتبع رضاه ، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وسلكوا غير سبيل المجرمين ، الذين ليسوا من المصلين ، ولا من مطعمى المسكين ، وهم من أهل الخوض مع الخائضين ، المكذبين بيوم الدين . فهذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم فى جملة الهالكين : (الاولى) ، ترك الصلاة ، وهى عمود الاخلاص للمعبود (الثانية) ترك اطعام المسكين الذى هو من مراتب الاحسان للعبيد ، فلا اخلاص للخالق ولا احسان للمخلوق ، كما قال تعالى(١٠٧ : ٦ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ ٧ وَيَمْنَعُونَ المَاعُون) وقال (٩ : ٥٤ لاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وهُمْ كُسالَى ولاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وهُمْ كَارِهُونَ)وهذا ضدما وصف به أصحاب اليمين بقوله (٨ : ٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وقال (٣٢ : ١٦ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وطَمَعاً ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وقرن سبحانه بين هــذين الأصلين فى غير موضع فى كتابه : فأمر بهما تارة ، وأثنى على فاعليهما تارة ، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة ، فان مدار النجاة عليهما ، ولافلاح لمن أخل بهما

الصفة الثالثة والرابعة الخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، فاجتمع لهم عدم الاخلاص والاحسان ، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، واجتمع لأصحاب (اليمين) (١) الاخلاصُ ، الاحسان والتصديق بالحق ، والتكلم به ، فاستقام اخلاصهم واحسانهم ، ويقينهم وكلامهم . واستبدل أصحاب الشمال بالاخلاص شركا ، وبالاحسان اساءة ، وباليقين شكا وتكذيبا ، وبالكلام النافع خوضا فى الباطل . فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين ، أى لم يكن لهم من شفيع فيهم ، لان الشفاعة تقع فيهم ولاتنفع ، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسا ، وجفلوا عن سماعها كما تجفل حُمُرُ الوحش من الأُسد أو من الرُّماة

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره ، وإقامة الحجة عليهم باثبات المشيئة لهم ، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية ، وأن ذلك إليه لا إليهم ، فالاول عدله ، والثانى فضله ، فالأول يوجب السعى والطلب والحرص على ماينجيهم ، كما يفعلون ذلك فى مصالح دنياهم ، بل أشد . والثانى يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة الى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم . والله المستعان ، وعليه التكلان

---

(١) هذه زيادة لابد منها لتصحيح المقابلة بين الفريقين وهى مأخوذة من الآيات التى بشرحها المؤلف اه أبو رجاء

(٣٦) فصل

ومن ذلك قوله (٦٩ : ٣٨ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٩ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٤٠ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) إلى آخرها . قال مقاتل : بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه . وقال قتادة : أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر ، وقال الكلبي : تبصرون من شيء ، وما لا تبصرون من شيء . وهذا أعم قسم وقع في القرآن ، فانه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة ، وما يرى وما لا يرى ، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والانس ، والعرش والكرسي ، وكل مخلوق ، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته ، وهو سبحانه يصرف الاقسام كما يصرف الآيات . ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ، ودليل على صدق رسوله ، وأن ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه ، لا كلام شاعر ، ولا مجنون ، ولا كاهن

ومن تأمل المخلوقات ، ما يراه منها وما لا يراه ، واعتبر ما جاء به الرسول بها ، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه ، وهو أصدق الكلام ، وأنه حق ثابت . كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق . كما قال تعالى (٥١ : ٢٣ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) أي ان كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون

فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق . كما في الحديث «انه لحق مثل ماأنك ههنا» ، فكأنه سبحانه يقول : ان القرآن حق كما أن ماشاهدوه من الخلق ومالا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون ومالا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق. ويكفى الانسان من جميع ما يبصره ومالا يبصره بعينه ، ومبدأ خلقه ونشأته ، وما يشاهده من أحواله ظاهرا وباطناً ، ففى ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب ، وثبوت صفاته ، وصدق ما أخبر به رسوله ، ومالم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الأيمان قلبه

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال (٦٩ : ٤٠ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) وهذا رسوله البشرى محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى إضافته اليه باسم الرسالة أبين دليل انه كلام المرسل . فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة . ولو كانت إضافته اليه اضافة انشاء وابتداء لم يكن رسولا ، ولناقض ذلك إضافته الى رسوله الملكى فى سورة التكوير

ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم فى نسبة كلامه تعالى الى غيره ، وانه لم يتكلم به ، بل قاله ، من تلقاء نفسه ، كما بين كذب من قال (٧٤ : ٢٥ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) . فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر وسيصليه الله سقر

ثم أخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العالمين ، وذلك يتضمن أمورا :

﴿أحدها﴾ أنه تعالى فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده ﴿والثانى﴾ أنه تكلم به حقيقة، لقوله (٥٦ : ٨٠ من رب العالمين) ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير. ونظير هذا قوله (٣٢ : ١٣ ولَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي) ونظيره قوله (١٦ : ١٠٢ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ) وقوله (٣٩ : ١ تنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمْ) وقوله (٤١ : ٤٢ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) وما كان من الله فليس بمخلوق، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما فى السموات والارض جميعا منه، وهو مخلوق؛ لان ذلك كله أعيان قائمة بنفسها وصفات وأفعال لتلك الأعيان، فاضافتها الى الله سبحانه وأنها منه اضافة خلق، كاضافة بيته، وعبده، وناقته، وروحه، وبابه - اليه، بخلاف كلامه فانه لابد أن يقوم بمتكلمه؛ إذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع، وبصر من غير مبصر، وذلك عين المحال، فاذا أضيف الى الرب كان بمنزلة اضافة سمعه، وبصره، وحياته، وقدرته، وعلمه، ومشيئته اليه. ومن زعم أن هذه إضافة مخلوق الى خالق فقد زعم ان الله لاسمع له، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا مشيئة تقوم به. وهذا هو التعطيل الذى هو شر من الاشراك. وان زعم أن اضافة السمع، والبصر، والعلم، والحياة والقدرة اضافة صفة الى موصوف، فاضافة الكلام اليه اضافة مخلوق إلى خالق فقد تناقض وخرج عن موجب العقل والفطرة

والشرع ولغات الامم ، وفرق بين متماثلين حقيقة ، وعقلا ، وشرعا ، وفطرة ، ولغة

وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول ، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام فى قوله (٩:٦ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) فان الرسول يقول للمرسل اليه ماأمر بقوله ، فيقول : قلت كذا وكذا ، وقلت له : ماأمرتنى أن أقوله كما قال المسيح (٥ : ١١٧ ماقُلْتُ لَهُمْ إلاَّ ماأمَرْتَنِي بِهِ) والمرسل يقول للرسول : قل لهم كذا وكذا . كما قال تعالى (٤ : ٣١ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) (١٧ : ٥٣ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (٢٤ : ٣٠ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) ونظائره . فاذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال : قال الرسول كذا . وهذا قول الرسول ـ أى قاله مبلغا ـ وهذا قوله مبلغا عن مرسله ، ولا يجىء فى شىء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا ، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا ، ولا أنه بكلام رسول كريم ، ولا فى موضع واحد ، بل قيل للصديق ـ وقد تلى آية ـ هذا كلامك وكلام صاحبك فقال : ليس بكلامى ولا كلام صاحبي ، هذا كلام الله

(٣٧) فصل

الأمر الثالث ماتضمنه قوله (٥٦: ٨٠ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) إن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى: لا يأمرهم، ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ماينفعهم، ويحذرهم مايضرهم. بل يتركهم هملا بمنزلة الأنعام السائمة. فمن زعم ذلك لم يَقْدِرْ رَبَّ العالمين قدره ونسبه إلى مالا يليق به تعالى (٢٣: ١١٦ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه لما أقره، ولعاجله بالاهلاك، فان كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه، وافترى عليه، وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر فى الأرض الفساد والجور والكذب، وخالف الخلق، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك؟ بل كيف يليق به أن يؤيده، وينصره، ويعليه، ويظهره، ويظفره، بأهل الحق: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلا: ان الله أمرنى بذلك وأباحه لى؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه باقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه التى دلالتها على التصديق

كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها . فكل آية على انفرادها مصدقة له ، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ، ثم يعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدقه بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له باقراره وفعله وقوله ، فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه ؛ الذى هو شر الخلق على الاطلاق ، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعا ، ولا عرف الله ، ولا هذا هو رب العالمين ، ولا يحسن نسبة ذلك الى من له مسكة من عقل ، وحكمة ، وحجى . ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ، ونادى على جهله

وأذكر فى هذا مناظرة جرت لى مع بعض اليهود ، قلت له — بعد أن أقضى فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم — الى أن قلت له : انكار نبوته يتضمن القدح فى رب العالمين وتنقصه بأقبح التنقص فكان الكلام معكم فى الرسول ، والكلام الآن فى تنزيه الرب تعالى ، فقال : كيف تقول مثل هذا الكلام ؟ فقلت له : بيانه على ، فاسمع الآن : أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولا وانما كان ملكا قاهرا قهر الناس بسيفه ، حتى دانوا له ، ومكث ثلاثا وعشرين سنة يكذب على الله ويقول : أوحى إلى ولم يُوح إليه ، وأمرنى ولم يأمره ، ونهانى ولم ينهه ، وقال الله كذا ولم يقل ذلك ، وأحل كذا

وحرم كذا . وأوجب كذا ، وكره كذا ، ولم يحل ذلك ولا حرمه ولا أوجبه ، بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبا مفتريا على الله وعلى أنبيائه ، وعلى رسله وملائكته ، ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض عباده : يسفك دماءهم ، ويأخذ أموالهم ، ويسترق نساءهم وأبناءهم ، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته . وهو فى ذلك كله يقول : الله أمرنى بذلك . ولم يأمره . ومع ذلك فهو ساع فى تبديل أديان الرسل . ونسخ شرائعهم ، وحل نواميسهم فهذه حاله عندكم . فلا يخلو : إما أن يكون الرب تعالى عالما بذلك مطلعا عليه من حاله ، يراه ويشاهده أم لا : فان قلتم : ان ذلك جميعه غائب عن الله لم يعلم به قدحتم فى الرب تعالى . ونسبتموه إلى الجهل المفرط ، إذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم ولا علمه ولا رآه . وإن قلتم : بل كان ذلك بعلمه واطلاعه ومشاهدته . قيل لكم : فهل كان قادرا على أن يغير ذلك ويأخذ على يده ، ويحول بينه وبينه أم لا ؟ فان قلتم : ليس قادرا على ذلك نسبتموه إلى العجز المنافى للربوبية ، وكان هذا الانسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ إراداتهم . وإن قلتم : بل كان قادرا ، ولكن مكنه ونصره وسلطه على الخلق ، ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله نسبتموه إلى أعظم السفه والظلم والاخلال بالحكمة . هذا لو كان مخلى بينه وبين مافعله . فكيف وهو فى ذلك كله ناصره ومؤيده ، ومجيب دعواته

ومهلك من خالفه وكذبه ، ومصدقه بأنواع التصديق ، ومظهر الآيات على يديه التى لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم ولعجزوا عن ذلك . وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الاتباع أمراً خارجاً عن العادة . فظهر أن من أنكر كونه رسولاً نبيا فقد سبّ الله وقدح فيه ، ونسبه الى الجهل والعجز والسفه

قلت له : ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم الله فى الأرض وقتاما ، ثم قطع دابرهم ، وأبطل سنتهم ، ومحا آثارهم وجورهم . فان أولئك لم يعيدوا اشيئا من هذا ، ولا أيدوا ، ونصروا ، وظهرت على أيديهم الآيات ، ولا صدقهم الرب تعالى باقراره ولا بفعله ولا بقوله . بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول ، كفرعون ونمرود وأضرابهما . ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة من الكذابين ، فان حاله كانت ضد حال الرسول من كل وجه ، بل حالهم من أظهر الأدلة على صدق الرسول . ومن حكمة الله سبحانه أن أخرج مثل هؤلاء الى الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين ، وكان ظهورهم من أبين الادلة على صدق الرسل والفرق بين هؤلاء وبينهم ، فبضدها تتبين الأشياء ، والضد يظهر حسنه الضد ، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه

فلما سمع ذلك قال : معاذ الله لا نقول انه ملك ظالم ، بل نبى كريم من اتبعه فهو من السعداء ، وكذلك من اتبع موسى فهو كمن اتبع محمداً

قلت له : بطل كل ما تموهون به بعد هذا ؛ فانكم اذا أقررتم أنه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به ، وقد علم اتباعه وأعداؤه بالضرورة أنه دعا الناس كلهم الى الايمان ، وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار ، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب وسجل عليهم بالكفر واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وابناءهم . فان كان ذلك عدوانا منه وجورا لم يكن نبيا ، وعاد الأمر الى القدح في الرب تعالى ، وان كان ذلك بأمر الله ووحيه لم يسع أحدا مخالفته وترك اتباعه ، ولزم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر

وقد أرشد سبحانه الى هذا المسلك في غير موضع من كتابه فقال (٦٩ : ٤٤ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ٤٥ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ٤٦ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ٤٧ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) يقول سبحانه : لو تقوّل علينا قولا واحدا من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوحه اليه لما أقررناه ، ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه . هذا أحد القولين ، قال ابن قتيبة : في هذا قولان : أحدهما أن اليمين القوة والقدرة ، وأقام اليمين مقام القوة ، لان قوة كل شيء في ميامنه

قلت : وعلى هذا تكون اليمين من صفة الآخذ ، وهذا قول ابن عباس في اليمين

قال : ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر ، وهو أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب ، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل خذ بيده ، وأكثر مايقوله السلطان

والحاكم بعد وجوب الحكم : خذ بيده ، واسفع بيده فكأنه قال : لو كذب علينا فى شىء (مما بلغ) اليكم عنا لأخذنا بيمينه . ثم عاقبناه بقطع الوتين . والى هذا المعنى ذهب الحسن اهـ

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئا من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة . فان كذباً على الله ليس ككذب على غيره ، ولا يليق به ان يقر الكاذب عليه فضلا عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه

وقوله (٦٩ : ٤٦ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) والوتين : نياط القلب ، وهو عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب . اذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه ، هذا قول جميع أهل اللغة ، قال ابن قتيبة : ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه ، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه أو قتلناه ، فكان كمن قطع وتينه ، قال : ومثله قوله صلى الله عليه وسلم « مازالت أكلة خيبر تعاودنى ، وهذا أوان قطعت أبهرى » (١)

(١) رواه البخارى معلقاً . ووصله البزار وغيره عن عائشة رضى الله عنها . والأبهر عرق فى الظهر . وفى النهاية : مازالت أكلة خيبر تعادنى ـ بضم التاء وتشديد الدال ـ وأتى للابهر بمعان كثيرة . وقال الحافظ فى الفتح (٧ : ٣٤٨) قال ابن اسحاق : لما اطمأن النبى ﷺ بعد فتح خيبر أهدت اليه زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية كانت سألت : أي عضو من الشاة أحب اليه ؟ قيل لها الذراع . فأكثرت فيها من السم . فلما تناول الذراع لاك منها مضغة ولم يسغها . وأكل معه بشر بن البراء فأساغ لقمته فمات .

والأبهر : عرق يتصل بالقلب فاذا انقطع مات صاحبه . فكأنه قال :
فهذا أوان قتلي السم ، فكنت كمن انقطع أبهره

ثم قال تعالى (٦٩ : ٤٧ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)
أى لا يحجزه منى أحد ولا يمنعه منى

الموضع الثانى قوله تعالى (٤٢ : ٢٤ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) وفى معنى الآية للناس قولان :
أحدهما قول مجاهد ومقاتل : ان يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، حتى لا يشق عليك . والثانى قول قتادة : ان يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى . وهذا القول دون الأول لوجوه

﴿ أحدها ﴾ ان هذا خرج جوابا لهم وتكذيبا لقولهم : ان محمدا كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن . فأجابهم بأحسن جواب ، وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شيء ، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه ، فلا يمكنه أن يأتى بشيء منه ، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل الى مافيه ، فيعود المعنى الى أنه لو افترى على لم أمكنه ولم أقره . ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه ، فان فيه من علوم الأولين والآخرين ، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة ، والعلم الذى لا يعلمه إلا الله والبيان التام ، والجزالة ، والفصاحة ، والجلالة ، والأخبار بالغيوب

مالم يمكن من ختم على قلبه أن يأتى به ولا ببعضه ، فلولا أنى أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه ـ لما أمكنه أن يأتيكم بشىء منه ، فأين هذا المعنى الى المعنى الذى ذكره الآخرون ؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم ؟ وكيف يتضمن الرد عليهم ؟

﴿الوجه الثانى﴾ : ان مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل ، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ، ولا يكون فيه رد لقولهم . فان الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر

﴿الثالث﴾ : ان الرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه ، ولا يعرف هذا فى عرف المخاطب ولا لغة العرب . ولا هو المعهود فى القرآن ، بل المعهود استعمال الختم على القلب فى شأن الكفار فى جميع موارد اللفظ فى القرآن كقوله (٢ : ٧ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وقوله (٤٥ : ٢٣ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً) ونظائره ، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله (١٨ : ١٤ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)وقوله (٢٨: ١٠ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا) والانسان يسوغ له فى الدعاء أن يقول : اللهم اربط على قلبي ، ولا يحسن أن يقول : اللهم اختم على قلبى

﴿الرابع﴾ :انه سبحانه حيث يحكى أقوالهم « انه افتراه» لا يجيبهم

عليه هـذا الجواب ، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئا . بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه ، كقوله (٤٦ : ٨ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا) وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه . وتارة باقامة الادلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون . وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لامجرد الصبر

﴿الخامس﴾ : أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولامكنه . وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير

﴿السادس﴾ : انه لادلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما : لا بالمطابقة ، ولا التضمن . ولا اللزوم . فمن أين يعلم أنه أراد ذلك ، ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى ، فيحمل عليه ، بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه ، فقد ذكره في مواضع

﴿السابع﴾ : أنه سبحانه أخبر انه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به ، وأن ذلك انما هو بمشيئته واذنه وعلمه كما قال تعالى (١٠ : ١٦ قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ) وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ، ولا أقدر أن أفتريه على الله ولو كان ذلك مقدورا لي لكان مقدورا لمن هو من أهل العلم والكتابة ومخالطة الناس والتعلم منهم . ولكن الله بعثني به ، ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني ، فلم يدعني أتلوه عليكم وان أعلمكم به ألبتة

لاعلى لسانى ولا على لسان غيرى . ولكنه أوحاه الى وأذن لى فى تلاوته عليكم . وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به . فلو كان كذبا وافترا. كما تقولون لأمكن غيرى أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته . لأن الكذب لا يعجز عنه البشر . وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا منى ولم تسمعوه من بشر غيرى

ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه . فقال (١٠: ١٦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ) تعلمون حالى ولا يخفى عليكم سيرى ومدخلى ومخرجى وصدقى وأمانتى . ومن هذا لم أتمكن من قول شىء منه ألبتة ، ولا كان لى به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم . ولا معاناة للأسباب التى أتمكن بها منه ، ولا من بعضه . وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين انه من عند الله أوحاه الى وأنزله على ولو شاء مافعل . فلم يمكنى من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به . بل مكننى من تلاوته ومكنكم من العلم به . فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه ، ولم أكن قبل أن يوحى الى تاليا له ولا لبعضه

فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته

ومن هذا قوله سبحانه (١٧ : ٨٦ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) وهذا هو المناسب لقوله (٤٢ : ٢٤ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى

قَلْبِكَ) وقوله ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾
وبرهان مستقل مذكور فى القرآن على وجوه متعددة والله أعلم

﴿ الثامن ﴾ : ان مثل هذا التركيب إنما جاء فى القرآن للنفى لا للاثبات .
كقوله تعالى (١٧ : ٨٦ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)
وقوله (٤ : ١٣٣ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ) وقوله
(٤٢ : ٣٣ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ) وقوله (٣٤ : ٩
إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ)
ونظائره لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفيا

﴿ التاسع ﴾ : ان الختم على القلب لا يستلزم الصبر . بل قد يختم على
قلب العبد ويسلبه صبره ، بل اذا ختم على القلب زال الصبر وضعف .
بخلاف الربط على القلب فانه يستلزم الصبر . كما قال تعالى (٨ : ١١
وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ) ومعنى الربط فى اللغة الشد . ولهذا
يقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه . كأنه حبس قلبه عن
الاضطراب . ومنه يقال : هو رابط الجأش . وقد ظن الواحدى
أن « على » زائدة . والمعنى يربط قلوبكم . وليس كما ظن . بل بين
ربط الشىء والربط عليه فرق ظاهر . فانه يقال ربط الفرس والدابة
ولا يقال ربط عليها . فاذا أحاط الربط بالشىء وعمه قيل : ربط

عليه . كأنه أحاط عليه بالرباط . فلهذا قيل : ربط على قلبه . وكان أحسن من أن يقال : ربط قلبه . والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم

﴿العاشر﴾ : ان الختم هو شد القلب . حتى لا يشعر ولا يفهم ، فهو مانع يمنع العلم والتقصد . والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم قول أعدائه : أنه افترى القرآن ، ويشعر به ، فلم يجعل الله على قلبه مانعا من شعوره بذلك وعلمه به . فاذا قيل : الأمر كذلك ، ولكن جعل الله على قلبه مانعا من التأذى بقولهم . قيل : هذا أولى أن يسمى ختما ، وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنهم ، كما قال تعالى (٦ : ٣٣ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ) وكان وصول هذا الأذى اليه من كرامة الله له ، فانه لم يؤذ نبي ما أوذى . فالقول فى الآية هو قول قتادة . والله أعلم

ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقى ، فيبصر ماينفعه فيأتيه ، ومايضره فيجتنبه ، ويتذكر به أسماء الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن ، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته فى أوليائه وأعدائه ونفسه ، ومايزكيها ويطهرها ويعليها ، ومايدسيها ويخفيها ويحقرها . ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار ، وعلم الخير والشر . فهو التذكرة على الحقيقة ، تذكرة حجة للعالمين ، ومنفعة وهداية للمتعلمين

ثم قال سبحانه (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ) أى لا يخفون علينا ، فسنجازيهم بتكذيبهم

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين اذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات ، حين لا ينفعهم التحسر . وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فانه اذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه ، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله ، حتى اذا اشتدت حاجته اليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين . فقيل : هو من باب اضافة الموصوف الى صفته ، أى الحق اليقين ، نحو مسجد الجامع ، وصلاة الأولى . وهذا موضع يحتاج الى تحقيق فنقول : وبالله التوفيق :

ذكر الله سبحانه فى كتابه مراتب اليقين وهى ثلاثة : حق اليقين ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، كما قال تعالى (١٠٢ : ٥ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٦ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٧ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) فهذه ثلاث مراتب ، لليقين : أولها علمه ، وهو التصديق التام به ، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح فى تصديقه ، كعلم اليقين بالجنة مثلا ، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين ، فهذه مرتبة العلم ، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله ، وتيقنهم صدق المخبر

﴿ المرتبة الثانية ﴾ عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة . كما قال تعالى (١٠٢ : ٧ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة . فاليقين للسمع ، وعين اليقين للبصر وفي المسند للامام أحمد مرفوعا « ليس الخبر كالمعاين » وهذه المرتبة هي التي سألها ابراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموت ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين ، فكان سؤاله زيادة لنفسه ، وطمأنينة لقلبه . فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان . وعلى هذه المسافة أطلق النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الشك حيث قال « نحن أحقُّ بالشَّكِّ من ابراهيم »[١] ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من ابراهيم ، وانما هو عين بعد علم ، وشهود بعد خبر ، ومعاينة بعد سماع

﴿ المرتبة الثالثة ﴾ مرتبة حق اليقين . وهي مباشرة الشيء بالاحساس به . كما اذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين ، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين ، واذا دخلوها و باشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين . ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب ، فلهذا قال (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ) فان القلب يباشر الايمان به و يخالطه كما يباشر بالحواس مايتعلق بها ، فحينئذ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة عن أبي هريرة

تخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين، وهذه أعلى مراتب الايمان وهى الصديقية التى تتفاوت فيها مراتب المؤمنين

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثة مثالا فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندى عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته كان ذلك علم يقين فاذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين فاذا ذقته صار ذلك حق اليقين، وعلى هذا فليست هذه الاضافة من باب إضافة الموصوف الى صفته، بل من اضافة الجنس الى نوعه، فان العلم والعين والحق أعم من كونها يقيناً فأضيف العام الى الخاص، مثل بعض المتاع وكل الدراهم. ولما كان المضاف والمضاف اليه فى هذا الباب يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك: دار عمرو وثوب زيد ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف الى صفته، وليس كذلك، بل هى من باب اضافة الجنس الى نوعه، كثوب خز وخاتم فضة فالمضاف اليه قد يكون مغايرا للمضاف لا يصدقان على ذات واحدة، وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد والله أعلم

ثم ختم السورة بقوله (٥٢:٦٩ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) وهى جديرة بهذه الخاتمة، لما تضمنته من الاخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله، وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده فى الدنيا والآخرة، وذكر عظمته تعالى فى ارسال رسوله وإنزال كتابه، وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من

عباده من أن يقر كذبا متقولا عليه ، مفترى عليه ، يبدل دينه ، وينسخ شرائعه ، ويقتل عباده ، ويخبر عنه بما لاحقيقة له ، وهو سبحانه مع ذلك يؤيده وينصره ، ويجيب دعواته ؛ ويأخذ أعداءه ويرفع قدره ، ويعلى ذكره. فهو سبحانه العظيم الذى تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم . فسبحان ربنا العظيم ، وتعالى عما ينسبه اليه الجاهلون علوا كبيرا

(٣٨) فصل

ومن ذلك قوله عز وجل (٧٠: ٤٠ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤١ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب . وهى إما مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها . وان كل موضع من الجهة مشرق ومغرب ، فكذلك جمع فى موضع ، وأفرد فى موضع ، وثنى فى موضع آخر ، فقال (٥٥ : ١٧ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) فقيل : هما مشرقا الصيف والشتاء ، وجاء فى كل موضع ما يناسبه ، فجاء فى سورة الرحمن (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) لانها سورة ذكرت فيها المزدوجات ، فذكر فيها الخلق والتعليم ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والشجر ، والسماء ، والارض ، والحب ، والثمر ، والجن ، والانس ، ومادة أبى البشر ، وأبى الجن ، والبحرين

والجنة والنار . وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين وجنتين دونهما ، وأخبر أن فى كل جنة عينين ، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين ، والمغربين

وأما سورة (سأل سائل) فانه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكمالها . وصحة تعلقها باعادتهم بعدالعدم . فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع ؛ إذ هو أدل على المقسم عليه ، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها ، أومشارق الشمس ومغاربها ، أو كل جزء من جهتى المشرق والمغرب . فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين ، وينشئهم فيما لايعلمون . فيأتى بهم فى نشأة أخرى ، كما يأتى بالشمس كل يوم من مطلع ، ويذهب (بها) فى مغرب

وأما فى سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الافراد ، لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته ، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده ، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده . فليس للمشرق والمغرب رب سواه . فكذلك ينبغى أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه ، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله (٢٦: ٢٣ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟) فقال: (٢٦: ٢٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) ، وفى ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السموات وماحوته من الشمس ،

والقمر ، والنجوم . وربوبيته مابين الجهتين ، وربوبيته الليل والنهار وماتضمناه . ثم قال (٧٠ : ٤٠ إِنَّا لَقَادِرُونَ ٤١ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)أى لقادرون على أن نذهب بهم ونأتى بأطوع لنا منهم وخيرا منهم ، كما قال تعالى (٤ : ١٣٣ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً) وقوله (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أى لايفوتنى ذلك إذا أردته ولا يمتنع منى . وعبر عن هذا المعنى بقوله (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) لان المغلوب يسبقه الغالب الى مايريده فيفوت عليه . ولهذا عدى بعلى دون إلى ، كما فى قوله (٥٦ : ٦٠ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦١ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ) فانه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بعلى ، بخلاف سبقه اليه ، فانه فرق بين سبقته اليه وسبقته عليه . فالاول بمعنى غلبته وقهرته عليه . والثانى بمعنى وصلت اليه قبله

(٣٩) فصل

وقد وقع الاخبار عن قدرته عليه سبحانه على تبديلهم بخير منهم ، وفى بعضها تبديل أمثالهم ، وفى بعضها استبداله قوما غيرهم ثم لايكونوا أمثالهم . فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة مابينها من الجمع والفرق . فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن

يذهب بهم ويأتى بأطوع واتقى له منهم فى الدنيا . وذلك قوله (٤٧ :٣٨
وإنْ تتولَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غيْرَكُمْ ثمَّ لاَ يكُونُوا أمْثالَكُمْ)
يعنى بل يكونوا خيرا منكم . قال مجاهد : يستبدل بهم من شاء من عباده
فيجعلهم خيرا من هؤلاء ، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم .
واما ذكره تبديل أمثالهم ، فنى سورة الواقعة وسورة الانسان . فقال
فى الواقعة (٦٠ نحْنُ قدَّرْنا بيْنكُمُ الموْتَ ومَا نحْنُ بمَسْبُوقِينَ ٦١ علَى
أنْ نبَدِّلَ أمْثالَكُمْ ونُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ) وقال فى سورة الانسان
(٢٨ نحْنُ خلَقْناهُمْ وشَدَدْنا أسْرَهُمْ وإذَا شِئْنا بَدَّلْنا أمْثالَهُمْ تبْدِيلاً)
قال كثير من المفسرين : المعنى أنا إذا أرادنا أن نخلق خلقاً غيركم
لم يسبقنا سابق ، ولم يفتنا ذلك . وفى قوله (وإذَا شِئْنا بدَّلْنا أمْثالَهُمْ
تبْدِيلاً) إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم ، فجعلناهم بدلا منهم .
قال المهدوى : قوما موافقين لهم فى الخلق مخالفين لهم فى العمل ،
ولم يذكر الواحدى ولا ابن الجوزى غير هذا القول . وعلى هذا
فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى (١٦:٣٥ إنْ يشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيُّها
النَّاسُ ويأْتِ بآخَرِينَ) فيكون استدلالا بقدرته على إذهابهم
والاتيان بأمثالهم على اتيانه بهم أنفسهم اذا ماتوا

ثم استدل سبحانه بالنشأة الأولى فذكرهم بها فقال (٥٦ : ٦٢ ولقَدْ
علِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى فلَوْلاَ تذَكَّرُونَ) فنبههم بما علموه وعاينوه على

صدق ما أخبرتهم به رسله من النشاة الثانية

والذى عندى فى معنى هاتين الآيتين ، وهما آية الواقعة والانسان أن المراد بتبديل أمثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التى وعدوا بها . وقد وفق الزمخشرى لفهم هذا من سورة الانسان ، فقال : وبدلنا أمثالهم فى شدة الأسر ، يعنى النشأة الأخرى ، ثم قال : وقيل وبدلنا غيرهم ممن يطيع ، وحقه أن يأتى بأنْ لا باذا . كقوله (وإنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ) قلت : وإتيانه باذا التى لاتكون الا لتحقق الوقوع يدل على تحقق وقوع هذا التبديل وانه واقع لامحالة . وذلك هو النشأة الآخرى التى استدل على امكانها بقوله (ولَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى) واستدل بالمثل على المثل، وعلى ما أنكروه بما عاينوه وشاهدوه ، وكونهم أمثالهم هو انشاؤهم خلقاً جديداً بعينه فهم هم بأعيانهم ، وهم أمثالهم ، فهم أنفسهم يعادون . فاذا قلت : المعاد هذا هو الأول بعينه صدقت ، وان قلت: هو مثله صدقت فهو هو معاد أو هو مثل الأول . وقد أوضح هذا سبحانه بقوله (٥٠ : ١٥ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم . وقد سماه الله سبحانه وتعالى إعادة والمعاد مثل المبدأ ، وسماه نشأة أخرى وهى مثل الأولى ، وسماه خلقاً جديداً وهو مثل الخلق الأول كما قال (٥٠ : ١٥ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) وسماه أمثالا وهم

هم . فتطابقت ألفاظ القرآن وصدق بعضها بعضاً ، وبين بعضها بعضاً . ولهذا تزول اشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذى أخبرت به الرسل عن الله . ولا يفهم من هذا القول ماقاله بعض المتأخرين انهم غيرهم من كل وجه . فهذا خطأ قطعاً ـ معاذ الله من اعتقاده ـ ، بل هم أمثالهم وهم أعيانهم . فاذا فهمت الحقائق فلا يناقش فى العبارة الاضيقُ العطَن ، صغير العقل ، ضعيف العلم

وتأمل قوله تعالى فى الواقعة (٥٦ : ٥٨ أفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ٥٩ أَءَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ٦٠ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلا بها على النشأة الثانية بقوله (٥٦ : ٦٠ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦١ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ) فانكم انما علمتم النشأة الأولى فى بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون ، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون . فاذا أنتم أمثال ما كنتم فى الدنيا فى صوركم وهيئاتكم . وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته ، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التى كذبتم بها ، فأى استدلال وارشاد أحسن من هذا وأقرب الى العقل والفهم ، وأبعد من كل شبهة وشك ؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال الا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والايمان .

وقال فى سورة الانسان (٣٨ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

فهذه النشأة الأولى ثم قال (وإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً) فهذه النشأة الأخرى . ونظيرهـــذا (٥٣ : ٤٥ وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى ٤٦ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ٤٧ وأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى) وهذا فى القرآن كثير جدا ، يقرن بين النشأتين مذكر اللفطر والعقول باحداهما على الآخرى . وبالله التوفيق

فصل (٤٠)

فلما أقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال (٧٠ : ٤٢ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتى فلم يقبلوها ، ولم يخافوا بأسى ولا صدقوا رسالاتى فى خوضهم بالباطل ، ولعبهم : فالخوض فى الباطل ضد التكلم بالحق ، واللعب ضد السعى الذى يعود نفعه على ساعيه . فالأول ضد العلم النافع . والثانى ضد العمل الصالح . فلا تكلم بالحق ، ولا عمل بالصواب . وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لابد له من هذين الأمرين

ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور . فقال (٤٣ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ) أى يسرعون . والنصُبُ العلم والغاية التى تنصب فيؤمونها . وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه ؛ فان الناس يقومون من قبورهم

مهطعين الى الداعي ، يؤمون الصوت ، لايعرجون عنه يمنة ولا يسرة كما قال (٢٠ : ١٠٨ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ) أي : يقبلون من كل أوب الى صوته وناحيته ، لايعرجون عنه . قال الفراء : وهذا كما تقول : دعوتك دعوة لاعوج لك عنها . وقال الزجاج : المعنى لاعوج لهم عن دعائه ، أي لايقدرون إلا على اتباعه وقصده

فان قلت : إذا كان المعنى لاعوج لهم عن دعوتي ، فكيف قال (لَا عِوَجَ لَهُ) قيل : قالت طائفة : اللام بمعنى عن ، أي لاعوج عنه ، وقالت طائفة : المعنى لاعوج لهم عن دعائي ، كما قال الزجاج وفي القولين تكلف ظاهر . ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم ، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لايعوج عنه ، كان مجيء اللام منتظما للمعنيين ودالا عليهما . والمعنى لاعوج لدعائه لافي إسماعهم إياه ، ولافي إجابتهم له

ثم قال تعالى (٤٤ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) فوصفهم بذل الظاهر ، وهو خشوع الأبصار ، وذل الباطن ، وهو ما يرهقهم من الذل الذي خشعت عنه أبصارهم ، وقريب من هذا قوله (٧٥ : ٢٤ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٢٥ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) ونظيره قوله (١٠ : ٢٦ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَالَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً) وضد هذا قوله تعالى (٢٠ : ١١٨

إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى) فنفى عنه الجوع الذى هو ذل الباطن والعرى الذى هو ذل الظاهر . وضده أيضا قوله (٧٦ : ١١ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً) فالنضرة عز الظاهر وجماله . والسرور عز الباطن وجماله . ومثله أيضا قوله (٧٦ : ٢١ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً) فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن، ومثله قوله (٧ : ٢٦ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن . ومثله قوله (٣٧ : ٦ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ٧ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ) فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم . ومثله قوله أيضا (٤٠ : ٦٤ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) وقريب منه قوله تعالى (٢ : ١٩٧ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) ومنه قوله (٣ : ١٠٦ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ١٠٧ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن. ومنه قول امرأة العزيز (١٢ : ٣٢ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) فوصفت ظاهره بالجمال

وباطنه بالعفة ، فوصفته بجمال الظاهر والباطن ، فكأنها قالت : هذا ظاهره ، وباطنه أحسن من ظاهره . وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدرا وشرعا . والله أعلم بالصواب

(٤١) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٦٨ : ١ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ٢ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) الصحيح أن «ن» و «ق» و «ص» من حروف الهجاء التى يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور ، وهى أحادية ، وثنائية ، وثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، ولم تجاوز الخمسة ، ولم تذكر قط فى أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن ، إما مقسما به ، وإما مخبرا عنه ، ماخلا سورتين سورة « كهيعص ، ون » كقوله (٢ : ١ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) (٣ : ١ الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ) (٧ : ١ الٓمٓصٓ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ) (١٣ : ١ الٓمٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) وهكذا الى آخره ، ففى هذا تنبيه على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها ، وجلالتها . إذ هى مبانى كلامه وكتبه ، التى تكلم سبحانه بها ، وأنزلها على رسله ، وهدى بها عباده ، وعرفهم بواسطتها نفسه ، وأسماءه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأمره ، ونهيه ، ووعيده ، ووعده ، وعرفهم بها الخير والشر ، والحسن ، والقبيح ، وأقدرهم على التكلم بها ، بحيث

يبلغون بها أقصى ما فى أنفسهم ، بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة ، وأوصله الى المقصود ، وأدله عليه . وهذا من أعظم نعمه عليهم ، كما هو من أعظم آياته . ولهذا عاب سبحانه على من عبد آلها لا يتكلم ، وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم . فكان فى ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال احسانه وانعامه ، فهى أولى أن يقسم بها من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والنجوم ، وغيرها من المخلوقات . فهى دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته ، وحكمته وكماله ، وكلامه ، وصدق رسله

وقد جمع سبحانه بين الأمرين ـ أعنى القرآن ونطق اللسان ـ وجعل تعليمهما من تمام نعمته وامتنانه . كما قال (٥٥ : ١ الرَّحْمَنُ ٢ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٣ خَلَقَ الإِنْسَانَ ٤ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) فبهذه الحروف علم القرآن ، وبها علم البيان ، وبها فضل الانسان على سائر أنواع الحيوان ، وبها أنزل كتبه ، وبها أرسل رسله ، وبها جمعت العلوم وحفظت ، وبها انتظمت مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وبها يتميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، وبها جمعت أشتات العلوم ، وبها أمكن تنقلها فى الأذهان ، وكم جاب بها من نعمة ودفع بها من نقمة ؟ وأقيلت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة ، وهدى بها من ضلالة وأقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل ؟ فآياته سبحانه فى تعليم البيان كآياته فى خلق الانسان . ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب . فسبحان من هذا صنعه فى هواء يخرج

من قصبة الرئة . فينضم فى الحلقوم وينفرش فى أقصى الحلق ، ووسطه ، وآخره ، وأعلاه ، وأسفله ، وعلى وسط اللسان واطرافه وبين الثنايا ، وفى الشفتين ، والخيشوم . فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له . فاذا هو حرف

فألهم سبحانه الانسان بضم بعضها الى بعض فاذا هى كلمات قائمة بأنفسها ، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها الى بعض واذا هى كلام دال على أنواع المعانى . أمرا ونهيا ، وخبرا ، واستخبارا ونفيا ، واثباتا ، واقرارا ، وانكارا ، وتصديقا ، وتكذيبا ، وايجابا واستحبابا ، وسؤالا ، وجوابا ، الى غير ذلك من أنواع الخطاب ، نظمه ونثره ، ووجيزه ، ومطوله ، على اختلاف لغات الخلائق . كل ذلك صنعته تبارك وتعالى فى هواء مجرد خارج من باطن الانسان الى ظاهره ، فى مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله ، ثم تأليفه وتوصيله ، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين ، فهذا شأن الحرف المخلوق

وأما الحرف الذى به تكون المخلوقات فشأنه أعلى وأجل . واذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور ، كما افتتحت بالاقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية . فهى دالة على كمال قدرته سبحانه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال رحمته ، وعنايته بخلقه ، ولطفه واحسانه . واذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدلت بها على المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر ، والتوحيد

والرسالة . فهى من أظهر أدلة شهادة ان لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن القرآن كلام الله ، تكلم به حقا وأنزله على رسوله وحيا ، وبلغه كما أوحى اليه صدقا . ولا تهمل الفكرة فى كل سورة افتتحت بهذه الحروف . واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها . وبالله التوفيق

(٤٣) فصل

ثم أقسم سبحانه بـ(١:٦٨ القَلَمِ وما يَسطرون) . فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذى هو احدى آياته وأول مخلوقاته الذى جرى به قدره وشرعه . وكتب به الوحى ، وقيد به الدين . وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم ، وقامت به مصالح العباد فى المعاش والمعاد فوطدت به الممالك ، وأمنت به السبل والمسالك . وأقام فى الناس أبلغ خطيب وأفصحه ، وأنفعه لهم وأنصحه ، وواعظا تشفى مواعظه القلوب من السقم ، وطبيبا يبرىء باذنه من أنواع الألم : يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد . وبالاقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك : والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الاسماع ، فينسج حلل المعانى فى الطرفين فتعود أحسن من الوشى المرقوم . ويودعها حكمة فتصير بوادر الفهوم ، والأقلام نظام للافهام ، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد

اللسان ، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان ، كتولد الحروف المكتوبة عن القلم ، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت

(٤٣) فصل

والأقلام متفاوتة فى الرتب ، فاعلاها وأجلها قدرا قلم القدر السابق الذى كتب الله به مقادير الخلائق . كما فى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أول ماخلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يارب ، وما اكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة » واختلف العلماء ، هل القلم أو المخلوقات أو العرش ؟ على قولين ، ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمدانى ، أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت فى الصحيح من حديث عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام ، وعرشه على الماء » فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش ، والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا

ولا يخلو قوله « إن أول ماخلق الله القلم » الى آخره ، اما أن يكون جملة أو جملتين ، فان كان جملة ـ وهو الصحيح ـ كان

بمعناه أنه عند أول خلقه قال له : اكتب ، كما فى لفظ « أول ما خلق الله القلم قال له اكتب » بنصب أول ، والقلم . فان كانا جملتين وهو مروى برفع أول والقلم ، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، ليتفق الحديثان ، اذ حديث عبد الله بن عمر صريح فى أن العرش سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم . وفى اللفظ الآخر « لما خلق الله القلم قال له اكتب »

فهذا القلم أول الأقلام ، وأفضلها ، وأجلها ، وقد قال غير واحد من أهل التفسير انه القلم الذى اقسم الله به

(٤٤) فصل

القلم الثانى قلم الوحى ، وهو الذى يكتب به وحى الله الى أنبيائه ورسله . وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم ، والعالم خدم لهم . واليهم الحل والعقد . والاقلام كلها خدم لاقلامهم وقد رفع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الأسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام : فهذه الأقلام هى التى تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التى يدبربها أمر العالم العلوى والسفلى

(٤٥) فصل

والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله ، وهو قلم الفقهاء والمفتين . وهذا القلم أيضا حاكم غير محكوم عليه . فاليه التحاكم

فى الدماء ، والأموال ، والفروج ، والحقوق ، وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذى حكم به بين عباده ، وأصحابه حكام وملوك على أرباب الاقلام ، وأقلام العالم خدم لهذا القلم

(٤٦) فصل

القلم الرابع قلم طب الأبدان التى تحفظ بها صحتها الموجودة ، وترد إليها صحتها المفقودة ، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها . وهذا القلم أنفع الاقلام بعد قلم طب الأديان . وحاجة الناس الى أهله تلتحق بالضرورة

(٤٧) فصل

القلم الخامس قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وسياس الملك . ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام ، والمشاركون للملوك فى تدبير الدول . فأن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وان فسدت اقلامهم فسدت المملكة ، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم

(٤٨) فصل

القلم السادس قلم الحساب ، وهو القلم الذى تضبط به الأموال ، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها ، وهو قلم الارزاق ، وهو قلم الكَمّ المتصل والمنفصل ، الذى تضبط به المقادير وما بينها من

التفاوت والتناسب ، ومبناه على الصدق والعدل . فاذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة

(٤٩) فصل

القلم السابع قلم الحكم الذى تثبت به الحقوق ، وتنفذ به القضايا ، وتراق به الدماء ، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد الى اليد المحقة ويُبت به الانسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص : فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته ، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه

(٥٠) فصل

القلم الثامن قلم الشهادة ، وهو القلم الذى تحفظ به الحقوق ، وتصان عن الاضاعة ، وتحول بين الفاجر وانكاره ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحق بحقه ، وعلى المبطل بباطله . وهو الأمين على الدماء ، والفروج ، والأموال ، والأنساب ، والحقوق ، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد ، وباستقامته يستقيم أمر العالم ، ومبناه على العلم وعدم الكتمان

(٥١) فصل

القلم التاسع قلم التعبير ، وهو كاتب وحى المنام ، وتفسيره ،

وتعبيره ، وما أريد منه . وهو قلم شريف جليل مترجم للوحى المنامى ، كاشف له ، وهو من الاقلام التى تصلح للدنيا والدين ، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته ، وأمانته ، وتحريه للصدق ، والطرائق الحميدة ، والمناهج السديدة . مع علم راسخ . وصفاء باطن . وحس مؤيد بالنور الالهى ، ومعرفة بأحوال الخلق وهيآتهم وسيرهم وهو من ألطف الاقلام، وأعمها جولانا . وأوسعها تصرفا ، وأشدها تشبثاً بسائر الموجودات : علويها وسفليها . وبالماضى والحال والمستقبل ، فتصرف هذا القلم فى المنام هو محل ولايته وكرسى مملكته وسلطانه

فصل (٥٢)

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه . وهو القلم الذى تضبط به الحوادث وتنقل من أمة الى أمة ، ومن قرن الى قرن ، فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه فى الخيال ، وينقشه فى النفس ، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده . فهو قلم المعاد الروحانى ، وهذا القلم قلم العجائب فانه يعيد لك العالم فى صورة الخيال فتراه بقلبك ، وتشاهده ببصيرتك

فصل (٥٣)

القلم الحادى عشر قلم اللغة ، وتفاصيلها من شرح معانى ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، وما يتبع ذلك من أحوالها

ووجوهها . وأنواع دلالتها على المعانى ، وكيفية الدلالة . وهو قلم التعبير عن المعانى باختيار أحسن الالفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها . وهذا القلم واسع التصرف جدا بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها

(٥٤) فصل

القلم الثانى عشر القلم الجامع ، وهو قلم الرد على المبطلين ، ورفع سنة المحقين . وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وبيان تناقضهم ، وتهافتهم ، وخروجهم عن الحق ، ودخولهم فى الباطل . وهذا القلم فى الأقلام نظير الملوك فى الأنام ، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل ، المحاربون لأعدائهم . وهم الداعون الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال . وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل ، وعدو لكل مخالف للرسل . فهم فى شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام فى شأن

فهذه الأقلام التى فيها انتظام مصالح العالم ، ويكفى فى جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به ، وأن الله سبحانه أقسم به فى كتابه ، وتعرف الى غيره بأن علم بالقلم ، وانما وصل إلينا ما بعث به نبينا صلى الله عليه وسلم بواسطة القلم . ولقد أبدع أبو تمام ، إذ يقول فى وصفه :

لكَ القلمُ الأعلى الذى بشباته * يصاب من الامر الكلى والمفاصل
له ريقة طل ، ولكن وقعها * بآثاره فى الغرب والشرق وابل
لُعاب الأفاعى القاتلات لعابه * وأرى الجنا اشتارته أيد عواسل
له الخلوات اللاء لولا نجيُّها * لما احتفلتْ للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب * وأعجم ان خاطبته وهو راجل
اذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت * عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوّضت * لنجواه - تقويض الخيام - الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكىّ وأقبلت * أعاليه فى القِرطاس وهى أسافل
وَقَدْ رَفَدَتْهُ الخنصران وسدّدت * ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف * ضنا وسمينا خطبه وهو ناحل

(٥٥) فصل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه . وهو قوله تعالى (٦٨ : ٢ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالا عليه أظهر دلالة وأبينها ، فان ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التى يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا من عقل وافر . فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذى هو فى أعلى درجات العلوم ؟ بل العلوم التى تضمنها ليس فى قوى البشر الاتيان بها ، ولا سيما من أمى لا يقرأ كتابا ولا يخط بيمينه ، مع

كونه فى أعلى أنواع الفصاحة ، سليما من الاختلاف ، بريا من التناقض ، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا فى صعيد واحد أن يأتوا بمثله ، ولو كانوا فى عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ماعسى كثير من الحيوان أن يميزه ، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الافك

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة ، ولو أن رجلا أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر ، متساوية الأجزاء يصدق بعضها بعضاً ، أو قال قصيدة كذلك ، أو صنف كتاباً كذلك ، لشهد له العقلاء بالعقل . ولما استجاز أحدٌ رميه بالجنون مع امكان - بل وقوع - معارضتها ومشاكلتها والاتيان بمثلها أو أحسن منها ، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ، وعرفهم من الحق مالا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء ، وخضعت له ألباب الأولياء ، وتلاشت فى جنب ماجاء به بحيث لم يسعها الا التسليم له والانقياد والاذعان ، طائعة مختارة ، وهى ترى عقولها أشد فقراً وحاجة الى ماجاء به ، ولا كمال لها الا بما جاء به ؟ . فهو الذى كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدى . ولهذا فان أتباعه أعقل الخلق على الاطلاق . وهذه مؤلفاتهم وكتبهم فى الفنون اذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها . ويكفى فى عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب

بالايمان والتقوى . فكيف يكون متبوعهم مجنونا وهذا حال كتابه وهديه ، وسيرته ، وحال اتباعه ؟ وهذا انما حصل له ولاتباعه بنعمة الله عليه وعليهم . فنفى عنه الجنون بنعمته عليه

وقد اختلف فى تقدير الآية . فقالت فرقـــة : الباء فى (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) باء القسم ، فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه ، كما يقول : ما أنت بالله بكاذب . وهذا التقدير ضعيف جداً ، لأنه قد تقدم القسم الأول ، فكيف يقع القسم الثانى فى جوابه ؟ ولا يحسن أن تقول : والله ما أنت بالله بقائم ، وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد فى كلامهم . وقالت فرقة : العامل فى (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) أداة معنى النفى ، أو معنى أنفى عنك الجنون بنعمة ربك . ورد أبو عمر بن الحاجب وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها ، وانما تعمل ألفاظها . وقال الزمخشرى يتعلق (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) منفيا كما يتعلق بعاقل مثبتا ، فى قولك : أنت بنعمة الله عاقل ، يستويان فى ذلك الاثبات والنفى استواءهما فى قولك ضرب زيد عمرا ، وماضرب زيد عمراء يعمل الفعل مثبتا ومنفيا إعمالا واحدا ، ومحله النصب على الحال ، أى ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك . ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ، لانها زائدة لتأكيد النفى

واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط على محكوم به وله معمول فانه يجوز فيه وجهان : أحدهما نفى ذلك المعمول فقط ، نحو قولك :

مازيد بذاهب مسرعا ، فانه ينتفى الاسراع دون القيام . ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب فى غير اسراع . والثانى ينفى المحكوم به ، فينتفى معموله بانتفائه ، فينتفى الذهاب فى هذه الحال ، فينتفى الاسراع بانتفائه. فاذاجعل(بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)معمولا لمجنون لزم أحدالأمرين . وكلاهما منتف جزما

وهذا الاعتراض هنا فاسد ، لأن المعنى اذا حصل ماأنت بمجنون منعماعليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعا . ولا يصح نفى المعمول وثبوت العامل فى هذا الكلام ، ولا يفهم منه من له آلة الفهم ، وانما يفهم الآدمى من هذا الكلام ان الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك ، وانتفى عنا مافهمه هذا المعترض بنعمةالله علينا ثم أخبر سبحانه عن كمال حالتى نبيه صلى الله عليه وسلم فى دنياه وأخراه فقال (٦٨ : ٣ وإِنَّ لَكَ لأَجْراً غيرَ مَمْنُونٍ) أى غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر . ونكر الأجر تنكير تعظيم ، كما قال (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبرَةً) و (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً) و (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى) و (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً) و (وإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مآبٍ) وهو كثير . وانما كان التنكير للتعظيم لانه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ، ولا يناله التعبير ثم قال (٦٨ : ٤ وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته ، لمن منحه الله فهما . ولقد سئلت أم المؤمنين (١) عن

---

(١) هى عائشة رضى الله عنها سألها سعد بن هشام بن عامر عن وتر

خلقه صلى الله عليه وسلم ، فأجابت بما شفى وكفى ، فقالت : كان خلقه القرآن . فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئا بعد ذلك . ومن هذا قال ابن عباس وغيره : أى على دين عظيم ، وسمى الدين خلُقا ، لان الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة ، وارادات زاكية ، وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة ، والمصلحة ، وأقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والارادات ، فتكتسب النفس بها أخلاقا ، هى أزكى الأخلاق ، وأشرفها ، وأفضلها . فهذه كانت أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم المقتبسة من مشكاة القرآن . فكان كلامه مطابقا للقرآن تفصيلا له ، وتبيينا ، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب اليه القرآن ، واعراضه وتركه لما منع منه القرآن ، ورغبته فيما رغب فيه ، وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبته لما أحبه ، وسعيه فى تنفيذ أوامره ، وتبلغيه ، والجهاد فى إقامته ، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : كان خلقه القرآن . وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى ، فاكتفى به واشتفى

فاذا كانت أخلاق العباد ، وعلومهم ، واراداتهم ، وأعمالهم مستفادة من القلم ومايسطرون . وكان فى خلق القلم والكتابة

النبي صلى الله عليه وسلم وعن خلقه . وحديثها أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى وهو فى المنتقى رقم (١٢٠٢)

إنعام عليهم وإحسان اليهم ، إذ وصلوا به إلى ذلك ، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذى أعطاه أعلى الاخلاق ، وأفضل العلوم ، والاعمال ، والارادات ، التى لاتهتدى العقول الى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة ؟ فهل هذا الاَّ من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته ؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون ، هو أم هم ؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك فى الدنيا ، ويزداد علمهم فى البرزخ ، وينكشف ، ويظهر كل الظهور فى الآخرة ، بحيث تتساوى أقدام الخلائق فى العلم به

وقد اختلف فى تقدير قوله (بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) فقال أبو عثمان المازنى : هو كلام مستأنف ، والمفتون عنده مصدر ، أى : بأيكم الفتنة . والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعا ، فتعين حصوله للآخر . والجمهور على خلاف هذا التقدير . وهو عندهم متصل بماقبله ، ثم لهم فيه أربعة أوجه :

﴿ أحدها ﴾ أن الباء زائدة ، والمعنى : أيكم المفتون . وزيدت فى المبتدأ كما زيدت فى قولك : بحسبك أن تفعل . قاله أبو عبيد

﴿ الثانى ﴾ أن المفتون بمعنى الفتنة ، أى : ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة . والباء على هذا ليست بزائدة . قاله الاخفش

﴿ الثالث ﴾ أن المفتون مفعول على بابه ، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره بأيكم فتون المفتون ، وليست الباء زائدة . قاله الاخفش أيضاً

﴿الرابع﴾ أن الباء بمعنى فى ، والتقدير فى أى فريق منكم النوع المفتون ، والباء على هذا ظرفية . وهذه الاقوال كلها تكلف ظاهر لاحاجة الى شيء منه . و(سَتُبْصِرُ) مضمن معنى تشعر وتعلم ، فعدى بالباء كما تقول : ستشعر بكذا وتعلم به . قال تعالى (٩٦ : ١٤ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى) وإذا دعاك اللفظ الى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك اليه من مكان بعيد

(٥٦) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٥٦ : ٧٥ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ٧٦ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٧ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٨ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ٧٩ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٨٠ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى ، وأقسام الخلق فيها ، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى . واخراج النبات من الأرض ، وانزال الماء من السماء . وخلق النار . ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس فى القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن . وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن ، وأنه تنزيله

وقد اختلف فى النجوم التى أقسم بمواقعها ، فقيل : هى آيات القرآن ، ومواقعها نزولها شيئاً بعد شيء . وهذا قول ابن عباس رضى

الله عنهما ، فى رواية عطاء ، وقول سعيد بن جبير ، والكلبى ، ومقاتل، وقتادة . وقيل : النجوم هى الكواكب . ومواقعها مساقطها عند غروبها . هذا قول أبى عبيدة وغيره . وقيل : مواقعها انتشارها وانكدارها يوم القيامة . وهذا قول الحسن . ومن حجة هذا القول أن لفظ مواقع تقتضيه ، فانه مفاعل من الوقوع ، وهو السقوط . فلكل نجم موقع وجمعها مواقع . ومن حجة قول من قال هى مساقطها عند الغروب ، ان الرب تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها . اذ فيها وفى أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما تقدم فى قوله تعالى (٨١: ١٥ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ١٦ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) وقال (٥٣: ١ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) وقال (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) ويرجح هذا القول أيضاً أن النجوم حيث وقعت فى القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله تعالى (٥٢ : ٤٩ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) وقوله (٧ : ٥٤ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ)

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم فى القسم ، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه : ﴿ احدها ﴾ ، أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الجهل والغى . فتلك هداية فى الظلمات الحسية ، وآيات القرآن فى الظلمات المعنوية ، فجمع بين الهدايتين ، مع مافى النجوم من الرجوم للشياطين ، وفى آيات القرآن من رجوم شياطين الانس.

والجن ، والنجوم آياته المشهودة المعاينة . والقرآن آياته المتلوة السمعية ، مع مافى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول

ومن قرأ (بِمَوْقِعِ النُّجُومِ) على الأفراد ، فلدلالة الواحد المضاف الى الجمع على التعدد ، والموقع اسم جنس ، والمصادر اذا اختلفت جمعت ، واذا كان النوع واحدا أفردت ، قال تعالى (٣١ : ١٩ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) فجمع الأصوات لتعدد النوع ، وأفرد صوت الحمير لوحدته . فافراد موقع النجوم لوحدة المضاف اليه . وتعدد المواقع لتعدده ، اذ لكل نجم موقع

فصل (٥٧)

والمقسم عليه ههنا قوله (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله : (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف فى جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى (لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) فجاء هذا الاعتراض فى ضمن هذا الاعتراض ، ألطف شىء وأحسنه موقعا . وأحسن مايقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيدا أو تنبيها أو احترازا . كقوله تعالى (٧ : ٤٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله :

(لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم : أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات ، فرفع ذلك بقوله (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وهذا أحسن من قول من قال : انه خبر عن الذين آمنوا ، ثم أخبر عنهم بخبر آخر . فهما خبران عن مخبر واحد . فانَّ عدم التكليف فوق الوسع لايخص الذين آمنوا ، بل هو حكم شامل لجميع الخلق ، مع ما فى هذا التقدير من اخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أى نفسا منهم . وتعطيل هذه الفائدة الجليلة

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى (١٦ : ٥٧ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) فاعترض بقوله (سبحانه) بين الجعلين ، وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام ، من قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد ، وتعظيم المقسم به والمخبر عنه ، ورفع توهم خلاف المراد ، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك

فمن الاعتراض الذى يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر :

لو ان الباخلين — وأنت منهم — * رأوك تعلموا منك المطالا

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر :

فلا هجره يبدو — وفى اليأس راحة — * ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

فقوله : وفى اليأس راحة جواب لتقدير سؤال سائل وما يغنى

عنك هجره ؟ فقال : وفى اليأس راحة ، أى المطلوب أحد أمرين : إما يأس مريح . أو وصال صاف

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدى :

ألا زعمت بنو جُعد بأنى * ـ وقد كذبوا ـ كبير السن فانى

ومنه قول نصيب :

فكدت ـ ولم أخلق من الطير ـ إن بدا * سنا بارق نحو الحجاز أطير

فقوله : ولما أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الانكار لو قال فكدت أطير فيقال له : وهل خلقت من الطير ؟ فاحترز بهذا الاعتراض . وعندى أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا ، وهو قوة شوقه ونزوعه الى أرض الحجاز ، فأخبر أنه كاد يطير على أنه أبعد شىء من الطيران ، فانه لم يخلق من الطير ، ولا عجب طيران من خلق من الطير ، وانما العجب طيران من لم يخلق من الطير ، لشدة نزوعه وشوقه الى جهة محبوبه فتأمله

ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر :

قد كنت أبكى وأنت راضية * حذار هذا الصدود والغضب

ان تم ذا الهجر يا ظَلومُ ـ ولا * تمَّ ـ فمالى فى العيش من أرب

وقول الآخر :

ان سُليمَى والله يكلؤها * ضنت بشىء ما كان يَرْزَؤهَا

وقول الآخر

إن الثمانين ــ وبلغتها ــ قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ومنه الاعتراض بالقسم ، كقوله :

ذاك الذي ــ وأبيك ــ يعرف مالكا والحق يدفع ترهات الباطل

ومن اعتراض الاستعطاف قوله :

فمن لي بالعين التي كنت مرة إليّ بها ــ نفسي فداؤك ــ تنظر

فاعترض بقوله : نفسي فداؤك ، استعطافا

فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى (١٦ : ١٠١) وإذا بدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ ــ والله أعلمُ بما يُنزِّلُ ــ قالوا إنما أنتَ مفترٍ) فقوله (والله أعلمُ بما ينزِّلُ) اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أمورا : منها الجواب عن سؤال سائل : ماحكمة هذا التبديل وما فائدته . ومنها أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الاخبار بقولهم . ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى وأن كلا منهما منزل فيجب التسليم والايمان بالأول والثاني

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى (٣١ : ١٤ ووصّينا الإنسانَ بوالديهِ ــ حملتْهُ أمُّهُ وهنًا على وهنٍ وفصالهُ في عامينِ ــ أنِ اشكرْ لي ولوالديكَ) فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به ، توكيداً لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها ، وتذكيرا لولدها بحقها ، وماقاسته من حمله ووضعه

عالم يتكلفه الأب . ومنه قوله تعالى (٢ : ٧٢ وإذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فادَّارَأْتُمْ فِيهَا واللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٣ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) فاعترض بقوله : (واللهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُون) بين الجمل المعطوف بعضها على بعض ، إعلاما بأن تدارؤهم وتدافعهم فى شأن القتيل ليس نافعالهم فى كتمانه . فالله يظهره ولا بد . ولا تستطل هذا الفصل وأمثاله ؛ فانه يعطيك ميزانا . وينهج لك طريقاً يعينك على فهم الكتاب ، والله المستعان

(٥٨) فصل

ثم قال : (إنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ) فوصفه بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ، ومنافعه ، وجلالته ؛ فان الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم النفع ، وهو من كل شىء أحسنه وأفضله . والله سبحانه وصف نفسه بالكرم . ووصف به كلامه . ووصف به عرشه . ووصف به ما كثر خيره . وحسن منظره : من النبات ، وغيره ، ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبى : انه لقرآن كريم . أى حسن كريم على الله وقال مقاتل : كرمه الله وأعزه ؛ لانه كلامه . وقال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد . والله كريم جميل الفعال . وانه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة . وبالجملة فالكريم الذى من شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة ويسر . وضده اللئيم الذى لا يخرج خيره النزر الا بعسر وصعوبة . وكذلك الكريم فى الناس واللئيم

(٥٩) فصل

ثم قال تعالى : (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) اختلف المفسرون في هذا : فقيل : هو اللوح المحفوظ. والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله : (٨٠ : ١٣ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ١٤ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ١٥ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٦ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) ويدل على انه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه . وهذا هو الصحيح في معنى الآية ، ومن المفسرين من قال : ان المراد به أن المصحف لا يمسه الا طاهر

والأول أرجح لوجوه :

﴿ أحدها ﴾ أن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين ، وأن محله لا يصل اليه فيمسه الا المطهرون ، فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا اليه أو يمسوه ، كما قال تعالى (٢٦: ٢١٠ وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١١ وما يَنْبَغِي لَهُمْ وما يَسْتَطِيعُونَ) فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ، ولا يقدرون عليه . فان الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه ، وقد يليق بمن لا يقدر عليه . فنفى عنهم الأمور الثلاثة ، وكذلك قوله في سورة عبس (١٣ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ١٤ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ١٥ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٦ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) فوصف محله بهذه الصفات بيانا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به . وتقرير هذا المعنى

اهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر

﴿ الوجه الثانى ﴾ ان السورة مكية ، والاعتناء فى السور المكية إنما هو بأصول الدين ، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة . وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية

﴿ الثالث ﴾ ان القرآن لم يكن فى مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا فى حياة رسول الله ﷺ . وإنما جمع فى المصحف فى خلافة أبى بكر . وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتى فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الأخبار يوضحه

﴿ الوجه الرابع ﴾ وهو قوله : (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) والمكنون المصون المستور عن الأعين الذى لا تناله أيدى البشر . كما قال تعالى : (٣٧ : ٤٩ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) وهكذا قال السلف . قال الكلبى : مكنون من الشياطين . وقال مقاتل : مستور وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار . وقال أبو اسحق : مصون فى السماء يوضحه .

﴿ الوجه الخامس ﴾ أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً فقوله (قُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) كقوله (٨٥ : ٢٠ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) يوضحه

﴿ الوجه السادس ﴾ ان هذا أبلغ فى الرد على المكذبين ، وأبلغ فى تعظيم القرآن ، من كون المصحف لا يمسه محدث

﴿ الوجه السابع ﴾ قوله : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) بالرفع فهذا خبر لفظاً ومعنى . ولو كان نهياً لكان مفتوحا . ومن حمل الآية على النهى احتاج الى صرف الخبر عن ظاهره ، الى معنى النهى . والأصل فى

الخبر والنهى حمل كل منهما على حقيقته. وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر الى النهى

﴿الوجه الثامن﴾ أنه قال: (إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ) ولم يقل إلا المتطهرون. ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون. كما قال تعالى (٢ : ٢٢٢ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) وفى الحديث « اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين (١) » فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذى طهره غيره. فالمتوضىء متطهر، والملائكة مطهرون

﴿الوجه التاسع﴾ انه لو أريد به المصحف الذى بأيدينا لم يكن فى الاخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنوناً فى كتاب، لايستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً فى كتاب، وهذا أمر مشترك، والآية انما سيقت لبيان مدحه وتشريفه، وما اختص به من الخصائص، التى تدل على انه منزل من عند الله، وأنه محفوظ مصون، لايصل اليه شيطان

---

(١) رواه الترمذى عن أبى ادريس الخولانى عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال : أشهد أن لااله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين. فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيهما شاء » قال الترمذى : وهذا حديث فى اسناده اضطراب . ولا يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب كثير شىء . قال البخارى : أبو ادريس لم يسمع من عمر شيئاً اه

بوجه ما . ولا يمس محله الا المطهرون ، وهم السفرة الكرام البررة

﴿ الوجه العاشر ﴾ ما رواه سعيد بن منصور فى سننه حدثنا أبو الأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك فى قوله : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) قال : المطهرون الملائكة . وهذا عند طائفة من أهل الحديث فى حكم المرفوع . قال الحاكم : تفسير الصحابة عندنا فى حكم المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعا فلا ريب انه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة . والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن . ويجب الرجوع الى تفسيرهم . وقال حرب فى مسائله : سمعت اسحق فى قوله : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) قال : النسخة التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون . قال : الملائكة

وسمعت شيخ الاسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر فقال : هذا من باب التنبيه والاشارة ، اذا كانت الصحف التى فى السماء لا يمسها الا المطهرون ، فكذلك الصحف التى بأيدينا من القرآن لا ينبغى أن يمسها الا طاهر . والحديث مشتق من هذه الآية . وقوله « لَا تَمَسَّ القرآنَ إلا وأنت طاهر » رواه أهل السنن من حديث الزهرى عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده : أن فى الكتاب الذى كتبه النبي صلى الله عليه وسلم الى أهل اليمن فى السُّنَن ، والفرائض ، والدِّيات (أن لا يَمَسَّ القرآن الا طاهر) قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحا . وقال أيضا :

لاأشك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه . وقال أبو عمر بن عبدالبر : هو كتاب مشهور عندأهل السير ، معروف عند أهل العلم . معرفة يستغنى بشهرتها عن الاسناد . لأنه أشبه التواتر فى مجيئه ، لتلق الناس له بالقبول والمعرفة . ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فتفق عليه الا قليلا . وقد رواه ابن حبان فى صحيحه، ومالك فى موطئه . وفى المسئلة آثار أخر مذكورة فى غير هذا الموضع

(٦٠) فصل

ودلت الآية باشارتها وايمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه الا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغى . قال البخارى فى صحيحه فى هذه الآية : لايجد طعمه الامن آمن به . وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيها ، وهو أنه لايلتذ به وبقراءته ، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله ، تكلم بها حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً ولا ينال معانيه الا من لم يكن فى قلبه حرج منه بوجه من الوجوه . فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففى قلبه منه حرج . ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ، ففى قلبه منه حرج . ومن قال : ان له باطناً يخالف ظاهره ،وان له تأويلا يخالف مايفهم منه، ففى قلبه منه حرج . ومن قال : ان له تأويلا لانفهمه ولانعلمه ، وانما نتلوه متعبدين بألفاظه ، ففى قلبه منه حرج

ومن سلط عليه آل الآرائيين ، وهذيان المتكلمين ، وسفسطة المسفسطين . وخيالات المتصوفين : ففى قلبه منه حرج . ومن جعله تابعاً لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، فى قلبه منه حرج ، ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً فى أصول الدين وفروعه ، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففى قلبه منه حرج . ومن لم يأتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهى وخبر خالفه ، ففى قلبه منه حرج . وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغى أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم

وأنت إذا تأملت قوله ﴿ لا يمسه الا المطهرون ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وايمائه وإشارته وتنبيهه . وقياس الشىء على نظيره ، واعتباره بمشاكله . وتأملت المشابهة التى عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن ـ فهمت هذه المعانى كلها من الآية ، وبالله التوفيق

فصل (٦١)

ثم أكد ذلك وقرره وأكده بقوله : (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وكما أنه لازم لكونه قرآنا كريما فى كتاب مكنون فهو ملزوم له .

فهو دليل عليه ومدلول له

وأفاد كونه تنزيلا من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل

﴿ أحدها ﴾ أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ وهو الذي تكلم به . ومن هنا قال السلف : منه بدأ . ونظيره (٣٢ : ١٣ ولَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) وقوله : (١٦ : ١٠٢ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ)

﴿ والثاني ﴾ علو الله سبحانه فوق خلقه ، فان النزول والتنزيل الذي تعقله العقول ، وتعرفه الفطر ـ هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل . والرب تعالى انما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم . وذكر التنزيل مضافا الى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، واحسانه وانعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدًى ، ويدعهم هَملا ، ويخلقهم عبثا ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم . فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله ، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله ، وصحة ما جاء به . وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق ، وان كانت دلالتها أقرب الى أذهان عموم الناس ، وتلك انما تكون لخواص العقلاء .

وقد أشار سبحانه الى الطريقين في غير موضع من كتابه . كقوله (٤١ : ٥٣ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة . ثم قال : (أَوَلَمْ

يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فهذا استدلال بكمال ربوبيته وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به . وهذه الطريق أخص وأقوى وأكمل وأعلى . والأول أعم وأشمل . وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ) وأين الاستدلال بأوصاف الرب تعالى وكماله المقدس على ثبوت النبي وبعثه ، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته ؟

وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة رضى الله عنها بصفات الرب تعالى وصفات محمد صلى الله عليه وسلم واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته ، وأنه رسول الله حقا . وأن من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأبى أن يخزيه ، وأنه يؤيده ، ويعليه ، ويتم نعمته عليه (١)

وأنت اذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق مالا يخفى واذا حصل للعبد الفقه فى الاسماء والصفات انتفع به فى باب معرفة الحق والباطل من

(١) روى البخارى فى بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها : فرجع بها صلى الله عليه وسلم يرجف . فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة — وأخبرها الخبر — « لقد خشيت على نفسى » فقالت : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

الأقوال ، والطرائق والمذاهب والعقائد ـ أعظم انتفاع ، وأتمه ؛ وقد بينا فى كتابنا المعالم (١) بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوية من أسماء الرب وصفاته ، وأنه يستحيل على الحكيم ان يحرم الشىء ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات ، ثم يبيح التوصل اليه بنفسه بأنواع التحيلات . فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل اليه بالطريق البعيد ، اذليست حكمة الرب تعالى وكمال علمه وأسمائه وصفاته ، تنتقض باحالة ذلك وامتناعه عليه . فهذا استدلال بالفقه الأكبر فى الأسماء والصفات على الفقه العملى فى باب الأمر والنهى . وهذا باب حرام على الجهمى المعطل أن يلجه الى الجنة ، حرام عليه ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين الف سنة . والله العزيز الوهاب لامانع لما أعطى ولامعطى لما منع ، وبه التوفيق

فصل (٦٢)

ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الادهان فى غير موضعه ، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به ويفرق به ويعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه لايمنة ولايسرة ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة الا اليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء

---

(١) كذا . ولعله كتاب اعلام الموقعين الذى لم يؤلف فى أصول الدين مثله ولم ينسج أحد على منواله

فى طرق المطالب العالية الا بنوره ، ولا شفاء الا به فهو روح الوجود وحياة العالم ، ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر ، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل لمداهنة ؟ وانما أنزل بالحق وللحق . والمداهنة انما تكون فى باطل قوى لا يمكن إزالته . أو فى حق ضعيف لا يمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل . فاما الحق الذى قام به كل حق فكيف يداهن به ؟

ثم قال سبحانه (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب انما هو بالرزق . فرزق البدن الطعام والشراب ، ورزق القلب الايمان والمعرفة بربه وفاطره ، ومحبته ، والشوق اليه ، والأنس بقربه ، والابتهاج بذكره . وكان لا حياة له الا بذلك ، كما أن البدن لا حياة له الا بالطعام والشراب — أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق . وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما . ثم فاوت سبحانه بينهم فى قسمة هذين الرزقين ، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته : فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما . ومنهم من قتر عليه فى الرزقين . ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب ، وبالعكس . وهذا الرزق انما يتم ويكمل بالشكر . والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه . وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد . فان الله تعالى تأذن أنه لابد أن يزيد الشكور من نعمه ولابد أن يسلبها من لم يشكرها . فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع

الشكر والايمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيبا . فان التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة ، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر فجعلوا رزقهم التكذيب. وهذا المعنى هو الذى حام حوله من قال : التقدير وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون . وقال آخرون : التقدير . وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون . فحذف مضافين معا . وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى . ومن بعض معنى الآية قوله : مطرنا بنوء كذا وكذا (١) فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها، والا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى . والله أعلم

(٦٣) فصل

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى ، كما ذكر فى أولها احوالهم فى القيامة الكبرى ، وقسمهم الى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك الى ثلاثة . وذكر بين يدى هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته ، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون ، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وارادته ، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم الى دفعه ولا انكاره فقال (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ) أى

---

(١) النوء : النجم مال للغروب ، أو سقوط النجم فى الغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله . وكانت العرب تقول : ان انتقال الكواكب هو المؤثر فى الامطار

وصلت الروح الى هذا الموضع ، بحيث فارقت ولم تفارق ، فهى برزخ بين الموت والحياة . كما أنها اذا فارقت صارت فى برزخ بين الدنيا والآخرة . ملائكة الرب تعالى أقرب الى المحتضر من حاضريه من الانس ، ولكنهم لا يبصرون بهم ، فلولا تردونها الى مكانها من البدن أيها الحاضرون . ان كان الامر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين ، ولا مستوعبين ليوم الحساب

فان قيل: أى ارتباط بين هذين الامرين حتى يلازم بينهما ؟

قيل : هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه ، فانهم اما أن يقروا بأنهم مربوبون مملوكون ، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم ، قاهر آمر ، ناه ، أو لا يقرون بذلك : فان أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه واجلاله ، وأن لا يجعلوا له ندا ، ولا شريكا وهذا هو الذى جاءهم به رسوله . ونزل عليه به كتابه . وان انكروا ذلك وقالوا انهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ، ولا مربوبين وان الامر اليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم . فان المتصرف فى نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك . بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له ، سواء الذى هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له . ومن اعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع ، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن ، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والالهية والاقرار بالعبودية ولله ما أحسن جزالة هذه الالفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب

البلاغة والفصاحة ، والاختصار التام ، وندائها الى معناها من أقرب مكان ، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والالزام ، ودلائل الربوبية والتوحيد ، والبعث ، وفصل النزاع فى معرفة الروح وأنها تصعد ، وتنزل ، وتنتقل من مكان الى مكان ، وما أحسن اعادة «لولا» ثانيا قبل ذكر الفعل الذى يقتضيه الاول . وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحدا . وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثانى ، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هى الرابط بين لولا الاولى والثانية ، والشرط الاول والثانى ، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه

فتضمنت الآيتان تقريرا وتوبيخا ، واستدلالا على أصول الايمان : من وجود الخالق سبحانه ، وكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وربوبيته ، وتصرفه فى أرواح عباده ، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء ، وأن أرواحهم بيده ، يذهب بها اذا شاء ، ويردها اليهم اذا شاء ، ويخلى أبدانهم منها تارة ، ويجمع بينها وبينهما تارة ، واثبات المعاد ، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه ، واثبات ملائكته ، وتقرير عبودية الخلق ، وأتى بهذا فى صورة تحضيضين ، وتوبيخين ، وتقريرين ، وجوابين ، وشرطين ، وجزاءين ـ منتظمة أحسن الانتظام ، ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً بعضها ببعض . وهذا كلام لا يقدر

البشر على مثل نظمه ومعناه قال الفراء : وأجيبت (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ) و(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) بجواب واحد وهو (تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) قال : ومثله قوله تعالى : (٢ : ٣٨ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أجيبا بجواب واحد وهما شرطان . قال الجرجانى : قوله (تَرْجِعُونَهَا) جواب قوله (فَلَوْلَا) المتقدمة والمتأخرة ، على تأويل : فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها الى موضعها ، ان كنتم غير محاسبين ولا مجزيين ، كما تزعمون ؟ يقول تعالى : ان كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ، ولا حساب ، ولا جزاء ، ولا إله ، ولا رب يقوم بذلك ، فهلا تردون نفس من يعز عليكم اذا بلغت الحلقوم ؟ فاذا لم يمكنكم فى ذلك حيلة بوجه من الوجوه ، فهل دلكم ذلك على أن الأمر الى مليك قادر قاهر ، متصرف فيكم ، وهو الله الذى لا إله إلا هو ؟ وقال أبو اسحق : معناه فهلا ترجعون الروح ، ان كنتم غير مملوكين مدبرين ؟ فهلا ان كان الأمر كما تزعمون فىَّ كما يقول قائلكم (٣ : ١٦٨ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا) و (٣ : ١٥٦ وَلَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) أى ان كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلا فهلا ترجعون الروح اذا بلغت الحلقوم ؟ وهلا تردون عن أنفسكم الموت

قلت : وكان هذا يلتفت الى قوله تعالى : (١٧ : ٥٠ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوحَدِيداً ٥١ أَوخَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) أى ان كنتم كما تزعمون لاتبعثون بعد الموت خلقاجديدا ، فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى ، اما من حجارة أومن حديد أوأ كبر من ذلك . ووجه الملازمة ماتقدم ذكره ، وهواماأن تقروابأن لكم ربآمتصرفا فيكم ، ومالكالكم ، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته ، يميتكم اذاشاء . ويحييكم اذا شاء . فكيف تنكرون قدرته على اعادتكم خلقا جديداً بعد ما أماتكم . وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك ، نافذ المشيئة فيكم ، والقدرة فيكم ، فكونوا خلقا لايقبل الفناء والموت فاذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقا يموت ، ويحيا ، أن يحييكم بعد ما أماتكم ؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقا لايموت . والذى فى الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح الى مكانها اذا قاربت الموت . وليس بعد هذا الاستدلال الا الاذعان والانقياد أوالكفر والعناد

(٦٤) فصل

فلما قام الدليل ، ووضح السبيل ، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون ، مجزيون محاسبون - ذكر طبقاتهم عندالحشر الأول ، والقيامة الصغرى ، وهى ثلاث طبقات : طبقة المقربين ، وطبقة أصحاب اليمين ، وطبقة المكذبين . فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان

والجنة . وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة: فالروح الفرح والسرور ، والابتهاج ولذة الروح ، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها ، وذلك قوتها وغذاؤها ، والريحان الرزق ، وهو الاكل والشرب ، والجنة المسكن الجامع لذلك كله . فيعطون هذه الثلاث في البرزخ ، وفي المعاد الثاني

ثم ذكر الطبقة الثانية ، وهي طبقة أصحاب اليمين . ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين فقال : (وأمَّا إنْ كانَ مِنْ أصْحابِ اليَمينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أصْحابِ اليَمينِ) والسلام مصدر من سلم ، أي فلك السلامة . والخطاب له نفسه . أي : يقال لك السلامة . كما يقال للقادم : لك الهناء ، ولك السلامة ، ولك البشرى ، ونحو ذلك من الألفاظ ، كما يقولون : خير مقدم ، ونحو ذلك ، فهذه تحية عند اللقاء ، قال مقاتل : يسلم الله لهم أمرهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويتقبل حسناتهم . وقال الكلبي : يسلم عليه أهل الجنة ، ويقولون : السلامة لك . وعلى هذا فقوله (مِنْ أصْحابِ اليَمينِ) أي : هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين ، فانه اذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية وقالوا السلامة لك وفي الآية أقوال أخر ، فيها تكلف وتعسف ، فلا حاجة الى ذكرها

ثم ذكر الطبقة الثالثة ، وهي طبقة الضَّالّ في نفسه ، المكذب

لاهل الحق ، وان له عند الموافاة نُزُل الحيم ، وسُكنى الجحيم . ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأى العين لمن آمن بالله ورسوله فقال (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم الى اليقين ، وعن درجة اليقين الى حقه

ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون

فصل (٦٥)

ومن ذلك قوله تعالى : (٣٥ : ١ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ٢ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ٣ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه اليه أعداؤه من الضلال والغى

واختلف الناس فى المراد بالنجم : فقال الكلبى ، عن ابن عباس : أقسم بالقرآن اذا نزل منجما على رسوله : أربع آيات ، وثلاثا ، والسورة وكان بين اوله وآخره عشرون سنة . وكذلك روى عطاء عنه وهو قول مقاتل ، والضحاك ، ومجاهد . واختاره الفراء . وعلى هذا فسمى القرآن نجما لتفرقه فى النزول . والعرب تسمى التفرق تنجما ، والمفرق نجما ، ونجوم الكتابة اقساطها ، ويقول : جعلت مالى على فلان نجوما منجمة كل نجم كذا وكذا

واصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها ، فيقولون : اذا طلع النجم - يريدون الثريا - حل عليك الدين . ومنه قول زهير ، فى دية جعلت نجوما على العاقل :

ينجمها قوم لقوم غرامة * ولم يهرقوا مابينهم ملء محجم

ثم جعل كل تنجم تفريقا وان لم يكن موقتا بطلوع نجم

وقوله (هَوَى) على هذا القول ، أى : نزل من علو الى سفل . قال أبو زيد : هوت العقاب تهوى هويا - بفتح الهاء - اذا انقضت على صيد أوْ غيره . وكذلك قال ابن الأعرابى . وفرق بين الهوى لقوله

* والدلو فى اصعادها عجل الهوى *

وقال الليث : العامة تقول الهوى - بالضم - فى مصدر هوى يهوى وكذلك قال الاصمعى : هوى يهوى هو بفتح الهاء ، اذا سقط إلى أسفل . قال : وكذلك الهوى فى السير اذا مضى

وههنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم اقبح غلط فذ كر فى السماء الرب تعالى الهوى بفتح الهاء واحتج بما فى الصحيح ، من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده « سبحان ربى الأعلى » الهوى . فظن أبو محمد : ان الهوى صفة للرب وهـذا من غلطه رحمه الله . وانما الهوى على وزن فعيل اسم لقطعة من الليل . يقال : مضى هوى من الليل ، على وزن فعيل . ومضى هزيع منه ، أى : طرف وجانب ، وكان يقول « سبحان

ربى الاعلى» فى قطعة من الليل وجانب منه. وقد صرحت بذلك فى اللفظ الآخر. فقالت: كان يقول « سبحان ربى الأعلى » الهوى من الليل

عدنا الى قوله (والنَّجْمِ إِذَا هَوَى) وقال ابن عباس ، فى رواية على بن أبى طلحة ، وعطية: يعنى الثريا إذا سقطت وغابت ، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد. والعرب إذا أطلقت النجم تعنى به الثريا. قال: فباتت تَعُدُّ النجم. وقال أبو حمزة اليمانى: يعنى النجوم إذا انتشرت يوم القيامة. وقال ابن عباس، فى رواية عكرمة: يعنى النجوم التى ترمى بها الشياطين إذا سقطت فى آثارها عند استراق السمع. وهذا قول الحسن. وهو أظهر الأقوال. ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التى نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحى من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق، لاسبيل للشيطان ولا طريق له اليه، بل قد أحرس بالنجم اذا هوى رَصَدا بين يدى الوحى ، وحرسا له وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه فى غاية الظهور. وفى المقسم به دليل على المقسم عليه

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ، ولا تسمية نزوله هَوِياً. ولا عُهِد فى القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه. وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها اذا غابت. وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته ، فلا يجعله نفسه دليلا

لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكروا البعث ، فانه سبحانه انما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه . فأظهر الأقوال قول الحسن ، والله أعلم

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى ، فان النجوم التى ترمى الشياطين آيات من آيات الله ، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله ، بها ظهر دينه وشرعه ، وأسماؤه ، وصفاته . وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهاوية . ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافى للهدى ، والغى المنافى للرشاد . ففى ضمن هذا النفى الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد . فالهدى فى علمه والرشاد فى عمله . وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد . وبهما سعادته وفلاحه . وبهما وصف النبي صلى الله عليه وسلم خلفاءه . فقال : « عليكم بسُنَّتي وَسُنَّةِ الخُلفاء الراشدين المهديين من بعدى (١) » فالراشد ضد الغاوى ، والمهدى ضد الضال ، وهو الذى زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو صاحب الهدى ودين الحق . ولا يشتبه الراشد المهدى بالضال الغاوى إلا على أجهل خلق الله ، وأعماهم قلبا ، وأبعدهم من حقيقة الانسانية . ولله در القائل :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره * إذا استوت عنده الأنوار والظلم

---

(١) هو من حديث العرباض بن سارية ، رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه . وقال الترمذى : حسن صحيح

فالناس أربعة أقسام: ضال فى علمه غاو فى قصده وعمله . وهؤلاء شرار الخلق ، وهم مخالفو الرسل .

﴿ الثانى ﴾ مهتد فى علمه غاو فى قصده وعمله . وهؤلاء هم الأمة الغضبية(١) ومن تشبه بهم ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به

﴿ الثالث ﴾ ضال فى علمه ، ولكن قصده الخير . وهو لا يشعر

﴿ الرابع ﴾ مهتد فى علمه راشد فى قصده . وهؤلاء ورثة الأنبياء . وهم وان كانوا الأقلين عددا فهم الأكثرون عند الله قدرا . وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه

وتأمل كيف قال سبحانه (مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ) ولم يقل ما ضل محمد . تأكيدا لاقامة الحجة عليهم ، بأنه صاحبهم ، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله ، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غىّ ، ولا ضلال ، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط . وقد نبه على هذا المعنى بقوله (٢٣ : ٦٩ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ) وبقوله (٨١ : ٢٢ وما صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)

(٦٦) فصل

ثم قال سبحانه (وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)

---

(١) وهى أمة اليهود . قال تعالى (٥ : ٥٩ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت)

ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى . وبهذا الكمال هداه ورشده وقال (وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى) ولم يقل وما ينطق بالهوى ، لأن نطقه عن الهوى أبلغ ، فانه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى ، واذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به . فتضمن نفى الأمرين . نفى الهوى عن مصدر النطق ، ونفيه عن النطق نفسه : فنطقه بالحق ، ومصدره الهدى والرشاد ، لا الغى والضلال

ثم قال (إنْ هُوَ إلاَّ وَحْىٌ يُوحَى) فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل ، أى ما نطقه الا وحى يوحى . وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً الى القرآن . فانه يعم نطقه بالقرآن والسنة ، وان كليهما وحى يوحى . وقد احتج الشافعى لذلك فقال : لعل من حجة من قال بهذا قوله (٤ : ١١٣ وأنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ) قال ولعل من حجته أن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى الزانى بامرأة الرجل الذى صالحه على الغَنَم والخادم «والذى نفسى بيده لأقضِيَنَّ بينكما بكتاب الله: الغنم والخادم رد عليك ـ الحديث(١)»

---

(١) روى احمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة ، وزيد بن خالد أنهما قالا : ان رجلا من الاعراب أتى رسول الله صلى صلى الله عليه وسلم . فقال : يارسول الله ، أنشدك الله الا قضيت لى بكتاب ألله . وقال الخصم الآخر ـ وهو أفقه منه ـ نعم فاقض بيننا بكتاب الله ، وائذن لى . فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم « قل »

وفى الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر : ليتنى أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه الوحى ، فلما كان بالجعرانة (١) سأله رجل ، فقال : كيف ترى فى رجل أحرم بعمرة فى جبته ، بعد ما تضمخ بالخلوق فنظر اليه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سكت ، فجاء الوحى ، فأشار عمر بيده إلى يعلى ، فجاء ، فأدخل رأسه ، فاذا النبي صلى الله عليه وسلم محرم يغط . ثم سُرّى عنه . فقال « أين السائل آنفا؟ » فجيء به ، فقال « انزع عنك الجبة ، واغسل أثر الطيب ، واصنع فى عمرتك ما تصنع فى حجك » وقال الشافعى : أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبى طاووس عن أبيه أن عنده كتابا نزل به الوحى ، وما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من صدقة وعقول (٢) فانما نزل به الوحى . وذكر الأوزاعى عن حسان

قال : ان ابنى كان عسيفا على هذا ، فزني بامرأته ، وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم ، وافتديت منه بمائة شاة و وليدة . فسألت أهل العلم ، فأخبرونى أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ـ الحديث ـ الى أن قال : وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . واغـد يا أنيس ـ لرجل من أسلم ـ على امرأة هذا : فان اعترفت فارجمها » قال : فغدا عليها ، فاعترفت فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمت

(١) مكان قريب من مكة نزله صلى الله عليه وسلم فى عودته من غزوة حنين ومنه أحرم ليعتمر في رجوعه الى المدينة العمرة الثالثة (٢) جمع عقل ، وهو الدية

ابن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه اياه . وذكر الأوزاعى أيضا عن أبى عبيد ، صاحب سليمان ، أخبرنى القاسم بن مخيمرة حدثنى ابن فضيلة قال: قيل لرسول الله صلى عليه وسلم : سعّر لنا . قال «لا تسألنى عن سنة أحدثها فيكم ، لم يأمرنى بها ولكن سلوا الله من فضله » وابن فضيلة هذا يسمى طلحة ، وقد صح عنه أنه قال « ألا إنى أوتيتُ الكتاب ومثله معه » وهذا هو السنة بلا شك . وقد قال تعالى (٤ : ١١٣ وأنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ) وهما القرآن والسنة . وبالله التوفيق

(٦٧) فصل

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحى والقرآن ، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية . فقال (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) وهذا نظير قوله (ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ) وذكرنا هناك السر فى وصفه بالقوة

وقوله (ذُو مِرَّةٍ) أى جميل المنظر حسن الصورة ، ذو جلالة . ليس شيطانا أقبح خلق الله وأشوههم صورة . بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله . وهذا تعديل لسند الوحى والنبوة ، وتزكية له . كما تقدم نظيره فى سورة التكوير . فوصفه بالعلم والقوة ، وجمال المنظر وجلاله . وهذه كانت أوصاف

الرسول البشرى والملكى . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشجع الناس ، وأعلمهم ، وأجملهم ، وأجلهم . والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك . فهم أقبح الخلق صورة ومعنى . وأجهل الخلق وأضعفهم هما ونفوسا

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى ، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيحاء الله ما أوحى . فصور سبحانه لأهل الايمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده ، إلى أن استوى بالأفق ، ثم دنى وتدلى ، وقرب من رسوله ، فأوحى اليه ماأمره الله بايحائه ، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطاً من السماء الى أن صار بالأفق الأعلى ، مستويا عليه ، ثم نزل وقرب من محمد صلى الله عليه وسلم وخاطبه بما أمره الله به ، قائلا : ربك يقول لك كذا وكذا . وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب ، بأنه قدر قَوْسين أو أدنىٰ من ذلك وليس هذا على وجه الشك بل تحقيق لقدر المسافة ، وأنها لاتزيد على قوسين ألبتة كما قال تعالى (٣٧ : ١٤٧ وأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) تحقيق لهذا العدد ، وأنهم لاينقصون عن مائة ألف رجل واحداً ونظيره قوله (٢ : ٧٤ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) أى لاتنقص قسوتها عن قسوة الحجارة ، بل ان لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها . وهذا

المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل « أو » فى هذه المواضع بمعنى بل ، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة الى الرأى وقول من جعلها بمعنى الواو . فتأمله انتهى

فصل (٦٨)

ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه ، وأن القلب صدق العين ، وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ماهو به ، فكذب فؤاده بصره ، بل ماراه ببصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك . وفيها قراءتان : إحداهما بتخفيف كذب ، والثانية بتشديدها . يقال كذبته عينه وكذبه قلبه وكذبه جسده ، اذا أخلف ماظنه وحدسه . قال الشاعر :

كذَبتك عينك ، أم رأيتَ بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

أى أرتك مالا حقيقة له ، فنفى هذا عن رسوله . وأخبره أن فؤاده لم يكذب ماراه ، و (ما) إما أن تكون مصدرية ، فيكون المعنى : ماكذب فؤاده رؤيته ، وإما أن تكون موصولة ، فيكون المعنى : ما كذب الفؤاد الذى رآه بعينه . وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر ، وتوافقهما ، وتصديق كل منهما لصاحبه . وهذا ظاهر جدا فى قراءة التشديد . وقد استشكلها طائفة منهم المبرد ، وقال : فى هذه القراءة بعد . قال : لأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه أيضا بقلبه ، وإذا وقع العلم فلا كذب معه . فانه إذا

كان الشيء في القلب معلوما ، فكيف يكون معه تكذيب ؟

قلت : وجواب هذا من وجهين ﴿ أحدهما ﴾ أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ماهو به فيكذبه قلبه ، إذ يريه صورة المعلوم على خلاف ماهي عليه ، كما تكذبه عينه ، فيقال : كذبه قلبه ، وكذبه ظنه ، وكذبته عينه . فنفى سبحانه ذلك عن رسوله ، وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه . كمن رأى الشيء على حقيقة ماهو به . فانه يصح أن يقال : لم تكذبه عينه

﴿الثاني﴾ أن يكون الضمير في (رأى) عائدا إلى الرأي لا إلى الفؤاد ويكون المعنى : ما كذب الفؤاد ما رآه البصر . وهذا بحمد الله لا إشكال فيه . والمعنى : ما كذب الفؤاد ما رآه البصر ، بل صدقه . وعلى القراءتين فالمعنى : ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير ، ولا اتهم بصره

ثم أنكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه ، كما ينكر على الجاهل مكابرته للعالم ومماراته له على ما علمه . وفيها قراءتان أفتمارُونه وأفتمرونه وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع ، يقول مَرَيتُ الرجل حقه اذا جحدته . كما قال الشاعر :

لئن هجرتَ أخا صِدق ومكرمة * لقد مريت أخاما كان يمريكا

ومنه المماراة ، وهي المجادلة والمكابرة . ولهذا عدى هذا الفعل بعلى وهي على بابها ، وليست بمعنى عن كما قاله المبرد ، بل الفعل متضمن معنى المكابرة . وهذا في قراءة الألف أظهر ، ورجح أبو عبيدة : قراءة من قرأ (أَفَتَمْرُونَهُ) قال : وذلك أن المشركين إنما شأنهم

الجحود لما كان يأتيهم من الوحى ، وهذا كان أكثر من المماراة منهم ، يعنى أن من قرأ (أَفَتُمَارُونَهُ) فمعناه أفتجادلونه ؟ ومن قرأ (أَفَتَمْرُونَهُ) معناه أفتجحدونه ؟ وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم ، وكان أكثر من مجادلتهم له ، وخالفه أبو على وغيره . واختاروا قراءة (أَفَتُمَارُونَهُ) قال أبو على : من قرأ أفتمارونه فمعناه أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده ؟ ويقوى هذا الوجه قوله تعالى (٨ : ٦ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ) ومن قرأ (أَفَتَمْرُونَهُ) كان المعنى أفتجحدونه ؟ . قال : والمجادلة كأنها أشبه فى هذا ، لأن الجحود كان منهم فى هذا وغيره . وقد جادله المشركون فى الاسراء .

قلت : القوم جمعوا بين الجدال والدفع والانكار . فكان جدالهم جدال جحود ودفع لا جدال استرشاد وتبين للحق : واثبات الالف يدل على المجادلة ، والاتيان بعلى يدل على المكابرة ؛ فكانت قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعا ، فهى أولى . وبالله التوفيق

فصل (٦٩)

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى : فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى ، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى . وقد صح عنه صلى الله

عليه وسلم أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين كما في الصحيحين عن زرّ بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) قال : أخبرني ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح وفي الصحيحين أيضا عن عبد الله بن مسعود (ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رأى) قال : رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح . وقال البخاري ، عنه : رأى رَفْرَفاً أخضر يَسدُّ الأُفق (١) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة (ولقد رآه نزلة أخرى) قال : رأى جبريل عليه السلام . وفي صحيحه أيضا ، عن مسروق قال : كنت متكئا عند عائشة فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ماهن ؟ قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . قال : وكنت متكئا فجلست ، فقلت : ياأم المؤمنين ،

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨ : ٤٣٢) والحاصل أن ابن مسعود كان يذهب في ذلك إلى أن الذي رآه النبي صلى الله عليه وسلم هو جبريل ، كما ذهبت إلى ذلك عائشة . والتقدير على رأيه : فأوحى — أي جبريل — إلى عبده — أي عبد الله — محمد ، لأنه يرى أن الذي دنا فتدلى هو جبريل ، وأنه هو أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وكلام أكثر المفسرين من السلف يدل على أن الذي أوحى هو الله ، أوحى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم . ومنهم من قال : إلى جبريل

أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل (وَلَقَدْ رَآهُ بالأُفُقِ الْمُبِينِ) (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى) ؟ فقالت : أنا أول هذه الامة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطا من السماء سادّاً عظم خلقه ما بين السماء والارض ، فقالت : أولم تسمع أن الله عز وجل يقول (٦ : ١٠٣ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) أو لم تسمع ان الله عز وجل يقول : (٤٢ : ٥١ وَمَا كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مايَشاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٌ » قالت : ومن زعم أن محمداً كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية . والله عز وجل يقول (٥ : ٦٧ يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ) قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية . والله عز وجل يقول (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمواتِ والأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ) ولو كان محمد كاتما شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية (٣٣ : ٣٧ وإِذْ تَقولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ) وفي الصحيحين عن مسروق أيضاً قال : سألت عائشة

رضى الله عنها ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : سبحان الله ! لقد قف شعرى بما قلت . وفيهما أيضاً قال ، قلت لعائشة : فأين قوله عز وجل (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) قالت : إنما ذاكَ جبريل كان يأتيه فى صورة الرجال . وإنه أتاه فى هذه المرة فى صورته التى هى صورته ، فسَدَّ الأفق . وفى صحيح مسلم أن أبا ذَر سأله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك فقال « نور ، أنى أراه » وفى صحيح مسلم أيضاً من حديث أبى موسى الأشعرى قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : « ان الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام . يَخفِضُ القِسطَ ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل حجابه النور . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبى ذر المقدم وهو كالتفسير له . ولا ينافى هذا قوله فى حديث الصحيح حديث الرؤية يوم القيامة « فيكشف الحجاب ، فينظرون اليه » فان النور الذى هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى اليه ، وهو لو كشف لم يقم له شىء ، كما قال ابن عباس فى قوله عز وجل (لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ) قال : ذاك نوره الذى هو نوره ، اذا تجلى به لم يقم له شىء . وهذا الذى ذكره ابن عباس يقتضى أن قوله (لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ) على عمومه واطلاقه فى الدنيا والآخرة ولا يلزم من ذلك أن لا يرى . بل يرى فى الآخرة بالابصار من

غير إدراك . واذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هى عليه ، وان رأتها مع القرب الذى بين المخلوق والمخلوق ، فالتفاوت الذى بين أبصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم . ولهذا لما حصل للجبل أدنى شىء من تجلى الرب تَساقىَ الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلى . وفى الحديث الصحيح المرفوع « جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما . وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه ، فى جنة عدن » فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات ، ولا يمنع من أصل الرؤية . فان الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى . فاذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق . وأما أنوار الذات الذى يحجب عن ادراكها فذاك صفة للذات ، لا تفارق ذات الرب جل جلاله . ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سُبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه . وتكفى هذه الإشارة فى هذا المقام للمصدق الموقن . وأما المعطل الجهمى فكل هذا عنده باطل ومحال

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية فى سورة النجم هو جبريل

وأما قول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين ، فالظاهر أن مستنده هذه الآية . وقد تبين أن المرئى فيها جبريل فلا دلالة فيها

على ماقاله ابن عباس . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الاجماع على ماقالته عائشة . فقال ـ في نقضه على بشر المريسي ، في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «رأيت ربي البارحة في أحسن صورة» ، فحكى تأويل المريسي الباطل ـ ثم قال : ويلك ان تأويل هذا الحديث على غير ماذهبت اليه . أما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث أبي ذر « إنه لم ير ربه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تروا ربكم حتى تموتوا » وقالت عائشة رضي الله عنها : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . وأجمع المسلمون على ذلك ، مع قول الله (لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ) يعنون أبصار أهل الدنيا . وإنما هذه الرؤية كانت في المنام ، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك . وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صليت ماشاء الله من الليل ، ثم وضعت جنبي ، فأتاني ربي في أحسن صورة » فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم . وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الامام أحمد : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الاسراء أم لا على ثلاث روايات

﴿احداها﴾ أنه رآه قال المروزي : قلت لابي عبدالله : يقولون ان عائشة قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، فبأي شيء يدفع قول عائشة ؟ فقال : بقول النبي صلى الله

عليه وسلم « رأيت ربى » قول النبى صلى الله عليه وسلم أكبر من قولها . قال : وذكر المروزى فى موضع آخر أنه قال لأبى عبدالله : هنا رجل يقول : إن الله يرى فى الآخرة ، ولا أقول إن محمدا رأى ربه فى الدنيا ، فغضب ، وقال : هذا أهل أن يجفى يسلم الخبر كما جاء . قال : فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين . ونقل حنبل قال قلت لأبى عبد الله : النبى صلى الله عليه وسلم رأى ربه رؤيا حلم بقلبه ؟ قال : فظاهر هذا نفى الرؤية ، وكذلك نقل الأثرم وقد سأله عن حديث عبد الرحمن بن عابس عن النبى صلى الله عليه وسلم « رأيت ربى فى أحسن صورة » فقال : معمر مضطرب ، لان معمرا رواه عن أيوب عن معبد عن عبد الرحمن بن عابس عن النبى صلى الله عليه وسلم . ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس . ورواه يوسف بن عطية عن قتادة عن أنس . ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبد الرحمن بن عابس عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . ورواه يحيى بن أبى كثير فقال : عن ابن عابس عن معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم . وأصل الحديث واحد ، قال الاثرم : فقلت لابى عبدالله : فإلى أى شىء تذهب ؟ فقال : قال الاعمش عن زياد بن الحصين عن أبى العالية عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه بقلبه . ونقل الاثرم أن رجلا قال لأحمد عن الحسين الأشيب أنه قال : لم ير النبى صلى الله عليه

وسلم ربه تعالى ، فأنكره عليه إنسان وقال : لم تقول رآه ، ولا تقول بعينه ولابقلبه ؟ كما جاء الحديث . فاستحسن ذلك الأشيب . فقال أبو عبد الله : حسن . قال : وظاهر هذا اثبات رؤية لايعقل مناها ، هل كانت بعينه أم بقلبه؟ . فهذه نصوص أحمد . وقدجعلها القاضى مختلفة وجعل المسئلة على ثلاث روايات ، ثم احتج للرواية الاولى بحديث أم الطفيل ، وحديث عبد الرحمن بن عابس الحضرمى ، ولا دلالة فيهما . لانها رؤية منام فقط . واحتج لها بمالا يرضى أحمدأن يحتج به ، وهو حديث لايصح عن أبى عبيدة ابن الجراح مرفوعا « لما كانت ليلة اسرى بى رأيت ربى فى أحسن صورة ، فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ » وذكر الحديث، وهذا غلط قطعا . فان القصة إنما كانت بالمدينة كما قال معاذ بن جبل: احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس . ثم خرج فصلى بنا ثم قال « رأيت ربى البارحة فى أحسن صورة فقال : يامحمد فيم يختصم الملأ الاعلى؟ » وذكر الحديث . فهذا كان بالمدينة والاسراء كان بمكة . وليس عن الامام أحمد ولا عن النبى صلى الله عليه وسلم نص أنه رآه بعينه يقظة ، وإنما حمل القاضى كلام أحمد مالا يحتمله ، واحتج لما فهم منه بما لايدل عليه ، وكلام أحمد يصدق بعضه بعضا ، والمسئلة رواية واحدة عنه ، فانه لم يقل بعينه . وإنما قال : رآه ، واتبع فى

ذلك قول ابن عباس رأى محمد ربه ، ولفظ الحديث « رأيت ربى » وهو مطلق وقد جاء بيانه فى الحديث الآخر

ولكن فى رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبى صلى الله عليه وسلم اشعار بأنه أثبت الرؤية التى أنكرتها عائشة . وهى لم تنكر رؤية المنام ، ولم تقل : من زعم أن محمدا رأى ربه فى المنام فقد أعظم على الله الفرية . وهذا يدل على أحد أمرين : اما أن يكون الامام أحمد أنكر قول من أطلق نفى الرؤية اذ هو مخالفته للحديث ، واما أن يكون رواية عنه باثبات الرؤية . وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه . وهذا تقييد منه للرؤية وأطلق أنه رآه ، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية . واستحسن قول من قال رآه ، ولا يقول بعينه ولا بقلبه . وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة وكيف يقول أحمد رآه بعينى رأسه يقظة ولم يجىء ذلك فى حديث قط . فأحمد انما اتبع ألفاظ الحديث كما جاءت وانكاره قول من قال لم يره أصلا لا يدل على اثبات رؤية اليقظة بعينه . والله أعلم

(٧٠) فصل

وقوله تعالى (مازَاغ الْبَصَرُ وما طَغَى) قال ابن عباس : ما زاغ البصر يمينا ولاشمالا ، ولاجاوز ما أمر به . وعلى هذا المفسرون ، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائى الذى لا أدب له بين يدى الملوك والعظماء ، من التفاته يمينا وشمالا ، ومجاوزة بصره لما بين يديه ،

وأخبر عنه بكمال الأدب فى ذلك المقام ، وفى تلك الحضرة اذ لم يلتفت جانباً ، ولم يمد بصره الى غير ما أرى من الآيات ، وماهناك من العجائب ، بل قام مقام العبد الذى أوجب أدبه إطراقه واقباله على ما أرى ، دون التفاته الى غيره ، ودون تطلعه الى ما لم يره ، مع ما فى ذلك من ثبات الجأش ، وسكون القلب ، وطمأنينته . وهذا غاية الكمال . وزيغ البصر التفاته جانباً ، وطغيانه مده امامه الى حيث ينتهى ، فنزه فى هذه السورة علمه عن الضلال ، وقصده وعمله عن الغى ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيغ والطغيان ، وهكذا يكون المدح

تلك المكارم لاقعبان من لبن   شيبَا بماء فعادا بعدُ أبوالا

(٧١) فصل

ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى استطرد منها ، وذكر أن جنة المأوى عندها، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى وهذا من أحسن الاستطراد، وهو أسلوب لطيف جدا فى القرآن وهو نوعان :

﴿ احدهما ﴾ أن يستطرد من الشىء الى لازمه ، مثل هذا ومثل قوله (٤٣ : ٩ ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ)، ثم استطرد من جوابهم الى قوله (١٠ الذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً

لعلكم تهتدون ١١ والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون ١٢ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون ١٣ لتستووا على ظهوره) وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له ، واقامة الحجة عليهم.

ومثله قوله تعالى (٢٠: ٤٩ فمن ربكما ياموسى؟ ٥٠ قال: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ٥١ قال: فما بال القرون الأولى؟ ٥٢ قال: علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) فهذا جواب موسى ثم استطرد سبحانه منه الى قوله: (٥٣ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ٥٤ كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ٥٥ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) ثم عاد الى الكلام الذى استطرد منه

والنوع الثانى أن يستطرد من الشخص الى النوع كقوله: (٢٣ : ١٢ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ١٣ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) الى آخره. فالاول آدم ، والثانى بنوه . ومثله قوله (٧ : ١٨٩ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ، فلما

أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ١٩ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما) الى آخر الآيات ، فاستطرد من ذكر الأبوين الى ذكر المشركين من أولادهما . والله أعلم

(٧٣) فصل

ومن ذلك قوله تعالى : (٥٢ : ١ والطور ٢ وكتاب مسطور ٣ في رق منشور ٤ والبيت المعمور ٥ والسقف المرفوع ٦ والبحر المسجور ٧ إن عذاب ربك لواقع ٨ ماله من دافع) تضمن هذا القسم خمسة أشياء ، وهي مظاهر آياته ، وقدرته ، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته . فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى ابن عمران ، عند جمهور المفسرين من السلف والخلف ، وعرفه ههنا باللام ، وعرفه في موضع آخر بالاضافة . فقال (وطور سينين) وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا ، والآخرة ، وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه . قال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه : حدثني محمد بن عبيد بن حبان ، قال حدثنا جعفر بن سليمان ، قال حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي قال : أوحى الله عز وجل الى الجبال : انى نازل على جبل منكم . قال : فشمخت الجبال كلها الا جبل الطور ، فانه تواضع ، وقال : أرضى بما قسم الله لى ، فكان الأمر عليه ، وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به ، وإنه لسيد الجبال

﴿ الثـانى ﴾ الكتاب المسطور فى الرَّق المنشور . واختلف فى هذا الكتاب ، فقيل:هو اللوح المحفوظ ، وهذا غلط فانه ليس برق . وقيل : هو الكتاب الذى تضمن أعمال بنى آدم ، وقال مقاتل: تخرج اليهم أعمالهم يوم القيامة فى رق منشور . وهذا وان كان أقوى وأصح من القول الاول ، واختـاره جماعة من المفسرين ، ومنهم من لم يزك غيره ، فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عنـد الله ، وأقسم الله به لعظمته وجلالته ، وما تضمنه من آيات ربوبيته ، وأدلة توحيده وهداية خلقه

ثم قيـل : هو التوراة التى أنزل الله على موسى ، وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور ، فقال : هو التوراة ؛ ولكن التوراة إنما أنزلت فى ألواح لافى رق ، إلا أن يقال : هى فى رق فى السماء وأنزلت فى ألواح ، وقيـل : هو القرآن ، ولعل هذا أرجح الأقوال ؛ لانه سبحانه وصف القرآن بأنه فى صحف مطهرة ، بأيدى سـفرة كرام بررة . فالصحف هى الرق ، وكونه بأيدى سـفرة هو كونه منشوراً و على هذا فيكون قد أقسم بسـيد الجبال وسيد الكتب . ويكون ذلك متضمنا للنبوتين المعظمتين : نبوة موسى ، ونبوة محمد . وكثيرا مايقرن بينهما وبين محلهما كما فى سورة التين والزيتون

ثم أقسم بسيد البيوت ، وهو البيت المعمور . وفى وصفه الكتاب

بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوباً مفروغا منه ، وفى وصفه بأنه منشور إيذان بالاعتناء به وأنه بأيدى الملائكة منشور غير مهجور .

وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح الذى فى السماء الذى رفع للنبى صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء ، يدخله كل يوم سبعون الف ملك ثم لايعودون إليه آخر ماعليهم ، وهو بحيال البيت المعمور فى الأرض ، وقيل هو البيت الحرام . ولا ريب أن كلا منهما معمور : فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم ، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود ، وعلى كلا القولين فكل منهماسيد البيوت

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته ، وهما مظهر آياته ، وعجائب صنعته ، وهما : السقف المرفوع ، وهو السماء فانهامن أعظم آياتهقدراً ، وارتفاعاً ، وسعة، وسمكا ، ولونا ، واشراقا وهى محل ملائكته ، وهى سقف العالم ، وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار ، والسنين والشهور والايام والصيف والشتاء والربيع والخريف . ومنها تنزل البركات . واليها تصعد الأرواح ، وأعمالها وكلماتها الطيبة .

﴿والثانى﴾ البحر المسجور ، وهوآية عظيمة من آياته ، وعجائبه لا يحصيها إلا الله . واختلف فى هذا البحر ، هل هو الذى فوق السموات ، أوالبحر الذى نشاهده ؟ على قولين : فقالت طائفة : هو

البحر الذى عليه العرش، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام كما فى الحديث الذى رواه أبو داود، من حديث سماك عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس، قال كنت بالبطحاء فى عصابة، فيهم رسول الله ﷺ، فمرت بهم سحابة، فنظر اليها فقال: « ما تسمون هذه؟ » قالوا: السحاب، قال « والمزن » قالوا والمزن، قال « والعنان » قالوا والعنان قال « هل تدرون ما بين السماء والأرض؟ » قالوا: لاندرى، قال « إن بعد ما بينهما اما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك، حتى عد سبع سموات، ثم فوق السابعة بحر ابين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء الى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله فوق ذلك » وهذا لا يناقض ما فى جامع الترمذى « إن بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام » إذ المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به، فالخمسمائة مقدرة بسير الابل، والسبعون بسير البريد، وهو يقطع بقدر ما تقطعه الابل سبعة أضعاف. وهذا القول فى البحر الذى تحت العرش محكى عن على بن أبى طالب

والثانى أنه بحر الارض واختلف فى المسجور، فقيل المملوء، هذا قول جميع أهل اللغة. قال الفراء: المسجور فى كلام العرب المملوء. يقال: سجرت الاناء إذا ملأته، قال لبيد:

فتوسَّطا عَرْض السرى وصدعا　　مسجورة متجاور أقـــلامها

وقال المبرد : المسجور المملوء عند العرب ، وأنشد للنمر بن تولب

* اذا شاء طالع مسجورة *

يريد عينا مملوءة ماء، وكذا قال ابن عباس : المسجور الممتلىء

وقال مجاهد : المسجور الموقـد . قال الليث : السجر إيقادك فى التنور تسجره سجرا ، والسجر اسم الحطب . وهـذا قول الضحاك وكعب وغيرهما . قال : البحر يسجر فيزداد فى جهنم ، وحكى هذا القول عن على بن أبى طالب رضى الله عنه . قال مسجور . قال الفراء : وهذا يرجع الى القول الأول ؛ لأنك تقول : سجرت التنور إذا ملأته حطبا . وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس أن المسجور اليابس الذى قد نضب ماؤه وذهب ، وليس لذى الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف . وهذا القول اختيار أبى العالية . قال أبو زيد : المسجور المملوء ، والمسجور الذى ليس فيه شىء ، جعله من الأضداد ، وقد روى عن ابن عباس أن المسجور المحبوس ، ومنه ساجور الـكلب ، وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه . والمعنى على هذا أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض على الارض فيغرقها ، فان ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامراً للأرض فوقها ، كما أن الهواء فوق الماء ، ولـكن أمسكه الذى يمسك السموات والارض أن تزولا . وفى هذا حديث ذكره أحمد مرفوعا « مامن يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بنى آدم »

وهـذا الموضع مما هدم أصول الملاحـدة والدهرية ، فانه ليس في الطبيعة مايقتضى حبس الماء عن بعض جوانب الارض ، مع كون كرة الماء عالية على كرة الارض بالذات ، ولو فرض أن في الطبيعة مايقتضى بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضى تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره . وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة أن العناية الالٓهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم ، هو كما ذكروا ولـكن عناية من يفعل بقـدرته ومشيئته ، وهو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وهو أحكم الحاكمين - غير معقولة . فان العناية الالهيـة تقتضى حياته ، وقـدرته ، ومشيئته ، وعلمه ، وحكمته ، ورحمتـه ، واحسانه الى خلقـه ، وقيام الافعال به . فاثبات العناية الالهية مع نفى هذه الامور ممتنع . وبالله التوفيق

وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد . وهذ هو المعروف في اللغة من المسجور . ويدعليه قوله تعالى (٨١: ٦ وإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) قال على وابن عباس : أوقدت فصارت نارا ، ومن قال يبست وذهب ماؤها فلا يناقض كونها نارا موقدة . وكذا من قال مائت ، فانها تملأ نارا .

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله ، فان البحر محبوس بقـدرة الله . ومملوء ماء ،

ويذهب ماؤه يوم القيامة ويصير نارا : فكل من المفسرين اخذ معنى من هذه المعانى . والله أعلم

(٧٣) فصل

وأقسم سبحانه بهذه الامور على المعاد والجزاء . فقال (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ) ولما كان الذى يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له . وهذا يتناول أمرين : أحدهما انه لا دافع لوقوعه ، والثانى أنه لا دافع له إذا وقع

ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً) والمَوْرُ قد فُسر بالحركة ، وفسر بالدوران ، وفسر بالتموج والاضطراب ، والتحقيق أنه حركة فى تموج وتكفؤ وذهاب ومجىء ، ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال . فقال (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً) وقال (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) من مكان إلى مكان . وأما السماء فانها تتكفأ ، وتموج ، وتذهب ، وتجىء . قال الجوهرى : مار الشىء يمور موراً ، تَرَهْيَأَ أى : تحرك وجاء وذهب ، كما تتكفأ النخلة العَيْدانة ، أى الطويلة . ومنه قوله (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً) قال الضحاك : تموج موجاً . وقال أبو عبيدة ، والاخفش : تتكفأ . وأنشد للأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها * مور السحابة ، لا ريثٌ ولا عجل

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التى كانوا عليها، وهى الخوض الذى هو كلام باطل، واللعب الذى هو سعى ضائع. فلا علم نافع ولا عمل صالح. بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم لعب. ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يُدَعُّونَ إليها دَعًّا أى يدفع فى أقفيتهم وأكتافهم، دفعاً بعد دفع. فاذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا، وقيل لهم (هَذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) وتقولون لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق. ثم يقال (أَفَسِحْرٌ هَذَا ؟) الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل: انه سحر، وانهم سحرة. فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة فى الدنيا فلا تبصرون الحق ؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت فى الدنيا فلا تبصرون الحق ؟ ثم سلب عنهم نفع البصر الذى كانوا فى الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا اليه وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها. فقيل لهم يومئذ: (اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا) كلاهما سواء عليكم لا يجدى عنكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة، ولا يستنزل لكم الرحمة. ثم أعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك. وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذابا، فلم يجدوا

من اقترانهم به بدا ، بل صارت عذابا لازما لهم كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم ، ولزوم العذاب لاهله فى النار بحسب لزوم تلك الارادة الفاسدة ، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم فى الدنيا . فاذا زال ذلك اللزوم فى وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالا كليا لم يعذبوا عليه فى الآخرة ، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم ، ولم يبق له أثر يترتب عليه ، فالتائب من الذنب كمن لاذنب له ، والمادة الفاسدة اذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها ، وان لم تزل تلك الارادة والاعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض ، وغلب الأقوى الأضعف ، وان تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما الآخر ، وكان محل صاحبه جبال الاعراف بين الجنة والنار . فهذا حكم الله وحكمته فى خلقه ، وأمره ونهيه وعقابه ، ولا يظلم ربك أحدا

فصل (٧٤)

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون ، فذكر مساكنهم وهم فى الجنان وحالهم فى المساكن وهو النعيم . وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم (فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) والفاكه : المعجب بالشىء المسرور

المغتبط به . وفعله فكه – بالكسر – يفكه فهو فكه وفاكه ، اذا كان طيب النفس . والفاكه البال ، ومنه الفاكهة وهى المرح الذى ينشأ عن طيب النفس . وتفكهت بالشىء : اذا تمتعت به ، ومنه الفاكهة التى يتمتع بها ومنه قوله (٥٦ : ٦٥ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ) قيل: معناه تندمون وهذا تفسير بلازم المعنى وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه واذا زال التفكه خلفه ضده . يقال : تحنث اذا زال الحنث عنه ، وتحرج ، وتحوب وتأثم . ومنه تفكه . وهذا البناء يقال للداخل فى الشىء : كتعلم وتحلم ، وللخارج منه : كتحرج وتأثم

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين : نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح . ووقاهم عذاب الجحيم فوقاهم مما يكرهون ، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقا ؛ لانهم تركوا مايكره وأتوا بما يحب ، فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم

ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله (هنيئاً) فانهم لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال (مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ) وفى ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض، ومقابلة بعضهم بعضا . كما قال تعالى (٥٦ : ١٦ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) فان من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الانسان فى بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه ، ولا يكون بعيدا منه ، قد

حيل بينه وبينه ، بل سريره الى جانب سرير من يحبه

وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين ، وقد تكرر وصفهم فى القرآن بهاتين الصفتين . قال أبو عبيدة : جعلناهم أزواجا كما يزوج البعل بالبعل ، جعلناهم اثنين اثنين . وقال يونس : قرناهم بهن . وليس من عقد التزويج . واحتج على هذا بأن العرب لا تقول تزوجت بها وإنما تقول تزوجتها . قال تعالى (٣٣ : ٣٧ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) وفى الحديث « زوجتكها بما معك من القرآن» وقال غيره : العرب تقول : تزوجت بامرأة . وقال الأزهرى : العرب تقول : زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس فى كلامهم تزوجت بامرأة . ومنه قوله تعالى (وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) أى قرناهم وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع أى شفعناهم وقرناهم بهن . وقالت طائفة ، منهم مجاهد : زوجناهم بهن أى أنكحناهم إياهن

قلت : وعلى هذا فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم ، فالقولان واحد . والله أعلم

وأما الحور العين فقال مجاهد : التى يحار فيها الطرف ، باديا مخ سوقهن من وراء ثيابهن ، ويرى الناظر وجهه فى كبد احداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون . وقال قتادة : بحور ، أى بيض . وكذا قال ابن عباس . وقال مقاتل : الحور : البيض الوجوه ، العين : الحسان الأعين . وعين حوراء : شديدة السواد ، نقية البياض ،

طويلة الاهداب مع سوادها ، كاملة الحسن ، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد . فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة ، كما قال (٥٥ : ٧٠ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) فالبياض فى ألوانهن ، والحسن فى وجوههن ، والملاحة فى عيونهن . وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات ، ودل بما وصف بما سكت عنه

فان شئت التفصيل فالذى يحمد ويستحب من وجه المرأة وبدنها وأخلاقها البياض فى أربعة أشياء : اللون ، وبياض العين ، والفرق ، والثغر . والسواد فى أربعة : سواد العين ، وسواد شعر الرأس ، والجفن ، وسواد الحاجبين . والحمرة فى أربعة : اللسان ، والشفتين ، والوجنتين ، وحمرة تشوب البياض فتحسنه وتزينه . ومن التدوير أربعة أشياء : الوجه ، والرأس ، والكعب ، والمقعد . ومن الطول أربعة : القامة ، والعنق ، والشعر ، والحاجب . والسعة فى أربعة : الجبهة ، والعين ، والوجه ، والصدر . ومن الصغر فى أربعة : الثدى ، والفم ، والكف ، والقدم . ومن الطيب فى أربعة : الفم ، والانف ، والفرق ، والفرج . ومن الضيق فى موضع واحد . ومن الأخلاق كما قال تعالى (٥٦ : ٣٧ عُرُباً أَتْرَاباً) إذ العرب جمع عروب ، وهى المرأة المتحببة إلى زوجها بأخلاقها ولطافتها وشمائلها . قال ابن الاعرابى : العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة

اليه . وقال أبو عبيدة : هى الحسنة التبعل . قال المبرد : هى العاشقة لزوجها . وقال البخارى فى صحيحه : هى الغنجة ، ويقال الشكلة . فهذا وصف أخلاقهن . وذلك وصف خَلقهن . وأنت اذا تأمت الصفات التى وصفهن الله بها رأيتها مستلزمة لهذه الصفات ولما وراءها . والله المستعان

(٧٥) فصل

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بالحاق ذرياتهم بهم فى الدرجة ، وإن لم يعملوا أعمالهم لتقرّ أعينهم بهم ، ويتم سرورهم وفرحهم . وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شىء بهذا الالحاق فينزلهم من الدرجة العليا الى الدرجة السفلى ، بل ألحق الابناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله فى أهل الفضل ، وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك ، بل (كُلُّ أمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) فى هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الالحاق ، كما فى قوله : (وما أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) دفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الابناء وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء فينقص أجر أعمالهم فرفع هذا التوهم بقوله (وما أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى مانقصناهم ، ثم ذكر امدادهم باللحم والفاكهة والشرب ، وأنهم

يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الاثم لهم فقال (لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) فنفى باللغو السباب ، والتخاصم ، والهجر والفحش فى المقال ، والعربدة . ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التى أثمت شارب الخمر . وقال سبحانه (وَلَا تَأْثِيمٌ) ولم يقل ولا إثم ، أى : ليس فيها ما يحملهم على الاثم ولا يؤثم بعضهم بعضاً بشربها ، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأثمون . قال ابن قتيبة : لا يذهب بعقولهم فيلغوا ، ولم يقع منهم ما يؤثمهم

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ فى بياضهم ، والمكنون : المصون الذى لا تدنسه الأيدى . فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن ، وذلك اللون والصفاء والبهجة . بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، ووصفهم فى موضع آخر (٧٦ : ١٩ (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً) ففى ذكره المنثور اشارة الى تفرقهم فى حوائج ساداتهم وخدمتهم ، وذهابهم ، ومجيئهم ، وسعة المكان ، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه .

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وانهم يقولون (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) أى : كنا خائفين فى محل الأمن بين الأهل

والأقارب والعشائر . فأوصلنا ذلك الخوف والاشفاق الى أن منَّ الله علينا ، فأمنا مما نخاف (وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ) وهذا ضد حال الشقى الذى كان فى أهله مسرورا . فهذا كان مسرورا مع اساءته . وهؤلاء كانوا مشفقين مع احسانهم . فبدل الله سبحانه اشفاقهم بأعظم الأمن ، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف . فبالله سبحانه المستعان .

ثم أخبر عن حالهم فى الدنيا . وأنهم كانوا يعبدون الله فيها . فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره ، ومحل كرامته ، والذى جمع لهم ذلك كله بره ورحمته ؛ فانه هو البر الرحيم ، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة فى أول السورة . والله أعلم .

فصل (٧٦)

ومن ذلك قوله (٥١ : ١ والذَّارِيَاتِ ذَرْواً ٢ فالحَامِلَاتِ وِقْراً ٣ فالجَارِيَاتِ يُسْراً ٤ فالمُقَسِّمَاتِ أَمْراً) أقسم بالذاريات وهى الرياح تذرو المطر ، وتذرو التراب ، وتذرو النبات اذا تهشم ، كما قال تعالى (١٨ : ٤٥ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ) أى تفرقه وتنشره ثم . بما فوقها وهى السحاب الحاملات وقرا ، أى ثقلا من الماء ، وهى روايا الارض ، يسوقها الله سبحانه على متون السحاب الرياح . كما فى جامع الترمذى من حديث الحسن عن أبى هريرة قال : بينما نبىُّ

الله صلى الله عليه وسلم جالس فى أصحابه إذ أتى عليهم سحابٌ ، فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان ، هذه روايا الارض ، يسوقها الله تبارك وتعالى الى قوم لا يشكرونه ، ولا يدعونه »

ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك ، وهى (الجاريات يسرا) . وهى النجوم التى من فوق الغمام ، و (يسرا) أى : مسخرة مذللة منقادة . وقال جماعة من المفسرين : انها السفن تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا . ومنهم من لم يذكر غيره . واختار شيخنا رحمه الله القول الاول . وقال : هو أحسن فى الترتيب ، والانتقال من السافل إلى العالى ، فانه بدأ بالرياح ، وفوقها السحاب ، وفوقه النجوم ، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذى أمرت به بين خلقه . والصحيح أن (المقسمات أمرا) لا تختص بأربعة ، وقيل : هم جبريل يقسم الوحى والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل ، وميكائيل على القطْر والبرَد والثلج والنبات ، يقسمها بأمر الله ، وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله ، واسرافيل يقسم الارواح على أبدانها عند النفخ فى الصور ، وهم المدبرات أمرا . وليس فى اللفظ مايدل على الاختصاص بهم . والله أعلم .

وأقسم سبحانه بهذه الامور الاربعة لمكان العبرة والآية ، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته ، وعظم قدرته . ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها

وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة اليها . فللدطر خمسة رياح :
ريح ينشر سحابه ، وريح يؤلف بينه ، وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث
يريد الله ، وريح تذرو أمامه وتفرقه . وللنبات ريح ، وللسفن ريح ،
وللرحمة ريح ، وللعذاب ريح ، الى غير ذلك من أنواع الرياح . وذلك تقضى
بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ، ويجعلها
رخاء تارة ، وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذابا تارة ، فتارة يحي
بها الزرع والثمار ، وتارة يغطيها بها ، وتارة ينجى بها السفن ، وتارة
يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان ، وتارة تذيبها ، وتارة عقيما ،
وتارة لاقحة ، وتارة جنوباً ، وتارة دبورا ، وتارة صباً ، وتارة
شمالا ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف
شيء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثر والتأثير ، لطيفة
المسارق بين السماء والأرض . إذا قطع عن الحيوان الذى على وجه
الأرض هلك ، كبحر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يحبسها
الله سبحانه اذا شاء ، ويرسلها اذا شاء ، تحمل الأصوات الى الآذان ،
والرائحة الى الأنف ، والسحاب الى الارض الجرز . وهى من روح
الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب ، وهى أقوى خلق
الله كما رواه الترمذى فى جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبى
صلى الله عليه وسلم قال « لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق
الجبال ، فقال بها عليها ، فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة
الجبال وقالوا يارب ، هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم ،

الحديد . قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال نعم ، النار . قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال نعم ، الماء . قالوا : يارب ، فهل من خلقك أشد من الماء ؟ قال نعم ، الريح . قالوا : يارب ، فهل من خلقك أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم ، تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله » ورواه الامام احمد فى مسنده وفى الترمذى فى حديث قصة عاد أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر حلقة الخاتم ، فلم تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم وقد وصفها الله بأنها عاتية . قال البخارى فى صحيحه : عتت على الخزنة ، فلم يستطيعوا أن يردوها

والمقصود أن الرياح أعظم من آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته

فصل (٧٧)

ثم أقسم بالسحاب ، وهو من أعظم آيات الله فى الجو ، فى غاية الخفة ، ثم يحمل الماء والبرد ، فيصير أثقل شيء ، فيأمر الرياح ، فتحمله على متونها ، وتسير به حيث أمرت ، فهو مسخر بين السماء والأرض ، حامل لأرزاق العباد والحيوان . فاذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله ، فانه لو بقى لأضر النبات والحيوان فأنشأه سبحانه فى زمن يصلح انشاؤه فيه ، وحمله من الماء ما يحمله ، وساقه الى بلد شديد الحاجة اليه

فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه ؟ وحمله الماء والثلج والبرد ؟ ومن حمله على ظهور الرياح ؟ ومن أمسكه بين السماء والارض بغير

عماد ؟ ومن أغاث بِقَطْرِه العباد ، وأحيا به البلاد ، وصرفه بين خلقه كما أراد ، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم ، وأنزله منه ، وأفناه بعد الاستغناء عنه ، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا الى دفعه سبيلا ، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون اليه وصولا ، فان لم يجبك جواباً حباك اعتبار مرسل (١) الرياح ، من أنشأها بقدرته ؟ وصرفها بحكمته ، وسخرها بمشيئته ، وأرسلها بشرا بين يدى رحمته ، جعلها سببا لتمام نعمته ، وسلطانا على من شاء بعقوبته ؟ ومن جعلها رخاء ، وذارية ، ولا قحة ، ومثيرة ، ومؤلفة ، ومغذية لأبدان الحيوان ، والشجر ، والنبات ، وجعلها قاصفا ، وعاصفاً ، ومهلكة وعاتية ؟ إلى غير ذلك من صفاتها . فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته ، وأقرت المصنوعات بوحدانيته ، بيده النفع والضر ، وله الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ؟

وسل الجاريات يُسراً من السفن : من أمسكها على وجه الماء ، وسخر لها البحر ؟ ومن أرسل لها الرياح التى تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح ؟ ومن حفظها فى مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح ؟ فمن الذى جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها ؟ ومن الذى أجرى لها ريحاً واحدة تسير بها ، ولم يسلط على تلك الريح مايصادمها ويقاومها ، فتموج فى

---

(١) هكذا فى الأصل ، وهو خطأ شنيع ، وصوابه : « فان لم يجبك حوارا أجابك اعتبارا ، وسل الرياح – الخ » أبو رجاء.

البحر يميناً وشمالا ، تتلاعب بها الريح ؟ ومن الذى علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم ، الذى يمشى على الماء ، فيقطع المسافة البعيدة ، ويعود الى بلده يشق الماء ويمخره ، مقبلاومدبراً بريح واحدة ، تجرى فى موج كالجبال (٤٢ : ٣٢ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٣٣ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٤ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ) ومن الذى حمل فى هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة ، وأغرق جميع أهل الارض سواهم ؟

وسل الجاريات يُسْراً من الكواكب ، والشمس ، والقمر : من الذى خلقها ، وأحسن خلقها ، ورفع مكانها ، وزين بها قبّة العالم ، وفاوت بين أشكالها ، ومقاديرها ، وألوانها ، وحركاتها ، وأماكنها من السماء ، فمنها الكبير ، ومنها الصغير ، والمتوسط ، والأبيض ، والأحمر ، والزجاجى اللون ، والدُّرِّى اللون ، والمتوسط فى قبة الفلك ، والمتطرف فى جوانبها ، وبين ذلك ؟ ومنها مايقطع الفلك فى شهر ، ومنها مايقطعه فى عام ، ومنها مايقطعه فى ثلاثين عاما ، ومنها مايقطعه فى أضعاف ذلك ، ومنها مالا يزال ظاهراً لايغيب بحال ، فهو أبدى ، ومنها أبدى الخفاء ، ومنها ماله حالتان ظهور واختفاء ، ومنها ماله حركتان حركة عرضية من المشرق الى المغرب ، وحركة ذاتية من المغرب الى المشرق . فالما يأخذ الكوكب

فى الغروب فاذا كوكب آخر فى مقابلته ، وكوكب آخر قد طلع ، وهو آخذ فى الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر فى الربع الشرقى وكوكب آخر فى وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب ، وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته

وأنت اذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ ، وتدل على وجود الخالق ، وصفات كماله ، وربوبيته وحكمته ، ووحدانيته أعظم دلالة . وكل مادل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله ، فكما جعل الله النجوم هداية فى طريق البر والبحر ، فهى هداية فى طرق العلم بالخالق سبحانه ، وقدرته وعلمه ، وحكمته ، والمبدأ والمعاد ، والنبوة ، ودلالتها على هذه المطالب لاتقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر ، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية ، فهى هداية فى هذا وهذا

(٧٨) فصل

وأما دلالة (الْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) وهم الملائكة ، فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوى والسفلى وما لا يشاهد انما هو على أيدى الملائكة ، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم ، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم ، فوكل بالشمس والقمر ، والنجوم ، والأفلاك طائفة منهم . ووكل بالقطر والسحاب طائفة ، ووكل بالنبات

طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بنى آدم طائفة . وباحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة. وبالوحى طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شئون العالم طائفة . هذا مع ما فى خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم . وحسن الخلقة . وكمال الانقياد لأمره، والقيام فى خدمته، وتنفيذ أوامره فى أقطار العالم

ثم أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده . ووقوع جزائه بالثواب والعقاب. فقال : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) أى ماتوعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن ، وهو وعد صدق لا كذب . (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) أى ان الجزاء لكائن لا محالة . ويجوز أن تكون (ما) موصولة، والعائد محذوف . والمعنى ان الذى توعدونه لصادق . أى كائن وثابت . وأن تكون مصدرية . أى إنَّ وعدكم لحق وصدق

ووصف الوعد بكونه صادقا أبلغ من وصفه بكونه صدقا . ولا حاجة الى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه . بل هو صادق نفسه، كما يوصف المتكلم بأنه صادق فى كلامه . فوصف كلامه بأنه صادق . وهذا مثل قولهم : سر كاتم، وليل قائم، ونهار صائم . وماء دافق ومنه (٦٩ : ٢١ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) وليس ذلك بمجاز، ولا مخالف لمقتضى التركيب

وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالاً عليه ، مرشدا اليه

ثم أقسم سبحانه (بالسَّمَاء ذَاتِ الحُبُكِ) أصل الحبك فى اللغة إجادة النسج . يقال : حبك الثوب اذا أجاد نسجه . وحبل محبوك إذا كان شديد الفتل . وفرس محبوك الكفل ، أى : مدمجه . وقال شمر : المحبوك فى اللغة ما أجيد عمله . ودابة محبوكة : اذا كانت مدمجة الخلق . وقال أبو عبيدة ، والمبرد : الحبك : الطريق ، واحدها حباك ، وحباك الحمام : طرائق على جناحيه . وحبك الماء طريقه . وقال الفراء : الحبك تكسير كل شىء ، كالرمل اذا مرت به الريح والماء الدائم اذا مرت به الريح . وتجعد الشعر حبك أيضا ، واحدها حَبيكة ، مثل طرق وطريقة ، وحباك مثل مثال ومُثُل . والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يريد الخلق الحسن . وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك حسنها واستواؤها . وقال قتادة : ذات الخلق الشديد . وقال مجاهد : متقنة البنيان . وقال أيضاً : ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها ، كحبك الماء اذا ضربته الريح ، وكحبك الرمل ، وكحبك الشعر . وقال عكرمة : بنيانها كالبرد المسلسل

قلت وفى الحديث فى صفة الدجال « ورأسه حُبُكٌ » أى جعد الشعر .

ومن أحسن ما قيل فى تفسير الحبك ما ذكره الترمذى فى تفسير

الجامع من حديث الحسن ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هل تدرون مافوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال: « فانها الرقيع سقف محفوظ ، وموج مكفوف » وذكر الحديث (١)

---

(١) روى الترمذى فى تفسير سورة الحديد عن الحسن عن أبى هريرة قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان . هذه روايا الارض ، يسوقه الله الى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » ثم قال : « هل تدرون مافوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « فانها الرقيع ، سقف محفوظ ، وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « بينكم وبينها خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون مافوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فان فوق ذلك سماءين مابينهما مسيرة خمسمائة عام » حتى عد سبع سموات مابين كل سماءين مابين السماء والارض ثم قال « هل تدرون مافوق ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فان فوق ذلك العرش بينه وبين السماء بعد مابين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فانها الارض » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحت ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « فان تحتها أرضا أخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس

(٧٩) فصل

ثم ذكر المقسم عليه فقال : (إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ، يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) فالقول المختلف أقوالهم فى القرآن وفى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو خرص كله . فانهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم ، وطرائقهم ، وأقوالهم . فان الحق شيء واحد وطريق مستقيم . فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب ، كما قال تعالى (٥٠ : ٥ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) أى : مختلط ملتبس . وفى ضمن هذا الجواب : أنكم فى أقوال باطلة متناقضة ، يكذب بعضها بعضاً ، بسبب تكذيبهم بالحق

ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف مَنْ

محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل الى الارض السفلى لهبط على الله » ثم قرأ (هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه . ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد . قالوا : لم يسمع الحسن من أبى هريرة : وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث . فقالوا : انما هبط على علم الله وسلطانه . وعلم الله وقدرته وسلطانه فى كل مكان . وهو على العرش كما وصف فى كتابه اهـ

صُرف . فعن ههنا فيها طرف من معنى التسبيب ، كقوله (١١ : ٥٣ ومَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ)

وقوله (مَنْ أُفِكَ) أى من سبق فى علم الله أنه يضل . ويؤفك ، كقوله (٣٧ : ١٦١ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦٢ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ١٦٣ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)

وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى القرآن ، وقيل الى الايمان . وقيل الى الرسول . والمعنى يصرف عنه من صرف حتى يكذب به

ولما كان هذا القول المختلف خرصا وباطلا قال (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) أى المكذبون (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) وجهالة قد غمرت قلوبهم أى غطتها وغشتها ، كغمرة الماء وغمرة الموت ، فالغمرات ما غطاها من جهل ، أو هوى ، أو سكر ، أو غفلة ، أو حب ، أو بغض ، أو خوف ، أو غم ، ونحو ذلك . قال تعالى (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا) أى غفلة ، وقيل جهالة .

ثم وصفهم بأنهم ساهون فى غمرتهم . والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه . والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة ، والسهو لا يستلزم ذلك

ثم قال (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟) استبعاداً للوقوع وجحدا .

فأخبر تعالى أن ذلك (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ). والمشهور فى تفسير هذا الحرف أنه بمعنى يحرقون، ولكن لفظة على تعطى معنى زائداً على ماذكروه، ولو كان المراد نفس الحرق. لقيل يومهم فى النار يفتنون. ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم: على بمعنى فى، كما تكون فى بمعنى على. والظاهر أن فتنتهم على النار. قبل فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها. ووقوفهم عليها فتنة، وعند دخولهم، والتعذيب بها فتنة أشد منها، ومن جعل الفتنة هنا من الحريق أخذه من قوله تعالى (٨٥ : ١٠ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) واستشهد على ذلك أيضا بهذه اللفظة التى فى الذاريات. وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه. ولهذا سمى الله الكفر فتنة، فهم لما أتوا بالفتنة التى هى أسباب العذاب فى الدنيا سمى جزاءهم فتنة. ولهذا قال (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ) وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم. وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها، ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها. ثم فتنوا بارسال الرسل إليهم. ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم. ثم فتنوا بعذاب الدنيا. ثم فتنوا بعذاب الموت. ثم يفتنون فى موقف القيامة. ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها. وذلك من أعظم فتنتهم. ثم الفتنة الكبرى التى أنستهم جميع الفتن قبلها

(٨٠) فصل

ثم ذكر سبحانه جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى ، وهو الجنات والعيون، وأنهم (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)من الخير والكرامة

وفى ذلك دليل على أمور : منها قبولهم له . ومنها رضاهم به . ومنها وصولهم اليه بلا مانع ولا عائق . ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم . فكما أخذوا ماأمرهم به فى الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر ، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك . ثم ذكر السبب الذى أوصلهم إلى ذلك ، وهو احسانهم المتضمن لعبادته وحده لاشريك له ، والقيام بحقوقه ، وحقوق عباده . ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه

وقدقيل : ان(ما)نافية ، والمعنى مايهجعون قليلا من الليل ، فكيف بالكثير ؟ وهذا ضعيف لوجوه ﴿ أحدها ﴾ أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء ﴿ الثانى ﴾ أن قيام من نام من الليل نصفه أحب الى الله من قيام من قامه كله ﴿ الثالث ﴾ أنه لوكان المراد بذلك احياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وماقام ليلة حتى الصباح ﴿ الرابع ﴾ أن الله سبحانه إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل لافى الليل كله . فقال(١٧ : ٧٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ) ﴿ الخامس ﴾ أنه سبحانه

لما أمره بقيام الليل فى سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف ، أو النقصان منه ، أو الزيادة عليه . فذكر له هذه المراتب الثلاثة ، ولم يذكر قيامه كله ﴿السادس﴾ أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث اليه ، فجاء فقال « ياعثمان أرغبتَ عن سنتى ؟ » قال : لا والله يارسول ، ولكن سنتك أطلب . قال « فانى أنام وأصلى ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله ياعثمان ، فان لأهلك عليك حقاً ، وان لِضَيفِكَ عليك حقاً ، وان لنفسك عليك حقا ، فصُمْ وأفطِرْ ، وصَلِّ ونَمْ (١) » ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلى الليل كله حتى جعلت حبلا بين ساريتين إذا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ أنكر ذلك وأمر بحله (٢) ﴿السابع﴾ أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة . ولهذا جازاهم عن هذا التجافى ـ الذى سببه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم الى الصلاة ـ بقرة الأعين ﴿الثامن﴾ أن الصحابة الذين هم أول وأولى من دخل فى هذه الآية ـ لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلا . فروى بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس فى قوله (كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) قال : كانوا يصلون مابين المغرب والعشاء ﴿التاسع﴾ أن فى هذا التقرير تفكيكاً للكلام

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذى من حديث عائشة

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس بن مالك .

و تقديماً لمعمول العامل المنفى عليه ، لانك تجعل قليلا مفعول يهجعون ، وهو منفى . والبصريون لايجيزون ذلك وان أجازه الكوفيون . وفصل بعضهم ، فأجازه فى الظرف ، ولم يجزه فى غيره

(٨١) فصل

وقيل : مازائدة ، وخبر كان (يَهْجَعُونَ) و (قليلا) منصوب إما على المصدرية ، أى هجوعا قليلا . وإما على الظرف ، أى زمنا قليلا .

واستشكل هذا بأن نوم نصف الليل وقيام ثلثه ، ثم نوم سدسه أحبّ القيام الى الله . فيكون وقت الهجوع أكثر من وقت القيام . فكيف يثنى عليهم بما الأفضل خلافه ؟

وأجيب عن ذلك بأن من قام هذا القيام فزمن هجوعه أقل من زمن يقظته قطعا . فانه مستيقظ من المغرب إلى العشاء ، ومن الفجر الى طلوع الشمس . فيبقى مابين العشاء إلى طلوع الفجر ، فيقومون نصف ذلك الوقت . فيكون زمن الهجوع أقل من زمن الاستيقاظ

وقيل : مامصدرية ، وهى فى موضع رفع بقليل ، أى كانوا قليلا هجوعهم . وهو قول الحسن . وقيل : انها موصولة بمعنى الذى ، والعائد محذوف . أى قليلا من الليل الوقت الذى يهجعون . وفيه تكلف . وقيل : مايهجعون بدل اشتمال من اسم كان . والتقدير كان هجوعهم من الليل قليلا . ويرد عليه أن من الليل متعلق بيهجعون ، ومعمول

المصدر لا يتقدم عليه . وأجيب عنه أنه منصوب على التفسير ، ومعناه أن يقدر له فعل محذوف ينصبه مفسره هذا المذكور . وقليلا خبر كان . وتم الكلام بذلك . والمعنى كانوا صنفا أوجنسا قليلا . ثم قال (مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) وأصحاب هذا القول يجعلون ما نافية ، فيعود الكلام الى نفى هجوعهم شيئا من الليل . وقد تقدم ما فيه

ثم أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر . فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة . فباتوا لربهم سجداً وقياما . ثم تابوا اليه واستغفروه عقيب ذلك . وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا . وأمره الله سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار . وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار . وشرع صلى الله عليه وسلم للمتوضىء أن يختم وضوءه بالتوبة . فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار

ثم أخبر سبحانه عن إحسانهم الى الخلق مع إخلاصهم لربهم . فجمع لهم بين الاخلاص والاحسان ، ضد (١٠٧ : ٥ الذين هم يراءون ٦ ويمنعون الماعون) وأكد إخلاصهم فى هذا الاحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم ، الذى لا يقصد باعطائه الجزاء منه ولا الشكور . والمحروم المتعفف الذى لا يسأل

وتأمل حكمة الرب تعالى فى كونه حرمه بقضائه . وشرع لأصحاب الجِدَة اعطاءه ، وهو أغنى الأغنياء ، وأجود الأجودين . فلم يجمع

عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع ، شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره ، فلم يجمع عليه حرمانين

(٨٢) فصل

ثم ذكرهم سبحانه بآياته الأفقية والنفسية ، فقال (وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟) فآيات الارض أنواع كثيرة ، منها خلقها وحدوثها بعد عدمها . وشواهد الحدوث والافتقار الى الصانع عليها لاتجحد . فانها شواهد قائمة بها . ومنها بروز هذا الجانب فيها عن الماء ، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به . ومنها سعتها وكبر خلقها . ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى (٨٨ : ٢٠ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)ولا ينافي ذلك كونها كرية . فهي كرة فى الحقيقة ، لها سطح يستقر عليه الحيوان . ومنها أنه جعلها فراشا لتكون مقر الحيوان ومساكنه . وجعلها قرارا . وجعلها مهادا . وجعلها ذلولا توطأ بالأقدام ، وتضرب بالمعاول ، والفئوس ، وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال . فهى ذلول مسخرة لما يريد العبد منها . وجعلها بساطاً . وجعلها كفاتا للأحياء تضمهم على ظهرها ، والأموات تضمهم فى بطنها . وطحاها فمدها وبسطها ، ووسعها ودحاها ، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل

والفجاج . ونبه بجعلها مهادا وفراشا على حكمته فى جعلها ساكنة .
وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها ، ولا علاقة فوقها ،
ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تَكَفَّأُ فيه تكفأ السفينة .
فاقتضت العناية الأزلية ، والحكمة الالهية أن وضع عليها رواسى
يثبتانها ، لئلا تميد ، وليستقر عليها الأنام ، وجعلها ذلولا على الحكمة
فى أن لم تكن فى غاية الصلابة والشدة كالحديد ، فيمتنع حفرها
وشقها ، والبناء فيها ، والغرس ، والزرع ، وبعث النوم عليها ،
والمشى فيها ، ونبه بكونها قرارا على الحكمة فى أنها لم تخلق فى غاية
اللين والرخاوة والدماثة . فلا تمسك بناء ، ولا يستقر عليها الحيوان
ولا الأجسام الثقيلة . بل جعلها بين الصلابة والدماثة . وأشرف
الجواهر عند الانسان الذهب ، والفضة ، والياقوت ، والزمرد . فلو
كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها ،
وتعطلت المنافع المقصودة منها . وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف
من هذه الجواهر وأنفع وأبرك ، وإن كانت تلك أعلى وأعز . فغلاؤها
وعزتها لقلتها . وإلا فالتراب أنفع منها ، وأبرك ، وأنفس .
وكذلك لم يجعلها شفافة ، فان الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور .
وما كان كذلك لم يقبل السخونة ، فيبقى فى غاية البرد ، فلا يستقر
عليه الحيوان ، ولا يتأتى فيه النبات . وكذلك لم يجعلها صقيلة
براقة ، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس ، كما يشاهد
من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف .

فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء ، فصلحت أن تكون مستقرا للحيوان ، والأنام ، والنبات

ولما كان الحيوان الهوائى لايمكنه أن يعيش فى الماء كالحيوان المائى أبرز له جانبها كما تقدم ، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه وأنشأ منها طعـامه وقوته . وكذلك خلق منها النوع الانسانى ، وأعاده اليها ويخرجه منها

فصل (٨٣)

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس ، والصفات ، والمنافع مع أنهـا قطع متجاورات ، متلاصقة . فهذه سهلة ، وهـذه حزنة ، تجاورها و تلاصقها . وهذه طيبة تنبت ، وتلاصقها أرض لا تنبت . وهذه تربة ، وتلاصقها رمال . وهذه صلبة ، ويلاصقها ويليها رخوة . وهذه سوداء ، ويليها أرض بيضاء . وهذه حصى كلها ، ويجاورها أرض لايوجد فيها حجر . وهذه تصلح لنبات كذا وكذا . وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره . وهذه سبخة مالحة . وهذه بضدها . وهذه ليس فيها جبل ، ولا معلم . وهذه مسجرة بالجبال . وهذه لا تصلح الا على المطر . وهذه لا ينفعها المطر ، بل لا تصلح الا على سقى الأنهار ، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة ، ويسوق الماء اليها على وجه الأرض

فلو سألتها من نوَّعها هـذا التنوع ؟ ومن فرق أجزاءها هـذا

التفريق ؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ؟ ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ؟ ومن أمسكها عن الزوال ؟ ومن بارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها ؟ ومن هيأها مسكناً ومستقراً للأنام ؟ ومن يبدأ الخلق منها ، ثم يعيده اليها ، ثم يخرجه منها ؟ ومن جعلها ذلولا غير مستصعبة ولا ممتنعة ؟ ومن وطأ مناكبها ، وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها ، وأخرج ثمارها ؟ ومن صدعها عن النبات ، وأودع فيها جميع الأقوات ؟ ومن بسطها ، وفرشها ومهدها وذللها ، وطحاها ، ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ؟ ومن الذى يمسكها أن تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم ، أو يخسفها بمن عليها فاذا هى تمور ؟ ومن الذى أنشأ منها النوع الانسانى الذى هو أبدع المخلوقات ، وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ، ونوحاً ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمدا صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين . وأنشأ منها أولياءه ، وأحباءه وعباده الصالحين ؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه ، والأرزاق ، والمعادن ، والحيوان ؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر ، فتعطلت المنفعة الواصلة الى الحيوان

والنبات بسبب ذلك . ولو زادت فى القرب لاشتدت الحرارة والسخونة — كما نشاهده فى الصيف — فاحترقت أبدان الحيوان والنبات . وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التى بها انتظام العالم ؟ ومن الذى جعل فيها الجنات والحدائق ، والعيون ؟ ومن الذى جعل باطنها بيوتا للأموات ؛ وظاهرها بيوتا للأحياء ؟ ومن الذى يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ، ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس ، فتأخذ فى الحبل ، فاذا كان وقت الولادة مخضت للوضع ، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج

فسبحان من جعل السماء كالأب ، والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذى ينعقد منه الولد ، فاذا حصل الحب فى الارض ، ووقع عليه الماء ، أثرت نداوة الطين فيه ، وأعانتها السخونة المختفية فى باطن الأرض ، فوصلت النداوة والحرارة الى باطن الحبة ، فاتسعت الحبة وربت ، وانتفخت ، وانفلقت عن ساقين : ساق من فوقها وهو الشجرة . وساق من تحتها وهو العرق . ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة اليه . ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافا مؤلفة ، كل ذلك صنع الرب الحكيم فى حبة واحدة لعلها تبلغ فى الصغر الى الغاية . وذلك من البركة التى وضعها الله سبحانه فى هذه الأم

فيالها من آية تكفى وحدها فى الدلالة على وجود الخالق ، وصفات

كماله وأفعاله ، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه ، باخراج من في القبور ليوم البعث والنشور

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها ، وامتزاجها ، وحاجة بعضها إلى بعض ، وانفعال بعضها عن بعض ، وتأثيره فيه وتأثره به ، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع ، من التأثر والانفعال ، ولا يستقل الآخر بالتأثير ، ولا يستغنى عن صاحبه ، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة ، مصنوعة ، مربوبة ، مدبرة ، حادثة بعد عدمها ، فقيرة الى موجد غنى عنها ، مؤثر غير متأثر ، قديم غير حادث ، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته ، وتجيب داعي مشيئته ، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته ، وتشهد بعلمه وحكمته ، وتدعو عباده الى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته ، وتحذرهم من بأسه ونقمته ، وتحثهم على المبادرة الى رضوانه وجنته

فانظر إلى الماء والأرض ، كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح ، فحركت الماء ، وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض . ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية ، وحصل بها الانبات . ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية ، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته . فحرارة الربيع للاخراج . وحرارة الصيف للانضاج . هذا وإن الأم واحدة ، والأب واحد ، واللقاح واحد

والأولاد في غاية التباين والتنوع . كما قال تعالى (١٣ : ٤ وفي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

فهذا بعض آيات الأرض . ومن الآيات التي فيها وقائعه سبحانه التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم، المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال تعالى (٢٩ : ٣٨ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ) وقال في قوم لوط (٣٧ : ١٣٧ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ١٣٨ وبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟) وقال (١٥ : ٧٣ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٤ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ٧٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ٧٦ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ) أي بطريق ثابت لا يزول عن حاله ، وقال (١٥ : ٧٨ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ٧٩ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ) أي ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون . وقال تعالى (١٤ : ٤٥ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ) .وقال عن قوم عاد (٤٦ : ٢٥ فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ) وقال (٣٢ : ٢٦ أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا

مِنْ قَبْلِهِم مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ) فأى دلالة أعظم من رجل يخرج وحده ، لاعدة له ولا عدد ، ولا مال . فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والايمان به وطاعته ، ويحذرهم من بأسه ونقمته ، فتتفق كلمتهم ، أو أكثرهم على تكذيبه ، ومعاداته . فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر ، فيغرق المكذبين كلهم تارة ، ويخسف بغيرهم الأرض تارة ، ويهلك آخرين بالريح ، وآخرين بالصيحة ، وآخرين بالمسخ ، وآخرين بالحجارة ، وآخرين بظلة من النار من فوقهم ، وآخرين بالصواعق وآخرين بأنواع العقوبات ، وينجو داعيهم ومن معه . والهالكون أضعاف أضعاف أضعافهم عددا وقوة ، ومنعة وأموالا

فيالك من آيات حق لو اهتدى * بهن مريد الحق ، كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة * فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا ـ ان كانوا على الحق وهم أكثرهم عددا ، وأقوى شوكة ـ بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه ، وهلا اعتصموا من عقوبته ، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل ؟

ومن الآيات التى فى الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى فى الأرض ، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التى قاربت عصر الرسل ،

حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون مايشاهده الأولون أو نظيره ، كما قال (٤١: ٥٣ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ) وهذه الارادة لا تختص بقرن دون قرن . بل لابد أن يرى الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات مايبين لهم أنه الله الذى لااله إلاهو ، وأن رسله صادقون . وآيات الأرض أعظم مما ذكر ، وأكثر ، فنبه باليسير منها على الكثير

(٨٤) فصل

ثم قال (وفى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟) لما كان أقرب الأشياء إلى الانسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره ، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر ، والتفكر فى نفسه . فاذا تفكر الانسان فى نفسه استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل . فانه إذا نظر فى نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة لمدبره ، دالة عليه ، مرشدة اليه ، إذ يجده مكوّنا من قطرة ماء : لحوما منضدة ، وعظاما مركبة ، وأوصالا متعددة ، مأسورة مشدّدة بحبال العروق والأعصاب . قد قطت وشدت ، وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا مابين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم

ومنحن ، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقا ، للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، والصنائع والكتابة

وجعل فيه تسعة أبواب : فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات التى يؤذيه احتباسها

وجعل داخل بابى السمع مرّا قاتلا ، لئلا تلج فيها دابة تخلص الى الدماغ فتؤذيه . وجعل داخل بابى البصر مالحا ، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ماهناك من الشحم . وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً ، ليسيغ به ماياً كله ويشربه . فلا يتنغص به لو كان مرا أو مالحا

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضىء ، مركبين فى أعلى مكان منه ، وفى أشرف عضو من أعضائه ، طليعة له . وركب هذا النور فى جزء صغير جدا يبصر به السماء والأرض ومابينهما ، وغشاه بسبع طبقات وثلاث رطوبات ، بعضها فوق بعض ، حماية له وصيانة وحراسة . وجعل على محله غلقا بمصراعين أعلا وأسفل ، وركب فى ذيل المصراعين أهدابا من الشعر وقاية للعين ، وزينة وجمالا . وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر ، يحجبان العين من العرق النازل ، ويتلقيان عنها ماينصب من هناك . وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شغلا مخصوصا ، ولكل واحد

من الرطوبات مقـدارا مخصوصا ، لوزاد على ذلك أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة . وجعل هـذا النور الباصر فى قدر عدسة . ثم أظهر فى تلك العدسة صورة السماء والأرض ، والشمس والقمر والنجوم ، والجبال ، والعالم العلوى والسفلى ، مع اتساع أطرافه ، وتباعد أقطاره . واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضا وسوادا ، وجعل القوة الباصرة فى السواد ، وجعل البياض مستقرا لها ومسكنا ، وزين كلا منهما بالآخر . وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم ، والحواجب بالأهداب ، وجعلها سوداء ، إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر ، فضعف الادراك ، فان السواد يجمع البصر ، ويمنع من تفرق النور الباصر . وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعا وعشرين عضلة ، لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين

ولما كانت العين كالمرآة ، التى إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت فى غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جدا بالطبع إلى الانطباق ، من غير تكلف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الـكدورات . ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفانا فانها لاتزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والـكدورات

فصل (٨٥)

وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب مايريانه ، فيوصلانه

اليه كما تراه جعلهما مرآتين للقلب ، يظهر فيهما ماهو مودع فيه من الحب والبغض ، والخير والشر ، والبلادة والفطنة ، والزيغ والاستقامة . فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة : وهي فراسة العين ، وفراسة الأذن ، وفراسة القلب . فالعين مرآة للقلب ، وطليعة ورسول . ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء ، وأبعدها تأثراً بالحر والبرد ، على أن الأذن على صلابتها وغلظها لتتأثر بهما أكثر من تأثر العين على لطافتها . وليس ذلك بسبب الغطاء الذى عليها من الأجفان ؛ فانها لو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة

(٨٦) فصل

ومن ذلك الأذنان ، شقهما تبارك وتعالى فى جانبي الوجه ، وأودعهما من الرطوبة مايكون معينا على إدراك السمع . وأودعهما القوة السمعية . وجعل سبحانه فى هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات ، لتطول المسافة قليلا ، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته ، فلا يصدمها وهلة واحدة ، فيؤذيها . وأيضا لئلا يفجأها الداخل اليها من الدبيب والحشرات ، بل إذا دخل الى عوجة من تلك الانعطافات وقف هناك ، فسهل اخراجه

وكانت العينان فى وسط الوجه والاذنان فى جانبيه ، لأن العينين محل الملاحة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذى يمشى بين

يدى الانسان . وأما الاذنان فكان جعلهما فى الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الانسان ، وامامه ، وعن يمينه ، وعن شماله سواء . فتأتى المسموعات اليهما على نسبة واحدة . وخلقت العينان بغطاء ، والأذنان بغير غطاء . وهذا فى غاية الحكمة . اذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت ، فلا يحصل الا بعد ارتفاع الغطاء . والصوت عرض لا ثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ماتراه العين ، فانه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين . وجعل سبحانه الأذن عضوا غُضْروفِيًّا ليس بلحم مسترخ ، ولا عظم صلب ، بل هى بين الصلابة واللين ، فتقبل بلينها ، وتحفظ بصلابتها ، ولا تتصدع انصداع العظام ، ولا تتأثر بالحر والبرد ، والشمس والسموم تأثر اللحم . إذ المصلحة فى بروزها لتتلقى مايرد عليها من الأصوات والاخبار

فصل (٨٧)

ومن ذلك الأنف ، نصبه سبحانه فى وسط الوجه قائما معتدلا ، فى أحسن شكل وأوفقه للمنفعة ، وأودعه حاسة الشم ، التى يدرك بها الروائح وأنواعها ، وكيفياتها ، ومنافعها ، ومضارها . ويستدل بها على مضار الأغذية والأدوية ، ومنافعها . وأيضا فانه يستنشق بالمنخرين الهواء البارد الرطب ، فيؤديه الى القلب ، فيتروح به ، فيستغنى بذلك عن فتح الفم أبدا . وجعل تجويفه بقدر الحاجة ، فلم يوسعه عن

ذلك ، فيدخله هواء كثير ، ولم يضيقه فلا يدخله من الهواء مايكفيه . وجعل ذلك التجويف مستطيلا ، لينحصر فيه الهواء ، وينكسر برده وحدته قبل أن يصل إلى الدماغ . فلولا ذلك لصدمه بحدته وقوته

والهواء الذى يستنشقه الانف ينقسم شطرين : شطرا يصعد الى الدماغ ، وشطرا ينزل الى الرئة ، وهو من آلات النطق ، فان له اعانة على تقطيع الحروف . وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء ، فانه جعل مصبا لفضلات الدماغ ، تنحدر منه فى تلك القصبة ، فيخرج ، فيستريح الدماغ ، ولذلك جعل عليها سترا ، ولم يجعلها بارزة فتستقبحها العيون . وجعل فيها تجويفا . فانه قد ينسد أحدهما ، أو يعرض له آفة تمنعه من الادراك والاستنشاق ، فيبقى التجويف الثانى نائبا عنه يعمل عمله ، كما اقتضت الحكمة مثل ذلك فى العينين

ثم تأمل الهواء الذى يستنشقه الأنف ، كيف يدخل أولا من المنخرين ، وينكسر برده هناك . ثم يصل الى الحلق ، فيعتدل مزاجه هناك . ثم يصل الى الرئة ألطف مايكون . ثم تبعثه الرئة الى القلب ، فيروّح عن الحرارة الغريزية التى فيه . ثم ينفذ من القلب الى العروق المتحركة ، ويبلغ الى أقاصى أطراف البدن . ثم اذا سخن فى الباطن وخرج عن حد الانتفاع خرج عن تلك الأقاصى الى البدن ، ثم الى الرئة ، ثم إلى الحلقوم ، ثم الى المنخرين خارجا ، فيخرج منهما ويعود عوضه هواء بارد نافع . والنفس الواحد من أنفاس العبد إنما يتم بمجموع هذه الامور والقوى ، والافعال . وهو له فى اليوم والليلة

أربعة وعشرون الف نفس ، لله فى كل نفس عدة نعم ، قد وقفت على القليل منها ، فما ظنك بما وراء التنفس من الأعضاء ، والقوى ، ومنافعها ، وتمام النعمة بها ؟

فصل (٨٨)

وأما الفم فمحل العجائب ، وباب الطعام ، والشراب ، والنفس ، والكلام ، ومسكن اللسان الناطق الذى هو آلة العلوم ، وترجمان القلب ، ورسوله المؤدى عنه .

ولما كان القلب ملك البدن ، ومعدنا للحرارة الغريزية ، فاذا دخل الهواء البارد وصل اليه فاعتدلت حرارته وبقى هنالك ساعة فسخن واحترق ، فاحتاج القلب إلى دفعه واخراجه . فجعل أحكم الحاكمين اخراجه سببا لحدوث الصوت فى الحنجرة ، والحنك ، واللسان ، والشفتين ، والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة . وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدى بها عن القلب ما يأمر به

فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغنى عنه المحتاج الى دفعه واخراجه ، بل جعل فيه إذا استغنى عنه منفعة ومصلحة هى من أكمل المنافع والمصالح . فان المقصود الأصلى من النفس هو اتصال الريح البارد الى القلب . فأما اخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة . فصرف ذلك سبحانه الى رعاية مصلحة ومنفعة أخرى . وجعله سببا للأصوات والحروف والكلام

ثم انه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال : فى الضيق ، والسعة ، والخشونة ، والملاسة ، لتختلف الأصوات باختلافها . فلا يتشابه صوتان كما لاتتشابه صورتان . وهذا من أظهر الأدلة . فان هذا الاختلاف ـ الذى بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددها فقلما يشتبه صوتان أوصورتان ـ ليس فى الطبيعة مايقتضيه . وانما هو صنع الله الذى أتقن كل شيء ، وأحسن كل شيء خلقه . فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين . فميز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر

(١٩) فصل

وأودع اللسان من المنافع منفعة الكلام ـ وهى أعظمها ـ ومنفعة الذوق والادراك ، وجعله دليلا على اعتدال مزاج القلب وانحرافه ، كما جعله دليلا على استقامته واعوجاجه . فترى الطبيب يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة ، والملاسة ، والبياض والحمرة ، والتشقق وغيره ، على حال القلب والمزاج . وهو دليل قوى على أحوال المعدة والامعاء ، كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام على مافى القلب ، فيبدو عليه صحة القلب وفساده معنى وصورة

فصل (٩٠)

وجعل سبحانه اللسان عضواً لحيا ، لا عظم فيه ولا عصب ، لتسهل حركته . ولهذا لا تجد فى الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه . فان أى عضو من الاعضاء اذا حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك ، ولم يلبث أن يكل ويخلد الى السكون ، الا اللسان . وأيضا فانه من أعدل الاعضاء وألطفها ، وهو فى الاعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه . فمزاجه من أعدل أمزجة البدن ويحتاج الى قبض وبسط ، وحركة فى أقاصى الفم وجوانبه . فلو كان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك ، ولم يتهيأ منه الكلام التام ولا الذوق التام . فكونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلى والغائى . والله أعلم

فصل (٩١)

وجعل سبحانه على اللسان غلقين : أحدهما الاسنان ، والثانى الفم . وجعل حركته اختيارية . وجعل على العين غطاء واحدا . ولم يجعل على الاذن غطاء . وذلك لخطر اللسان وشرفه ، وخطر حركاته ، وكونه فى الفم بمنزلة القلب فى الصدر . وذلك من اللطائف . فان آفة الكلام أكثر من آفة النظر ، وآفة النظر أكثر من آفة السمع . فجعل للاكثر آفات طبقين ، وللمتوسط طبقا . وجعل الأقل آفة بلا طبق

فصل (٩٢)

وجعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة ، والريق يتحلل اليه دائما لا يفارقه . وجعله حلواً لا مالحاً كماء العين ، ولا مراً كالذى فى الأذن ، ولا عفنا كالذى فى الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها . حكمة بالغة . فان الطعام والشراب يخالطه ، بل هو الذى يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء . فلو لا أنه حلو لما التذ الانسان ، بل ولا الحيوان ، بطعام ولا شراب ولا ساغه الا على كره وتنغيص . ولما كان كثير من الطعام لا يمكن تحوله الا بعد طبخه ، جعل الرب تعالى له آلة للتقطيع والتفصيل ، وآلة للطحن . فجعل آلة القطع - وهى الثنايا وما يليها - حادة الرؤس ليسهل بها القطع . وجعل النواجذ وما يليها من الأضراس مسطحة الرؤس ، عريضة ، ليتأتى بها الطحن . ونظمها أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم فى سلك ، وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ، ليتأتى بها القطع والطحن . وجعلها من الجانب الايمن والأيسر ، اذ ربما كلت احدى الآلتين ، أو تعطلت أو عرض لها عارض . فينتقل الى الآلة الأخرى . وأيضا لو كان العمل على جانب واحد دائما أوشك أن يتعطل ويضعف

. وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم ، وتخرج من خلاله نابتة ، كما ينبت الزرع فى الارض ، ولم يكسها سبحانه لحما ،

كسائر العظام سواها ، اذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة
ولما كانت العظام محتاجة الى لحم يكسوها ويحفظها ، ويتلقى عنها
الحرارة والبرد ، ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكمل مصلحة الحيوان
الا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الانسان محتاجة الى ذلك
من وجه مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها
وجعلت هى المكتسية العارية لتمام المنفعة بذلك . ولما كانت آلة
القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته - كسائر
عظامه ، لعدم الحاجة اليها - عطل عنها وقت استغنائه عنها
بالرضاع ، وأعطيها وقت حاجته اليها . وفيه حكمة أخرى ،
وهى أنه لو نشأت معه من حين يولد لأضرت بحلمة الثدى . اذ
لا عقل له يحجزه عن عضها ، فكانت الأم تمتنع من ارضاعه

ومن عجيب أمرها الاتفاق والموالاة التى بينها وبين المعدة ،
فانه يسلم اليها الشىء اليابس والصلب فتطحنه ، ثم تسلمه الى
اللسان فيعجنه . ثم اللسان يسلمه الى الحلق فيوصله الى المعدة فتنضجه
وتطبخه . ثم يرسل اليها منه معلومها المقدر لها . فاذا عجزت عن
قطع شىء وطحنه عجزت المعدة عن انضاجه وطبخه . واذا كلت
الأسنان كلت المعدة ، واذا ضعفت ضعفت

وهى تصحب الانسان وتخدمه ما لم يرها ، فاذا وقعت عينه

عليها فارقته الأبد (١) وهى سلاح ومنشار، وسكين، وروح، وزينة. وفيها منافع ومصالح غير هذه

فصل (٩٣)

ثم تأمل حال الشعر ومنبته وسببه. فان البدن لما كان حارا رطبا. والحرارة اذا عملت فى الرطوبة فلابد أن تثير بخارا، وتلك الابخرة تتصاعد من عمق البدن الى سطحه، وتريد الانفصال من هناك، فلابد أن تحدث مساما ومنافذ فى ظاهر الجلد. وتلك الأبخرة اما أن تكون رطبة لطيفة، فحينئذ تنفصل من المسام ولا تحدث شيئا. واما أن تكون دخانية يابسة غليظة، فالجلد حينئذ إما أن يكون فى نهاية النعومة والنضارة، كجلد الصبيان، أو فى غاية اليبس والقشف، أو يكون معتدلا، فاذ ذاك لا يتولد فيه الشعر. لأن البخار اذا شق سطح الجلد وانفصل عاد الجلد فى الحال الى اتصاله الأول، بسبب كثرة رطوبته ونعومته. مثاله السمك اذا رفع رأسه من الماء انشق له الماء، فاذا عاد الى الماء عاد الماء الى اتصاله الاول، وكذلك نشاهد الأشياء الرطبة -كالنشاء مثلا- اذا أغلى فخرج البخار من موضع الغليان عادت الرطوبة الى الموضع الذى خرج منه ذلك البخار فسدته، فان كان

(١) كأن الشيخ رحمه الله يريد الرؤية التى تكون بخلعها عن موضعها لا التى تكون بالمرآة مثلا

الجلد فى غاية اليبس لم يتولد الشعر ، لان الجلد اليابس اذا اثقب بقيت تلك الثقب مفتوحة ليبس الجلد ، فيفرق أجزاءه البخار ولا يجتمع بعضه الى بعض . فان الجلد متوسط بين النعومة والكثافة، فانه ينفتح فيه المسام بسبب تلك الأبخرة ولا يعود ينسد بعد خروج البخار . ولكن لا تبقى المسام شديدة الانفتاح ، وحينئذ يبقى ذلك البخار الدخانى فى تلك الثقبة لا يزال يمده بخار آخر يدفعه أولا فأولا الى خارج ، من غير أن ينقطع أصله ، فيبقى بعضه مركوزا فى الجلد ، منزلته منزلة أصل النبات . وبعضه يطلع الى خارج ، منزلته منزلة ساق النبات . وكذلك الشعر . فمادة الشعر هى البخار الدخانى اليابس . وسببه هو الحرارة الطبيعية المحرقة لذلك البخار ، والآلة التى بها يتم أمره هى المسام التى ارتكن فيها البخار فتلبد هناك فصار شعرا باذن الله تعالى

والغاية التى من أجلها وجد شيئان : أحدهما عام ، وهو تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة . والآخر خاص ، وهو إما للزينة ، وإما للوقاية

واذا بان أن الشعر انما يتولد مع الحرارة واليبس المعتدل بقيت ثلاثة أقسام : أحدها حرارة غالبة على اليبس ، كالصبيان . الثانى عكسه ، وهو يبس غالب على الحرارة ، كالمشائخ . الثالث حرارة ضعيفة ويبس ضعيف ، كأبدان النساء . فى هذه الأقسام

يقل الشعر . وأما الشباب فان حرارة أبدانهم ويبسهم معتدله فيقوى تولد الشعر فيهم

وفى شعر الرأس منافع ومصالح : منها وقايته عن الحر والبرد والمرض . ومنها الزينة والحسن

والسبب الذى صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن هو أن البخار شأنه أن يصعد من جميع البدن إلى الدماغ ، ومن الدماغ الى فوق . وكان هذا الشعر ناميا على الدوام ، لأن البخار يتصاعد الى الرأس أبدا ، وهو مادة الشعر ، فبنماء الشعر ينمو البخار . وكان فيه تخليص للبدن من تلك المواد وتكثير لوقايته وغطائه

(٩٤ فصل

وأما شعر الحاجبين ففيه - مع الحسن والزينة والجمال - وقاية العين مما ينحدر من الرأس . وجعل على هذا المقدار لانه لو نقص عنه لزالت منفعة الجمال والوقاية . ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما تدركه . وقد ذكرنا منفعة شعر الهدب

ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائما منتصباً وأن يكون باقيا على حال واحد فى مقدار واحد ، جعل منبت هذا الشعر فى جرم صلب شبيه بالغضروف ، يمتد فى طول الجفن لئلا يطول وينمو . وهذا كما نشاهد النبات الذى ينبت فى الأرض الرخوة اللينة فانه يطول ويزداد ، والذى ينبت فى الأرض

الصخرية الصلبة لاينمو الا نموا يسيرا . فكذلك الشعر النابت في الأعضاء اللينة الرطبة،فانه سريع النمو كشعر الرأس والعانة

(٩٥) فصل

وأما شعر اللحية ففيه منافع : منها الزينة ، والوقار ، والهيبة . ولهذا لايرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار مايرى على على ذوى اللحى . ومنها التميز بين الرجال والنساء

فان قيل : لو كان شعر اللحية زينة لكان النساء أولى به من الرجال ، لحاجتهن إلى الزينة ، وكان التميز يحصل بخلو الرجال منه، ولكان أهل الجنة أولى به . وقد ثبت أنهم جرد مرد ؟

قيل : الجواب أن النساء لما كن محل الاستمتاع والتقبيل ، كان الأحسن والأولى خلوهن عن اللحى . فان محل الاستمتاع إذا خلا عن الشعر كان أتم . ولهذا المعنى - والله أعلم - كان أهل الجنة مردا ، ليكمل استمتاع نسائهم بهم ، كما يكمل استمتاعهم بهن . وأيضا فانه أكشف لمحاسن الوجوه . فان الشعر يستر ماتحته من البشرة أن يمس بشرة المرأة . والله أعلم بحكمته فى خلقه

(٩٦) فصل

وأما شعر العانة، والابط، والأنف فمنفعته تنقية البدن من الفضلة، ولهذا إذا أزيل من هذا الموضع وجد البدن خفة ونشاطا . وإذا

وفر وجد ثقلا وكسلا وغما . ولهذا جاءت الشريعة بحلق العانة ، ونتف الابط . وكان حلق العانة أولى من نتفها لصلابة الشعر وتأذى صاحبها بنتفه ، وكان نتف الابط أولى من حلقه لضعف الشعر هناك وشدته وتعجل نباته بالحلق . فجاءت الشريعة بالأنفع فى هذا وهذا

فصل (٩٧)

وتأمل حكمة الرب تعالى فى كونه أخلى الكفين والجبهة والأخمصين من الشعر . فان الكفين خلقا حاكمين على الملموسات فلو حصل الشعر فيهما لأخل بذلك ، وخلقا للقبض ، وإلصاق اللحم على المقبوض أعون على جودته من التصاق الشعر به . وأيضا فانهما آلة الأخذ والعطاء ، والأكل ، ووجود الشعر فيهما يخل بتمام هذه المنفعة

وأما الأخمصان فلو نبت الشعر فيهما لأضر بالماشى وأعاقه فى المشى كثيرا مما يعلق بشعره مما على الأرض ، ويتعلق شعره بما عليها أيضا . هذا مع أن أكثر الأوتار والأغشية فى الكفين مانع من نفوذ الأبخرة فيها . وأما الأخمصين فان الأبخرة تتصاعد الى علو ، وكلما تصاعد كان الشعر أكثر . وأيضا فان كثرة وطء الأرض بالأخمصين يصلبهما ويجعل سطحهما أملس لاينبت شيئا ، كما أن الأرض التى توطأ كثيرا لاتنبت شيئا

وأما الجبهة فلو نبت الشعر عليها لستر محاسنها ، واظلم الوجه ، وتدلى على العين . وكان يحتاج الى حلقه دائما ، ومنع العينين من كمال الادراك . والسبب المؤدى لذلك أن الذى تحت عظم الجبهة هو مقدم الدماغ ، وهو بارد رطب ، والبخار لا يتحرك منحرفا الى الجبهة ، بل صاعدا الى فوق

فان قيل : لم نبت شعر الصبي على رأسه وحاجبيه وأجفانه معه من الصغر دون سائر الشعور ؟

قيل : لشدة الحاجة الى هذه الشعور الثلاثة أوجدها الله سبحانه معه وهو جنين فى بطن أمه . فان شعر الرأس كالغطاء الواقى له من الآفات . والأهداب والأجفان وقاية للعين

فان قيل : فلم لم تنبت له اللحية الا بعد بلوغه ؟

قيل : لأنه عند البلوغ تجتمع الحرارة فى بدنه ، وتكون أقوى ماهى . ولهذا يعرض له فى مثل هذا الطور البثرات والدمامل ، وكثرة الاحتلام . واذا كثرت الحرارة كثرت الأبخرة بسبب التحلل ، وزادت على القدر المحتاج اليه فى شعر الرأس ، فصرفها أحكم الحاكمين الى نبات اللحية والعانة . وأيضا فان بين أوعية المنى وبين اللحية ارتباط ؛ اذ العروق والمجارى متصلة بينهما . فاذا تعطلت أوعية المنى ويبست تعطل شعر اللحية ، واذا قلت الرطوبة والحرارة هناك قل شعر اللحية ؛ ولهذا فان الخصيان لا ينبت لهم لحى

فان قيل : فما العلة فى الكوسج ؟ قيل : برد مزاجه ونقصان حرارته .

فان قيل : فما السبب فى الصلع ؟ قيل : عدم احتباس الأبخرة فى موضع الصلع

فان قيل : فلم كان فى مقدم الرأس دون جوانبه ومؤخره ؟ قيل : لأن الجزء المقدم من الرأس بسبب رطوبة الدماغ يكون أكثر لينا وتحللا . فتحلل الفضلات التى يكون منها الشعر ، فلا يبقى للشعر مادة هناك

فان قيل : فلم لم يحدث فى الأصداغ ؟ قيل : ان الرطوبة فى الأسافل أكثر منها فى الأعالى . وشاهده الأرض العالية والمنخفضة

فان قيل : فلم لم تصلع المرأة إلا نادرا ، وكان الصلع فى الرجال أكثر ؟ قيل : لان الاصل أنه يحدث من يبس فى الجلد بمنزلة احتراقه ذلك لقوة الحرارة . واما النساء فالرطوبة والبرودة أغلب عليهن . ولهذا فان جلودهن أرطب من جلود الرجال ، فلا تجف جلود رؤسهن . فلا يعرض لهن الصلع . ولهذا لا يعرض للصبيان ، وان عرض للمرأة صلع فذلك فى سن يبسها وبلوغها من الكبر عتيا

فان قيل : فما السبب فى شدة سواد الشعر ؟ قيل : شدة البخارات الخارجة من البدن واعتدالها ، وصحة مادتها كخضرة الزرع

فان قيل : ماسبب الصهوبة ؟ قيل : برد المزاج ، فتضعف الحرارة عن صبغ الشعر وتسويده

فان قيل : فما سبب الشقرة والحمرة ؟ قيل : زيادة الحرارة ، فتصبغ الشعر . ولهذا تجد الشقر أشد حرارة وأكثر حركة وهمة

فان قيل : فما سبب البياض ؟ قيل : البياض نوعان : أحدهما طبيعى ، وهو الشيب . والثانى خارج عن الطبيعة ، وهو مايوجد فى أواخر الأمراض المجففة بسبب تحلل الرطوبات ، كما يعرض للنبات عند الجفاف

فان قيل : فما سبب الطبيعى ؟ قيل : اختلف فى ذلك . فقالت طائفة : سببه الاستحالة الى لون البلغم ، بسبب ضعف الحرارة فى أبدان الشيوخ . وقالت طائفة : سببه أن الغذاء الصائر الى الشعر يصير باردا ، بسبب نقصان الحرارة ، ويكون بطىء الحركة مدة نفوذه الى المسام ، وجمعت طائفة بين القولين ، وقالوا : العلة فى الأمرين واحدة ، وسببها نقصان الحرارة

فان قيل : فلم اختص الشيب بالانسان من بين سائر الحيوان ؟ قيل : لأن لحم الانسان وجلده رخوين ، وجلود الحيوانات ولحومها أقوى وأصلب . فلما غلظت مادة الشعر فيها لم يعرض له ما يعرض لشعر الانسان . ولهذا يكون شعرها كلها معها من حين ولادتها ، بخلاف الانسان . وأيضا فان الانسان يستعمل المطاعم المركبة المتنوعة وكذا المشارب ، ويتناول أكثر من حاجته ، فتجتمع فيه فضلات كثيرة ، فتدفعها الطبيعة الى ظاهر البدن . فما دامت الحرارة قوية فانها تقوى على احراق تلك الفضلات ، فيتولد من إحراقها

الشعر الاسود . فاذا بلغ الشيخوخة ضعفت الحرارة وعجزت عن احراق تلك الفضلات ، فتعمل فيها عملا ضعيفا . وأما سائر الحيوانات فلا تتناول الأغذية المركبة وتتناول منها على قدر الحاجة . فلا يشيب شعرها . كما يشيب شعر الانسان . وأيضا فان فى زمن الشيخوخة يكون أقل حرارة وأكثر رطوبة فيتولد البلغم ، واما الحيوانات فاليبس غالب عليها

فان قيل : فلم كان شيب الاصداغ فى الأكثر مقدما على غيره ؟ قيل : لقرب هذا الموضع من مقدم الدماغ ، والرطوبة فى مقدم الدماغ كثيرة ، لان الموضع مفصل ، والمفصل تجتمع فيه الفضلة الكثيرة ، فيكثر البرد هناك ، فيسرع الشيب

فان قيل : فلم أسرع الشيب فى شعور الخصيان والنساء ؟ قيل أما النساء فلبرد مزاجهن فى الاصل ، ولاجتماع الفضلات الكثيرة فيهن . وأما الخصيان فلتوافر المنى على أبدانهم يصير دمهم غليظا بلغميا ولهذا لا يحدث لهم الصلع

فان قيل : فلم كان شعر الابط لا يبيض ؟ قيل : لقوة حرارة هذا الموضع بسبب قربه من القلب ومسامه كثيرة بلغمية ، لانها تتحلل بالعرق الدائم

فان قيل : فلم أبطأ بياض شعر العانة ؟ قيل : لأن حركة الجماع تحلل البلغم الذى فى مسامه

فان قيل : فلم كانت الحيوانات تبدل شعورها كل سنة ، بخلاف

الانسان ؟ قيل : لضعف شعورها عن الدوام والبقاء ، بخلاف شعر الآدمى

فان قيل : فما سبب الجعودة والسبوطة ؟ قيل : أما الجعودة فمن شدة الحرارة ، أو من التواء المسام ، فالذى من شدة الحرارة فانه تعرض منه الجعودة كما تعرض للشعر عند عرضه على النار . وأما الذى لالتواء المسام فلأن البخار لضعفه لا يقدر أن ينفذ على الاستقامة فيلتوى فى المنافذ ، فتحدث الجعودة

فان قيل : فما السبب فى طول شعر الميت وأظفاره بعد موته اذا بقى مدة ؟ قيل : عنه جوابان : أحدهما أنها لا تطول ، ولكن لما ينقص ما حولها يظن أنها زادت . الثانى - وهو أصوب - أن ذلك الطول من الفضلات البخارية التى تتحلل وهلة من الميت ، فيمتد معها الشعر والظفر

فان قيل : فلم كان المريض - وخاصة المحموم - ينقص لحمه ويزيد شعره ؟ قيل : ان فى المرض تكثر الفضلات ، فتطول الشعور والأظفار بها ، ويثقل الغذاء فيذوب اللحم . وأما فى الصحة فتقل الفضلات فلا تحتاج الطبيعة الى الغذاء وهضمها له ، واذا قلت الفضلات نفدت مادة الشعر ، فيبطىء

فان قيل : فما العلة فى انتصاب شعر الخائف والمقرور ، حتى يبقى كشعر القنفذ ؟ قيل : العلة فيه أن الجلد ينقبض وتجتمع المسام على الشعر وتتضايق عليه فينتصب

فان قيل : فلم انتصب شعر البدن واللحية واللحيين؟(١)

فان قيل : فلم كانت كثرة الجماع تزيد فى شعر اللحية والجسد وتنقص من شعر الرأس والأجفان ؟ قيل : لأن الشعر فيه ما يكون طبيعيا من أول الخلقة . كاللحية وسائر شعر البدن . والأول يكون من قوة الحرارة الأصلية . والثانى من قوة الحرارة الخارجية ، فلا جرم نقصت بسببه الشعور الأصلية وتوفرت العرضية

فان قيل : فلم كان الشعر فى الانسان فى الجزء المقدم أكثر منه فى المؤخر ، وباقى الحيوانات بالعكس ؟ قيل لأن الشعر إنما يكون حيث تكون الحرارة قوية ، ويكون تحلل الجلد أكثر ، وهذا فى الانسان فى ناحية الصدر والبطن ، وأما جلدة الظهر فتكاثفة وأما ذوات الأربع ففى الخلف شعورها أكثر ، لأن البخار فيها يرقى الى الخلف ، وأن تلك المواضع هى التى تتلقى الحر والبرد ، فتحتاج الى وقاء أكثر

فان قيل : فلم كان الرأس بالشعر أحق الأعضاء ونباته أكثر ؟ قيل : لأن البخار يتصاعد ويطلب جهة الفوق وهو الرأس

ولا تستطل هذا الفصل فان أمر الشعر من السمات والفضلات وهذا شأنه ، فما الظن بغيره من الأجزاء الأصلية ؟ فاذا كانت هذه قليلة من كثير من حكمة الرب تعالى فى الشعور ومواضعها ومنافعها

---

(١) سقط جواب هذا السؤال ، ولعله بقية جواب السؤال الذي قبله . فتحرف الكلام عنه الى ماترى . فتأمل

فكيف بحكمته فى الرأس ، والقلب ، والكبد ، والصدر ، وغيرها ؟ ولا تضجر من ذلك ، فان الخلق فيه من الفقه والحكم نظير ما فى الامر . فالرب تعالى حكيم فى خلقه وأمره ، ويحب من يفقه عنه ذلك ، ويستدل على كمال حكمته ، وعلمه ، ولطفه ، وتدبيره ، فاذا كان الله لم يضع هذه الفضلات فى الانسان سدى فما الظن بغيرها ؟

(٩٨) فصل

ونحن نذكر فصلا مختصرا فى حال الانسان من مبدئه الى نهايته لنجعله مرآة له ينظر فيها قول خالقه وبارئه (٥١ : ٢١ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟)

لما اقتضى كمال الرب تعالى ـ جل جلاله ـ وقدرته التامة ، وعلمه المحيط ، ومشيئته النافذة ، وحكمته البالغة ، تنويع خلقه من المواد المتباينة . وأنشأهم من الصور المختلفة ، والتباين العظيم بينهم فى المواد والصور والصفات والهيئات والاشكال والطبائع والقوى ، اقتضت حكمته أن أخذ من الارض قبضة من التراب ، ثم ألقى عليها الماء ، فصارت مثل الحمأ المسنون ، ثم أرسل عليها الريح فجففها ، حتى صارت صلصالا كالفخار ، ثم قدر لها الاعضاء والمنافذ والاوصال والرطوبات ، وصورها فأبدع فى تصويرها ، وأظهرها فى أحسن الاشكال ، وفصلها أحسن تفصيل ، مع اتصال

أجزائها ، وهيأ كل جزء منها لما يراد منه ، وقدره لما خلق له على أبلغ الوجوه ، ففصلها فى توصيلها ، وأبدع فى تصويرها وتشكيلها . والملائكة تراها ولا تعرف مايراد منها ، وابليس يطيف بها ، ويقول : لامر ماخلقت . فلما تكامل تصويرها ، وتشكيلها ، وتقدير أعضائها وأوصالها وصارت جسدا مصورا مشكلا كأنه ينطق ، الا أنه لاروح فيه ولا حياة ، أرسل اليه روحه ، فنفخ فيه نفخة ، وانقلب ذلك الطين لحما ودما وعظاما وعروقا وسمعا وبصرا وشما ولمسا وحركة وكلاما . فأول شيء بدأ به أن قال « الحمد لله رب العالمين » فقال له خالقه وبارئه ومصوره « يرحمك الله يا آدم » فاستوى جالسا أجمل شيء وأحسنه منظرا ، وأتمه خلقا ، وأبدعه صورة . فقال الرب تعالى لجميع ملائكته (اسْجُدُوا لِآدَمَ) فبادروا بالسجود ، تعظيما وطاعة لامر الواحد المعبود . ثم قال لهم : لنا فى هذه القبضة من التراب شرع أبدع مما ترون ، وجمال باطن أحسن مما تبصرون . فلنزين باطنه أحسن من زينة ظاهره ، ولنجعلنه من أعظم آياتنا ، نعلمه أسماء كل شيء ، مما لاتحسنه الملائكة . فكان التعليم زينة الباطن وجماله ، وذلك التصوير زينة الظاهر فى أكمل شيء وأجمله صورة . ومعنى كل ذلك صنعته تبارك وتعالى فى قبضة من تراب . ثم اشتق منه صورة هى مثله فى الحسن والجمال ، ليسكن اليها وتقر نفسه ، وليخرج من بينهما من لايحصى عدده من الرجال والنساء سواه

(٩٩) فصل

ثم لما أراد الله سبحانه أن يذر نسلهما فى الارض ويكثره . وضع فيهما حرارة الشهوة ونار الشوق والطلب ، وألهم كلا منهما اجتماعه بصاحبه ، فاجتمعا على أمر قد قدر . فاسمع الآن عجائب ماهناك :

لما شاء الرب تعالى أن يخرج نسخة هذا الانسان منه أودع جسده حرارة ، وسلط عليه هيجانها ، فصارت شهوة غالبة ، فاذا هاجت حرارة الجسد تحللت الرطوبات من جميع أجزاء الجسد ، وابتدأت نازلة من خلف الدماغ ، فى عروق خلف الاذنين الى قفا الظهر ، ثم تخرج الى الكليتين . ثم تجتمع فى أوعية المنى ، بعد أن طبختها نار الشهوة ، وعقدتها حتى صار لها قوام وغلظ ، وقصرتها حتى ابيضت ، وقدر لها مجارى وطرق تنفذ فيها . ثم اقتضت حكمته سبحانه أن قدر لخروجها أقوى الاسباب المستفرغة لها من خارج ومن داخل . فقيض لها صورة حسنها فى عين الناظر ، وشوقه اليها ، وساق أحدهما الى الآخر بسلسلة الشهوة والمحبة ، فحن كل منهما الى امتزاجه بصاحبه ، واختلاطه به ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا . وجعل هذا محل الحرث ، وهذا محل البذر . ليلتقى الماءان على أمر قد قدر . وقدر بينهما تلك الحركات لتعمل الحرارة فى تلك الرطوبة والفضلة عملها، واستخرجها من تحت الشعر والبشر والظفر . لتوافق نسخة الأصل ويكون

الداعى الى التناسل فى غاية القوة ، فلا ينقطع النسل . ولهذا لاتجد فى منى الاحتلام من القوة ما فى منى الجماع ، وإنما هو من فضلة حرارة تذيب الرطوبة ، فتنفذ فيها الطبيعة الى خارج ، من نوع تصور خيال بواسطة الشيطان . كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان »

فان قيل : فهذا اختيار منكم لقول من قال : إن المنى يخرج من جميع أجزاء البدن ، وهذا وان كان قد قاله كثير من الناس فقد خالفهم آخرون ، وزعموا أنه فضلة تتولد من الطعام ، وهى من أعدل الفضلات . ولهذا صلحت أن تكون مبدأ الانسان ، وهو جسم متشابه الأجزاء فى نفسه ، قيل : القول الأول هو الصواب ويدل عليه وجوه : منها عموم اللذة بجميع أجزاء البدن . ومنها مشاكلة أعضاء المولود لأعضاء الوالدين . ومنها أن المشابهة الكلية تدل على أن البدن كله أرسل المنى ، ولولا ذلك لكانت المشابهة بحسب محل واحد . فدل على أن كل عضو أرسل قسطه ونصيبه . فلما انعقد وصلب ظهرت محاكاته ومشابهته له . ومنها أن الأمر لو كان كما زعمه أصحاب المقالة الثانية : من أن المنى جسم واحد متشابه فى نفسه لم تتولد منه الأعضاء المختلفة المتشكلة بالأشكال المختلفة . لأن القوة الواحدة لا تفعل فى المادة الواحدة إلا فعلا واحدا . فدل على أن المادة فى نفسها ليست متشابهة الأجزاء . ومنها أن المنى فضلة الهضم الآخر . وذلك إنما يكون عند نضج الدم فى العروق

وكونه مستعدا استعدادا تاما لأن يصير من جوهر الأعضاء .
وكذلك عقيب استفراغه من الضعف . أكثر مما يحصل من
استفراغ أمثالهمن الدم . ولذلك يورث الضعف فى جوهر الأعضاء
الأصلية . فدل على أنهمركبمن أجزاء كل منهما قريب الاستعداد
لأن يصير جزءا من عضو . ولذلك سماه الله سلالة ، والسلالة فُعالة
من السل وهو مايسل من البدن ، كالبخار ، كما سمى أصله سلالة من
طين . لأنه استلها من جميع الأرض ، كما فى جامع الترمذى عن
النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من
جميع الأرض »

قال أصحاب القول الآخر - وهم جمهور الأطباء وغيرهم : لو كان
الأمر كما زعمتم ، وأن المنى يستل من جميع الأعضاء ، لكان إذا
حصل منى الذكر ومنى الأنثى فى الرحم تشكل المولود بشكلهما
معا ، ولكان الرجل لا يلد إلا ذكرا دائما ، لأن المنى قد استل
عندكم من جميع أجزائه ، فاذا انعقد وجب أن يكون مثله . وأيضاً
فان المرأة تضع من وطء الرجل فى البطن الواحد ذكراً وأنثى
ولا يمكن أن يقال ان ذلك بسبب اختلاف أجزاء المنى .

قالوا : ولا نسلم عموم اللذة ، لأنها انما حصلت حال الاندفاق ، بسبب
سيلان تلك المادة الحارة جارية على تلك المجارى اللحمية التى لحقتها
رخوة ، شبيهة باللحم القريب العهد بالاندمال . اذا سال عليه شيء ،
وهو معتدل السخونة . ولو كانت اللذة انما حصلت بسبب سيلان تلك

المادة لحصلت قبل الاندفاق . قالوا : وأما احتجاجكم بالتشابه المذكور بين الوالد والمولود فالمشابهة قد تقع فى الظفر والشعر ، وليس يخرج منهما شيء . وأيضا فالمولود قد يشبه جداً بعيدا من أجداده . كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : ان رجلا سأله ، فقال : ان امرأتى ولدت غلاما أسود . قال « هل لك من ابل ؟ » قال : نعم . قال « فما ألوانها ؟ » قال : سود . قال « هل فيها من أورق ؟ » قال : نعم . قال « فأنَّى له ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نزعه عرق . قال « وهذا عسى أن يكون نزعه عرق »

قالوا : ولو كان فى المنى من كل عضو أجزاء ، فلا تخلو تلك الاجزاء ، إما أن تكون موضوعة فى المنى وضعها الواجب ، أو لا تكون كذلك : فان كانت موضوعة وضعها الواجب كان المنى حيوانا صغيرا ، وإن لم تكن كذلك استحالت المشابهة .

قالوا : وأيضافان المنى إما أن يكون مركبا على تركيب هذه الاعضاء وترتيبها أو لا يكون كذلك . فالاول باطل قطعا ؛ لان المنى رطوبة سيالة فلا تحفظ الوضع ، والترتيب . وان كانت ثقيلة . فتعين الثانى ، ولابد قطعا أن يحال ذلك الترتيب والتصوير والتشكيل على سبب آخر سوى القوة التى فى المادة ، فانها قوة لاشعور لها ولا ادراك ، ولا تهتدى لهذه التفاصيل التى فى الصورة الانسانية ، بل هذا التصوير والتشكيل مستند إلى خالق عليم حكيم قد بهرت حكمته العقول ، ودلت آثار صنعته على كمال أسمائه وصفاته

وتوحيده . وقداعترف بذلك فاضلا الأطباء . وهما بقراط وأفلاطون وأقرا بأن ذلك مستند الى حكمة الصانع وعنايته . وأنه لم يصدر الا عن حكيم عليم قدير . ذكره جالينوس عنهما فى كتاب رأى بقراط وأفلاطون . فأبى جهلة الاطباء وزنادقة المتفلسفة والطبائعيين الا كفورا . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث حذيفة بن أسيد (١) « إن الله وكل بالرحم ملكا يقول : يارب نطفة . يارب علقة ، يارب مضغة . فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فما العمل ؟ فيقضى الله مايشاء . ويكتب الملك » وفى لفظ « يقول الملك الذى يخلقها » أى يصورها باذن الله ، أى يصور خلقه فى الأرحام كيف شاء الله ، لا إله الا هو العزيز الحكيم

فقال أصحاب القول الأول : نحن أحق بالتنزيه والتوحيد ، ومعرفة حكمة الخالق العليم وقدرته وعلمه ، وأسعد به منكم . ومن أحال من سفهائنا وزنادقتنا هـذا التخليق على القوة المصورة . والأسباب الطبيعية ، ولم يسندها إلى فاعل مختار عالم بكل شىء ، قادر على كل شىء

---

(١) أسيد ـ بفتح الهمز ـ قال فى الاصابة : أخرج له مسلم وأصحاب السنن . والحديث فى البخارى فى باب : واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ؛ من كتاب بدء الخلق ـ عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال « ان الله وكل فى الرحم ملكا ، فيقول : يارب نطفة ، يارب علقة . يارب مضغة . فاذا أراد أن يخلقه قال : يارب أذكر ؟ يارب أنثى ؟ يارب شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الاجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه »

لا يكون شيء الا باذنه ومشيئته ، والقوة والطبيعة خلق مسخر من خلقه ، وعبد من جملة عبيده ، ليس لها تصرف ، ولا حركة ولا فعل الا باذن بارئها وخالقها - فذلك الذى جهل نفسه وربه ، وعادى الطبيعة والشريعة . والرب تعالى يخلق مايشاء ويختار ، ويصور خلقه فى الارحام كيف يشاء ، بأسباب قدرها ، وحكم دبرها . واذا شاء أن يسلب تلك الأسباب قواها سلبها . واذا شاء أن يقطع مسبباتها عنها قطعها ، واذا شاء أن يهيء لها أسبابا أخرى تقاومها وتعارضها فعل ، فانه الفعال لما يريد . وليس فى كون المنى مستلا من جميع أجزاء البدن مايخرج الحوالة على قدرته ومشيئته وحكمته ، بل ذلك أبلغ فى الحكمة والقدرة

وأما قولكم : لو كان المنى مستلا من جميع الأعضاء لكان الولد يتشكل بشكلهما معا ، فقد أجاب النبى صلى الله عليه وسلم عمن سأله عن ذلك بما شفى وكفى . ففى صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبدالله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهو فى أرضه يخترف ، فأتاه ، وقال : انى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبى : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شيء ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومن أى شيء ينزع إلى اخواله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخبرنى بهن آنفا جبريل » فقال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة « أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب ، وأما

اول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه فى الولد فان الرجل اذا غشى المرأة فسبق ماؤه كان الشبه لها » فقال أشهد أنك رسول الله · فهذا جواب جبريل أمين رب العالمين ، لا جبريل الطبيب · وفى صحيح مسلم من حديث ثوبان عن النبى ﷺ « اذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر باذن الله · وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنث باذن الله » وقد يتفق المآن فى الانزال والقدر : وذلك من اندر الأشياء ، فيخلق للولد ذكر كذكر الرجل وفرج كفرج المرأة ، فاذا شاء الله أن يغلب سلالة ماء الرجل على ماء المرأة أو سلالتها أمر ملك الأرحام بتصويره كذلك . فان ذلك لا يخل بحكمته ولا يخرق عادته ، ولو خرقها لم يخل بحكمة أحكم الحاكمين

وأما منعكم عموم اللذة فشبيه بالمكابرة ، والمجامع يجد عند الانزال شيئا قد استل من جميع بدنه وسمعه وبصره وقواه فى قالب الرحم . فيحس كأنه خلع قميصاً كان مشتملا به . ولهذا اقتضت حكمة الرب تعالى فى شرعه وقدره أن أمره بالاغتسال عقيب ذلك ، ليخلف عليه الماء ماتحلل من بدنه من ماء . وإذا اغتسل وجد نشاطاً وقوة ، وكأنه لم ينقص منه شيء . فان رطوبة الماء تخلف على البدن ماحللته تلك الحركة من رطوباته ، وتعمل فيها الحرارة الأصلية عملها ، فتمد بها القوى التى ضعفت بالانزال

وأما التشابه الواقع بين الظفر والشعر فى الوالد والمولود ، ولم ينفصل بينهما شيء فما أبردها من شبهة . فانّ الظفر والشعر تابعان

للأعضاء، والمزاج الذى وقع فيه التشابه . فاستتبع تشابه الأصل تشابه التبع

وأما شبه المولود بالجد البعيد من أجداده فهو من أقوى الأدلة لنا فى المسألة ، لان ذلك الشبه البعيد لم يزل يتنقل فى الاصلاب حتى استقر فى صورة الولد . وبها حصل الشبه

وأما قولكم : إن تلك الأجزاء لاتخلو إما ان تكون موضوعة فى المنى وضعها الواجب أولا الى آخره ، فجوابكم انكم ان عنيتم انها موضوعة بالفعل فليس كذلك ، وان أردتم انها موضوعة بالقوة فنعم . وما المانع منه، ويكون المنى حيواناً صغيرا بل كبيراً بالقوة؟ وبهذا ظهر الجواب عن قولكم : ان المنى رطوبة سيالة لا تحفظ الوضع والترتيب . وغاية مايقدر أن ذلك جزء من أجزاء السبب الذى يخلق الله به الولد ، وجزء السبب لايستقل بالحكم . فالمستقل بالايجاد مشيئة الله وحده ، والاسباب محال الظهور

(١٠٠) فصل

فان قيل : فهذا تصريح منكم بأن المرأة لها منى ، وأن منها احد الجزئين اللذين يخلق الله منهما الولد . وقد ظن طائفة من الأطباء أن المرأة لامنى لها .

قيل هذا هو السؤال الذى أوردته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وأم سلمة رضى الله عنها على النبى صلى الله عليه وسلم

وأجابهما عنه باثبات منى المرأة . فنى الصحيح أن أم سُليم رضى الله عنها قالت : يارسول الله ، ان الله لايستحى من الحق ، هل على المرأة من غسل اذا هى احتلمت ؟ قال « نعم ، اذا رأت الماء » ، فقالت أم سلمة : أو تحتلم المرأة ؟ فقال « تَرِبَت يداك ، فبمَ يشبهها ولدها؟» وفيهما عن عائشة رضى الله عنها أن أم سليم رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة ترى فى منامها مايرى الرجل ، هل عليها من غسل ؟ قال « نعم ، اذا رأت الماء » ، قالت ، فقلت له : افترى المرأة ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وهل يكون الشبه الا من ذلك ؟ اذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله . واذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه » هذا لفظ مسلم . وقد ذكر جالينوس التشنيع على ارسطاليس ، حيث قال : ان المرأة لامنى لها ، فلنحرر هذه المسئلة طبعاً . كما حررت شرعا فنقول :

منى الذكر من جملة الرطوبات والفضلات التى فى البدن ، وهذا أمر يشترك بين الذكر والأنثى ، منه رأساً يتخلق الولد ، وبواسطته يكون الشبه . ولو لم يكن للمرأة منى لما أشبهها ولدها .

ولا يقال : ان الشبه سببه دم الطمث . فانه لاينعقد مع منى الرجل ، ولا يتحد به وقد أجرى الله العادة بأن التوالد لايكون الا بين أصلين يتولد من بينهما ثالث . ومنى الرجل وحده لا تتولد منه الولد مالم يمازجه

مادة أخرى من الأنثى . وقد اعترف أرباب القول الآخر بذلك وقالوا : لابد من وجود مادة بيضاء لزجة للمرأة تصير مادة لبدن الجنين . ولكن نازعوا : هل فيها قوة عاقدة ، كما فى منى الرجل أم لا ؟ وقد أدخل النبى صلى الله عليه وسلم هذه المسئلة فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث ثوبان مولاه ، حيث سأله اليهود عن الولد ، فقال « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر ، فاذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر باذن الله . واذا علا منى المرأة منى الرجل آنث باذن الله » نعم لمنى الرجل خاصة الغلظ والبياض ، والخروج بدفق ودفع . فان أراد من نفى منى المرأة انتفاء ذلك عنها أصاب ، ومنى المرأة خاصته الرقة ، والصفرة ، والسيلان بغير دفع . فان نفى ذلك عنها أخطأ . وفى كل من المائين قوة ، فاذا انضم أحدهما الى الآخر اكتسبا قوة ثالثة ، وهى من أسباب تكوّن الجنين ، واقتضت حكمة الخلاق العليم سبحانه أن جعل داخل الرحم خشنا كالسفنج ، وجعل فيه طلباً للمنى وقبولا له ، كطلب الأرض الشديدة العطش للماء وقبولها له . فجعله طالبا حافظاً مشتاقا اليه بالعطش . فلذلك اذا ظفر به ضمه ولم يضيعه ، بل يشتمل عليه أتم الاشتمال ، وينضم أعظم انضمام ، لئلا يفسده الهواء ، فيتولى القوة والحرارة التى هناك باذن الله ملك الرحم . فاذا اشتمل على المنى ولم يقذف به الى خارج استدار على نفسه وصار

كالكرة ، وأخذ فى الشدة إلى تمام ستة أيام . فاذا اشتد نقط فيه نقطة فى الوسط ، وهو موضع القلب . ونقطة فى أعلاه ، وهى نقطة الدماغ . وفى اليمين ، وهى نقطة الكبد . ثم تتباعد تلك النقط ويظهر بينها خطوط حمر ، إلى تمام ثلاثة أيام أخر ، ثم تنفذ الدموية فى الجميع بعد ستة أيام أخر ، فيصير ذلك خمسة عشر يوما . ويصير المجموع سبعة وعشرين يوما . ثم ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الضلوع ، والبطن عن الجنبين . وذلك فى تسعة أيام ، فتصير ستة وثلاثين يوما . ثم يتم هذا التميز بحيث يظهر للحس ظهورا بينا فى تمام أربعة أيام . فيصير المجموع أربعين يوما تجمع خلقه . وهذا مطابق لقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما » واكتفى النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الإجمال عن التفصيل ، وهذا يقتضى أن الله قد جمع فيها خلقها جمعا خفيا ، وذلك الخلق فى ظهور خفى على التدريج ، ثم يكون مضغة أربعين يوماً أخرى ، وذلك التخليق يتزايد شيئاً فشيئاً إلى أن يظهر للحس ظهوراً لاخفاء به كله ، والروح لم تتعلق به بعد ، فانها إنما تتعلق به فى الأربعين الرابعة بعد مائة وعشرين يوماً ، كما أخبر به الصادق ، وذلك مما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحى ، إذ ليس فى الطبيعة ما يقتضيه ، فلذلك حار فضلاء الأطباء وأذكياء الفلاسفة فى ذلك ، وقالوا : إن هذا مما لا سبيل إلى معرفته إلا بحسب الظن البعيد .

قال من وقف على نهايات كلامهم فى ذلك دأب فيه حتى كل ، وهو صاحب الطب الكبير . فذكر مناسبات خيالية ثم قال : وحقيقة العلم فيه عند الله تعالى . لامطمع لأحد من الخلق فى الوقوف عليه

قلت : قد أوقفنا عليه الصادق المصدوق ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى بما ثبت فى الصحيحين « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك ، فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع : يكتب رزقه وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد »

فصل (١٠١)

ورأيت لبعض الأطباء كلاما ذكر فيه سبب تفاوت زمن الولادة فأذكره وأذكر مافيه :

قال : إذا تم خلق الجنين فى مدة معينة فانها إذا زاد عليها مثلها تحرك الجنين . فاذا انضاف إلى المجموع مثلاه انفصل الجنين . قال : فاذا تم خلقه فى ثلاثين يوما ، فاذا صار له ستون يوما تحرك ، فاذا انضاف إلى الستين مثلاها ، صارت مائة وثمانين يوما وهى ستة أشهر ، وهى مدة ينفصل لها الحمل . وإذا تم خلقه فى خمسة وثلاثين يوما تحرك لسبعين ، وانفصل لسبعة أشهر ، وإذا تم خلقه لأربعين تحرك لثمانين ، وانفصل لثمانية أشهر . وإذا تم لخمسة وأربعين تحرك لتسعين . وانفصل لتسعة أشهر . وعلى هذا الحساب أبدا

وهذا الذي ذكره هذا القائل يقتضي حركة الجنين قبل الأربعين وهذا خطأ قطعا . فان الروح انما تتعلق به بعد الأربعين الثالثة ، وحينئذ يتحرك ، فلا تثبت له حركة قبل مائة وعشرين يوما ، وما يقدر من حركة قبل ذلك فليست حركة ذاتية اختيارية ، بل لعلها حركة عارضة بسبب الأغشية والرطوبات . وماذكره من الحساب لا يقوم عليه دليل ولا تجربة مطردة ، فربما زاد على ذلك أو نقص منه ، ولكن الذي نقطع به أن الروح لا تتعلق به إلا بعد الأربعين الثالثة ، وما يقدر من حركة قبل ذلك ان صحت لم تكن بسبب الروح . والله أعلم

(١٠٢) فصل

وأما أقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر وقال تعالى (٤٦: ١٥ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) وقال تعالى (٢: ٢٣٣ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) وقال جالينوس : كنت شديد الفحص عن مقادير أزمنة الحمل ، فرأيت امرأة واحدة ولدت فى مائة وأربع وثمانين ليلة . وزعم صاحب الشفاء أنه شاهد ذلك ، وأما أكثره فقال فى الشفاء : بلغنى من حيث وثقت أن امرأة وضعت بعد الرابع من رأس الحمل ولداً قد نبتت أسنانه وعاش .

(١٠٣) فصل

فان قيل : فما سبب الاذكار والايناث ؟ قيل : الذى نختاره أن سببه مشيئة الرب الفاعل باختياره ، وليس بسبب طبيعي ، وكل ماذكر أصحاب الطبائع من الأسباب فمنتقض مثل حرارة الرجل ورطوبته ، قالوا : وفساد المزاج أيضا يوجب إيلاد الأناث ، واستقامته توجب الاذكار . وهذا تخليط وهذيان . فليس للاذكار والايناث إلا قول الله للملك الأرحام ، وقد استأذن « يارب ذكر ، يارب أنثى ، يارب شق أم سعيد . فما الرزق ، فما الأجل ؟ » والاذكار والايناث قرين السعادة ، والشقاوة ، والرزق ، والأجل

فان قيل : فتلك أيضا بأسباب ؟ قلنا : نعم ، ولكن باسباب بعد الولادة ، ولا سبب للاذكار والايناث قبل الولادة

فان قيل : فما تصنعون بحديث ثوبان الذى رواه مسلم فى صحيحه أن يهوديا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الولد . فقال : « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر ، فاذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر باذن الله ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنث باذن الله » فقال اليهودى : صدقت ، وانك لنبى . قيل : هذا الحديث تفرد به مسلم فى صحيحه . وقد تكلم فيه بعضهم . وقال : الظاهر أن الحديث وهم فيه بعض الرواة ، وانما كان السؤال عن الشبه وهو الذى سأل عنه عبدالله بن سلام فى الحديث المتفق على صحته

فأجابه بسبق الماء . فان الشبه يكون للسابق . فلعل بعض الرواة انقلب عليه شبه الولد بالمرأة بكونه أنثى . وشبهه بالوالد بكونه ذكراً ، لا سيما والشبه التام إنما هو بذلك

وقالت طائفة : الحديث صحيح لامطعن فى سنده . ولا منافاة بينه وبين حديث عبد الله بن سلام . وليست الواقعة واحدة ، بل هما قضيتان ، ورواية كل منهما غير رواية الأخرى . وفى حديث ثوبان قضية ضبطت وحفظت . قال ثوبان : كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء حبر من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها . فقال : لم تدفعنى ؟ فقلت : ألا تقول يارسول الله ؟ فقال اليهودى : إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن اسمى محمداً الذى سمانى به أهلى » فقال اليهودى : جئت أسألك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أينفعك شىء ان حدثتك ؟ » قال : أسمع بأذنى . فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه . فقال اليهودى : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هم فى الظلمة دون الجسر » قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال « فقراء المهاجرين » قال اليهودى : فما تحفتهم حتى يدخلوا الجنة ؟ قال « زيادة كبد الحوت » قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال « ينحر لهم ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال « من عين فيها تسمى سلسبيلا » قال : صدقت . قال : وجئت أسألك عن

شىء لايعلمه أحـد إلا نبى أو رجل أو رجلان . قال « أينفعك إن حدثتك ؟ » قال أسمع بأذنى . قال : جئت أسألك عن الولد . قال «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر. فإذا اجتمعا ، فعلا منىُّ الرجل منى المرأة أذكر بأذن الله . وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنث باذن الله» قال اليهودى:لقد صدقت ، وإنك لنبى. ثم انصرف، فذهب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد سألنى هذا الذى سألنى عنه ومالى علم به ، حتى أتانى به الله » وأما حديث عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، فنى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فأتاه. فقال : إنى سائلك عن ثلاث لايعلمهن إلا نبى: ماأول أشراط الساعة ؟وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أى شىء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خبرنى آنفا جبريل» فقال عبدالله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت. وأما الشبه فى الولد فان الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له . وإذا سبقت كان الشبه لهـا » قال أشهد أنك رسول الله . وذكر الحديث

فتضمن الحديثان أمرين ترتب عليهما الاثران معا ، وأيهما

انفرد ترتب عليه أثره . فإذا سبق ماء الرجل وعلا أذكر ، وكان الشبه له . وإن سبق ماء المرأة وعلا آنث ، وكان الشبه لها . وإن سبق ماء المرأة وعلا ماء الرجل أذكر . وكان الشبه لها . ومع هذا كله فهذا جزء سبب ليس بموجب . والسبب الموجب مشيئة الله فقد يسبب بضد السبب ، وقد يرتب عليه ضد مقتضاه ولا يكون في ذلك مخالفة لحكمته ، كما لا يكون تعجيزا لقدرته . وقد أشار في الحديث إلى هذا بقوله « أذكر وآنث بإذن الله » وقد قال تعالى (٤٢ : ٤٩ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ٥٠ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) فأخبر سبحانه أن ذلك عائد إلى مشيئته وأنه قد يهب الذكور فقط ، والإناث فقط . وقد يجمع للوالدين بين النوعين معا ، وقد يخليهما عنهما معا ، وأن ذلك كما هو راجع إلى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته . وقد وهب الله آدم الذكور والإناث ، وإسرائيل الذكور دون الإناث . ومحمداً ﷺ الإناث دون الذكور ، سوى ولده إبراهيم (١) وقال سليمان عليه السلام « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتى كل امرأة بغلام يقاتل

---

(١) قد ولد للنبي صلى الله عليه وسلم من خديجة من الذكور القاسم وهو أول أولاده ، وبه كان يكنى — وعبد الله والطيب والطاهر . وقيل : إن الطيب والطاهر لقبا عبد الله . وولد له من جاريته مارية إبراهيم . وكلهم ماتوا أطفالا

فى سبيل الله فطاف عليهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق ولد » قال النبي صلى الله عليه « والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » فدل على أن مجرد الوطء ليس بسبب تام وإن كان له مدخل فى السببية ، وأن السبب التام مشيئة الله وحده . فهو رب الأسباب المتصرف فيها كيف شاء ، بإعطائها السببية إذا شاء ، ومنعها إياها إذا شاء ، وترتيب ضد مقتضاها عليها إذا شاء . والأسباب هى مجارى الشرع والقدر ، فعليها يجرى أمر الله الكونى والدينى

فإن قيل : فقد ظهر أن الولد من الماءين جميعاً ، فهل يخلق منهما على حد سواء ، أم يكون الولد من ماء الأب ، وبعضه من ماء الأم ؟ قيل : قد بين النبى صلى الله عليه وسلم هذه المسألة بأوضح البيان ، فقال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا حسن ابن الحسين حدثنا أبو كريب عن عطاء بن السائب عن القاسم ابن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال : مر يهودى برسول الله ﷺ ، وهو يحدث أصحابه ، فقالت قريش : يا يهودى إن هذا يزعم أنه نبى ، فقال لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبى ، فجاء حتى جلس ، ثم قال : يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال « من كل يخلق ، من نطفة الرجل ، ومن نطفة المرأة . فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب . وأما نطفة المرأة فنطفة

رقيقة . منها اللحم والدم » فقام اليهودى فقال : هكذا يقول من قبلك

(١٠٤) فصل

فان قيل : قد ذكرتم أن تعلق الروح بالجنين إنما يكون بعد الأربعين الثالثة ، وإن خلق الجنين يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك . وبينتم أن كلام الأطباء لايناقض ماأخبر به الوحى من ذلك . فما تصنعون بحديث حذيفة بن أسيد الذى رواه مسلم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يدخل الملك فى النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ، أوخمس وأربعين ليلة ، فيقول : أى رب أشقى أم سعيد ؟ فيكتبان . فيقول : أى رب ، ذكر أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ، ثم يطوى الصحيفة ، فلا يزاد فيها ولا ينقص » قيل نتلقاه بالقبول والتصديق وترك التحريف ، ولا ينافى ماذكرناه ، إذ غاية مافيه أن التقدير وقع بعد الأربعين الأولى وحديث ابن مسعود يدل على أنه وقع بعد الأربعين الثالثة ، وكلاهما حق قاله الصادق صلى الله عليه وسلم . وهذا تقدير بعد تقدير . فالأول تقدير عند انتقال النطفة الى أول أطوار التخليق التى هى أول مراتب الانسان . وأما قبل ذلك فلم يتعلق بها التخليق . والتقدير الثانى تقدير عند كمال خلقه ونفخ الروح . فذلك تقدير عند أول خلقه وتصويره . وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره . وهذا أحسن من

جواب من قال : إن المراد بهذه الأربعين التى فى حديث حذيفة الأربعين الثالثة ، وهذا بعيد جداً من لفظ الحديث ، ولفظه يأباه كل الاباء . فتأمله

فان قيل : فما تصنعون بحديثه الآخر الذى فى صحيح مسلم عن عامر بن واثلة ، أنه سمع عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : « الشقى من شقى فى بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره » فأتى رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يقال له حذيفة بن أسيد الغفارى ، فحدثه بذلك من قول ابن مسعود ، وقال له : وكيف يشقى رجل بغير عمل ؟ فقال له الرجل : أتعجب من ذلك ؟ فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يارب أذكر ، أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ، ويكتب الملك بالصحيفة فى يده فلا يزيد على أمره ولا ينقص » وفى لفظ آخر فى الصحيح أيضا : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنى هاتين يقول « ان النطفه تقع فى الرحم أربعين ليلة ، ثم يتسور عليها الملك الذى يخلقها . فيقول : يارب أذكر أم أنثى ؟ أسوى أم غير سوى ؟ فيجعله الله سويا أو غير سوى ، ثم يقول : يارب مارزقه ؟ وما أجله ؟ وماخلقه ؟ ثم يجعله الله عز وجل شقياً أو سعيداً » وفى لفظ آخر فى الصحيح أيضا « أن ملكا موكلا بالرحم إذا أراد الله أن يخلق شيئاً بإذن الله لبضع وأربعين ليلة » ثم ذكر نحوه .

قيل : تلقاها أيضاً بالتصديق ، والقبول ، وترك التحريف . وهذا يوافق ما أجمع عليه الأطباء أن مبدأ التخليق والتصوير بعد الأربعين

فان قيل : فكيف التوفيق بين هذا وبين حديث ابن مسعود ، وهو صريح فى « أن النطفة أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين علقة ، ثم أربعين مضغة » ومعلوم أن العلقة والمضغة لا صورة فيهما . ولا جلد ولا لحم ولا عظم . وليس بنا حاجة إلى التوفيق بين حديثه هذا وبين قول الأطباء . فان قول النبى صلى الله عليه وسلم معصوم ، وقولهم عرضة للخطأ ، ولكن الحاجة إلى التوفيق بين حديثه وحديث حذيفة المتقدم ؟ قيل : لا تنافى بين الحديثين بحمد الله ، وكلاهما خارج من مشكاة صادقة معصومة . وقد ظن طائفة أن التصوير فى حديث حذيفة إنما هو بعد الأربعين الثالثة . قالوا : وأكثر ما فيه التعقيب بالفاء . وتعقيب كل شيء بحسبه . وقد قال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً) بل قد قال تعالى (٢٣ : ١٤ فَخَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً) وهذا تعقيب بحسب ما يصلح له المحل ، ولا يلزم أن يكون الثانى عقيب الأول ، تعقيب اتصال

وظنت طائفة أخرى أن التصوير والتخليق فى حديث حذيفة فى التقدير والعلم . والذى فى حديث ابن مسعود فى الوجود

الخارجي . والصواب يدل على أن الحد مادل عليه الحديث، من أن ذلك فى الاربعين الثانية ، ولكن هنا تصويران : أحدهما تصوير خفى لايظهر وهو تصوير تقديرى ، كما تصور حين تفصل الثوب ، أو تنجر الباب ، مواضع القطع والتفصيل . فيعلم عليها ويضع مواضع الفصل والوصل . وكذلك كل من يضع صورة فى مادة لاسيما مثل هذه الصورة ، ينشىء فيها التصوير والتخليق على التدريج شيئاً بعد شىء ، لا وهلة واحدة ، كما يشاهد بالعيان فى التخليق الظاهر فى البيضة

فههنا أربع مراتب : أحدها تصوير وتخليق علمى ، لم يخرج الى الخارج . الثانية مبدأ تصوير خفى يعجز الحس عن إدراكه . الثالثة تصوير يناله الحس ولكنه لم يتم بعد . الرابعة تمام التصوير الذى ليس بعده الا نفخ الروح

فالمرتبة الأولى علمية ، والثلاث الأخر خارجية عينية . وهذا التصوير بعد التصوير نظير التقدير بعد التقدير . فالرب تعالى قدر مقادير الخلائق تقديراً عاماً قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وهنا كتب السعادة والشقاوة والاعمال والارزاق والآجال ﴿ الثانى ﴾ تقدير بعد هذا وهو أخص منه . وهو التقدير الواقع عند القبضتين ، حين قبض تبارك وتعالى أهل السعادة بيمينه وقال « هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون » وقبض أهل الشقاوة باليد الأخرى وقال « هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ».

﴿ الثالث ﴾ تقدير بعد هذا ، وهو أخص منه عندما يمنى به ، كما فى حديث حذيفة بن أسيد المذكور ﴿ الرابع ﴾ تقدير آخر بعد هذا وهو عند مايتم خلقه وينفخ فيه الروح ، كما صرح به الحديث الذى قبله . وهذا يدل على سعة علم الرب تبارك وتعالى ، واحاطته بالكليات والجزئيات ، وكذلك التصوير الثانى مطابق للتصوير العلمى ، والثالث مطابق للثانى ، والرابع مطابق للثالث . وهذا مما يدل على كمال قدرة الرب تعالى . ومطابقة المقدور للمعلوم ، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

ونظير هذا التقدير الكتابة العامة قبل المخلوقات ، ثم كتابة مايكون من العام إلى العام فى ليلة القدر ، وكل مرتبة من هذه المراتب تفصيل لماقبلها وتنوع . وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدق بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ويطابق الواقع فى الوجود ولا يخالفه . وإنما يخبر بما لا يستقل الحس والعقل بإدراكه ، لا بما يخالف الحس والعقل ، وإنما يعرفه الناس ويستقلون بإدراكه على أمر عينى يتعلق به الإيمان ، أو على حكم شرعى يتعلق به التكليف . والله أعلم

(١٠٥) فصل

فان قيل : أى عضو يتخلق أولا قبل سائر الأعضاء ؟ قيل : اختلف فى ذلك على أربعة أقوال (أحدهما) أنه القلب ، وهو قول الأكثرين (والثانى) أنه الدماغ والعينان . وهو قول بقراط

(والثالث) الكبد ، وهو قول محمد بن زكريا (والرابع) أنه السرة وهو قول جماعة من الأطباء.

قال أصحاب القلب : لاشك أن فى المنى قوة روحية ، بسبب تلك القوة سَعَدَ أن يكون إنساناً ، وحاجته إلى الروح الذى هو مادة القوى أشدَ ، فلا بد أن يكون لذلك الروح مجمع خاص ، منه تنبعث إلى سائر الأعضاء ، فالجوهر الروحى أول شىء ينبعث من المنى ، ويجتمع فى موضع واحد ، ويحيط به مايتصل إليه ذلك الجوهر الروحى من جميع الجوانب ، فيجب أن يكون مجمعها هو الوسط ، وسائر الأجزاء يحيط به ، وذلك الوسط هو القلب

قالوا : ولأن تمام البدن موقوف على الحرارة الغريزية التى بها البدن ، ولا بد أن يتقدم على ذلك العضوُ الذى منه القوة الغريزية التى بها ينمو ، وهو القلب

قالوا : ولأن أفعال القوى إنما تتم بالروح ، وهى لابد لهامن متعلق تتعلق به ، ولا بد أن يتقدم متعلقها عليها وهو القلب

قالوا : وهذا هو الأليق والأنسب بحكمة الرب تعالى ، فان القلب ملك ، والأعضاء جنود له وخدم ، فاذا صلح القلب صلحت جنوده وإذا فسد فسدت ، وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح إلى مايرشد إلى ذلك فقال « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهى القلب » فما أولى هذه المضغة بأن تكون متقدمة فى وجودها على سائر

الأعضاء ، وسائرها تبع لها فى الوجود ، كما هى تبع لها فى الصلاح والفساد

قالوا : وقد شاهد أصحاب التشريح فى المنى عند انعقاده نطفة فى وسطه

قال أصحاب الدماغ : شاهدنا الفراخ فى البيض أول ما يتكون منها رأسها ، وسنة الله فى بروز الجنين أول ما يبدو منه إلى الوجود رأسه

قال أصحاب الكبد : لما كان المنى محتاجا إلى قوة مغذية تزيد فى جوهره حتى يصير بحيث يمكن أن تكون الأعضاء فيها كان أول الأعضاء وأسبقها إليه ، وهو محل القوة المغذية وهو الكبد

قال أصحاب السرة : حاجة الجنين إلى جذب الغذاء أشد من حاجته إلى الأقوات وادراكه ، ومن السرة يجذب الغذاء

وأولى هذه الأقوال القول الأول ـ فان القلب ومنزلته وشرفه ومحله الذى وضعه الله به يقتضى أنه المبدوء به قبل سائر الأعضاء المتقدم عليها بالوجود . والله أعلم

(١٠٦) فصل

فان قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه ، هل كان فيه حركة واحساس أم لا ؟ قيل كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات ، ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالارادة ، فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسيته وإرادته إلى حركة نموه واغتذائه

فان قيل : قد ثبت أن الولد يتخلق من ماء الأبوين ، فهل يتمازجان ويختلطان حتى يصيرا ماء واحدا، أو يكون أحدهماهو المادة والآخر بمنزلة الأنفحة التى تعقده ؟ قيل هو موضع اختلف فيه أرباب الطبيعة فقالت طائفة منهم : منى الأب لايكون جزءاً من الجنين، وإنما هو مادة الروح السارى فى الأعضاء ، وأجزاء البدن كلها من منى الأم. ومنهم من قال بل هو ينعقد من منى الأنثى ثم يتحلل ويفسد

قالوا : ولهذا كان الولد جزءا من أمه . ولهذا جاءت الشريعة بتبعيته لها فى الحرية والرق

قالوا : ولهذا لو نزى فحل رجل على جارية آخر فأولدها فالولد لمالك الأم دون مالك الفحل ؛ لأنه تكون من أجزائها وأحشائها ولحمها ودمها . وماء الأب بمنزلة الماء الذى يسقى الأرض

قالوا : والحس يشهد أن الأجزاء التى فى المولود من أمه أضعاف أضعاف الأجزاء التى فيه من أبيه . فثبت أن تكوينه من منى الأم ودم الطمث ، ومنى الأب عاقد له كالأنفحة

ونازعهم الجمهور وقالوا : إنه يتكون من منى الرجل والأنثى ثم لهم قولان : أحدهما أن يكون من منى الذكر أعضاؤه وأجزاؤه، ومن منى الأنثى صورته . والثانى أن الأعضاء والأجزاء والصورة تكونت من مجموع الماءين ؛ وأنهما امتزجا واختلطا وصارا ماء واحدا وهذا هو الصواب ؛ لأننا نجد الصورة والتشكيل تارة إلى الأب، وتاره إلى الأم . والله أعلم

وقد دل على هذا قوله تعالى (٤٩: ١٣ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى) والأصل هو الذكر . فمنه البذر ، ومنه السقى . والأنثى وعاء ومستودع لولده . تربيه فى بطنها كما تربيه فى حجرها . ولهذا كان الولد للأب حكما ونسبا . وأما تبعيته للأم فى الحرية والرق فلأنه إنما تكون وصار ولدا فى بطنها ، وغذته بلبانها . مع الجزء الذى فيه منها . وكان الاب أحق بنسبه وتعصيبه ، لانه أصله ومادته ونسخته ، وكان أشرفهما دينا أولى به تغليبا لدين الله وشرعه

فان قيل : فهلا طردتم هذا وقلتم : لو سقط بذر رجل فى أرض آخر يكون الزرع لصاحب الارض دون مالك البذر ؟

قيل : الفرق بينهما أن البذر مال متقوم فى أرض آخر ، فهو لمالكه ، وعليه أجرة الارض ، أو هو بينهما ، بخلاف المنى . فانه ليس بمال ، ولهذا نهى الشارع فيه عن المعاوضة . واتفق الفقهاء على أن الفحل لو نزا على رمكة ، كان الولد لصاحب الرمكة

فصل (١٠٧)

فان قيل : فهل يتكون الجنين من ماءين وواطئين ؟ قيل : هذه مسئلة شرعية كونية ، والشرع فيها تابع للتكوين . وقد اختلف فيها شرعا وقدرا ، فمنعت ذلك طائفة وأبته كل الاباء ، وقالت : الماء إذا استقر فى الرحم اشتمل عليه وانضم غاية الانضمام ، بحيث لا يبقى فيه مقدار رسم رأس ابرة الا انسد ، فلا يمكن انفتاحه بعد ذلك لماء ثان ، لا من الواطىء ، ولا من غيره

قالوا : وبهذا أجرى الله العادة : أن الولد لا يكون الا لأب واحد ، كما لا تكون الأم الا واحدة . وهذا هو مذهب الشافعي

وقالت طائفة : بل يتخلق من ماءين فأكثر . قالوا : وانضمام الرحم واشتماله على الماء لا يمنع قبوله الماء الثاني . فان الرحم أشوق شيء وأقبله للمني

قالوا : ومثال ذلك كمثال المعدة ، فان الطعام إذا استقر فيها انضمت عليه غاية الانضمام ، فاذا ورد عليها طعام فوقه انفتحت له ، لشوقها اليه

قالوا : وقد شهد بهذا القائف بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في ولد ادعاه اثنان ، فنظر اليهما واليه ، وقال : ما أراهما الا اشتركا فيه . فوافقه عمر وألحقه بهما . ووافقه على ذلك الامام أحمد ، ومالك رضي الله عنهما

قالوا : والحس يشهد بذلك ، كما ترى في جراء الكلبة والسنور ، تأتي بها مختلفة الالوان لتعدد آبائها . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماءه زرع غيره(١) » يريد وطء الحامل من غير الواطيء . قال الامام أحمد : الوطء يزيد في سمع الولد وبصره ، هذا بعد انعقاده

وعلى هذا مسئلة فقهية ، وهي : لو أحبل جارية غيره بنكاح أو زنى

---

(١) روى احمد وابو داود والترمذى عن رويفع بن ثابت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم حنين « لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ـ الخ »

ثم ملكها ، هل تصير أم ولد ؟ فيها أربعة أقوال ، وهي روايات عن الامام أحمد : أحدها لا تصير أم ولد ؛ لأنها لم تعلق بالولد في ملكه . والثاني تصير أم ولد ؛ لأنها وضعت في ملكه . والثالث إن وضعت في ملكه صارت أم ولد ، وان وضعت قبل أن يملكها لم تصر ؛ لأن الوضع والاحبال كان في غير ملكه . والرابع إن وطئها بعد أن ملكها صارت أم ولد ، وإلا فلا . لأن الوطء يزيد في خلقة الولد ، كما قال الامام أحمد : الوطء يزيد في سمع الولد وبصره . وهذا أرجح الأقوال . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر على امرأة مُجِحٍّ على باب فسطاط فقال « لعل سيدها يريد أن يُلِمَّ بها ، لقد هممت ان ألعنه لعنة تدخل معه في قبره . كيف يورثه وهو لا يحل له ؟ » (١) والمُجِحُّ الحامل المقرب ، وقوله « كيف يُوَرِّثه » أي يجعله له تركة موروثة عنه ، كأنه عبده ولا يحل له ذلك ؛ لأنه قد صار فيه جزء من أجزائه بوطئه ، وكيف يجعله عبده ، ولا يحل له ذلك ؟ . فهذا دليل على أن وطء الحامل اذا وطئت كثيرا جاء الولد عبلا ممتلئا ، واذا هجر وطؤها جاء الولد هزيلا ضعيفا . فهذه أسرار شرعية موافقة للأسرار الطبيعية مبنية عليها . والله أعلم .

فان قيل : فهل يمكن أن يخلق من الماء ولدان في بطن واحد ؟ قيل :

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم مر في غزوة على امرأة الخ

هذه مسألة التوأم ، وهو ممكن ، بل وقع . وله أسباب : أحدها كثرة المنى ، فيفيض الى بطن الرحم دفعات ، والرحم يعرض له عند الحركة الجارية للمنى حركات اختلاجية مختلفة ، فربما اتفق أن كان الجاذب للدفعة الأولى من المنى أحد جانبيه . وللثانية الجانب الآخر . ومنها أن بيت الأولاد فى الرحم فيه تجاويف ، فيكون المنى كثيراً . فيغفل أحدها عن فضلة يشتمل عليها التجويف الثانى ، وهكذا الثالث . قال أرسطو : وقد يعيش للمرأة خمسة أولاد فى بطن واحد . وحكى عن امرأة أنها وضعت فى أربع بطون عشرين ولدا . قال صاحب القانون: سمعت بجرجان أن امرأة أسقطت كيسا فيه سبعون صورة صغيرة جداً . قال أرسطو : واذا توأمت بذكر وأنثى فقلما تسلم الوالدة والمولود ، واذا توأمت بذكرين أو أنثيين فتسلم كثيرا . قال : والمرأة قد تحبل على الحبل ، ولكن يهلك الأول فى الأكثر ، فقد أسقطت امرأة واحدة اثنى عشر جنينا ، حملا على حمل . وأما اذا كان الحمل واحدا أو بعد وضع الأول فقد يعيشان . والله أعلم

فان قيل: فما السبب المانع للحامل من الحيض غالبا . قال الامام احمد وأبو حنيفة: إن ما تراه من الدم يكون دم فساد لا حيض . والشافعى وان قال إنه دم حيض - وهو احدى الروايتين عن عائشة - فلا ريب أنه نادر بالاضافة الى الأغلب ؟ قيل :دم الطمث ينقسم ثلاثة أقسام : قسم ينصرف الى غذاء الجنين . وقسم يصعد الى البدن . وقسم يحبس الى وقت الوضع ، فيخرج مع الولد . وهو

دم النفاس . وربمـا كانت مادة الدم قوية ـ وهو كثير ـ فيخرج بعضه لقوته وكثرته . والراجح من الدليل أنه حيض ، حكمه حكمه ، اذ ليس هناك دليـل عقلى ولا شرعى يمنـع من كونه حيضا ، واستيفاء الأدلة من الجانبين قد ذكرناه فى مواضع أخر. والله أعلم

فان قيل : فمـا السبب فى أن النساء الحبالى يشـتقن فى الشهر الثانى والثالث الى تناول الأشياء الغريبة التى لا يعتدّ بها طبـا ؟ قيل : ان دم الطمث لما احتبس فيهن بحكمة قدّرها الله ، وهى أن صرفه غـذاء للولد ، ومقدار ما يحتاج اليه يسير ، فتدفعه الطبيعة الصحيحة الى فم المعدة ، فيحدث لهن شهوة تلك الأشياء الغريبة

فان قيل : فـكيف وضع الجنين فى بطن أمه : قائماً ، أوقاعداً ، أومضطجعاً ؟ قيل : هو معتمد بوجهه على رجليه ، وبراحتيه على ركبتيه ، ورجلاه مضمومتان الى قدميه ، ووجهه الى ظهر أمه . وهذا من العناية الالهية أن أجلسه هذه الجلسة فى المـكان الضيق فى الرحم على هـذا الشكل . وأيضاً فلو كان رأسه الى أسفل لوقع ثقل الأعضاء الخسيسة على الأعضاء الشريفة ، وأدى ذلك الى تلفـه . ولأنه عنـد محاولة الخروج اذا انقلب أعانته على الخروج . فانه اذا خرج أول مايخرج منه رأسه ، لأن الرأس اذا خرج أولا كان خروج سائر الأعضاء بعده سهلا ، ولو خرج على غير هذا الوجه لـكان فيه تعويق وعسر . فان الرجلين لو خرجتا أولا انعاق خروج البـاقى ، وان خرجت الرجل الواحدة أولا انعاق عند الثانية ، وان خرجتا معاً انعاق عند

اليدين . وان خرجت الرجلان واليدان انعاق عندالرأس ، فكان يلتوى الى خلف وتلتوى السرة الى العنق فيألم الرحم . ويصعب الخروج ، ويؤدى الى مرضه أو تلفه

فان قيل : فما سبب الاجهاض الذى يسمونه الطرح قبل كمال الولد ؟

قيل : الجنين فى البطن بمنزلة الثمرة فى الشجرة ، وكل منهما له اتصال قوى بالأم . ولهذا يصعب قطع الثمرة قبل كمالها من الشجرة وتحتاج الى قوة . فاذا بلغت الثمرة نهايتها سهل قطعها ، وربما سقطت بنفسها ، وذلك لأن تلك الرباطات والعروق التى تمدها من الشجرة كانت فى غاية القوة والغذاء ، فلما رجع ذلك الغذاء الى تلك الشجرة ضعفت تلك الرطوبات والمجارى ، وساعدها ثقل الثمرة ، فسهل أخذها . وكذلك الأمر فى الجنين ، فانه مادام فى البطن قبل كماله واستحكامه ، فان رطوباته وأغشيته تكون مانعة له من السقوط ، فاذا تم وكمل ضعفت تلك الرطوبات ، وانتهكت الأغشية ، واجتمعت تلك الرطوبات المزلقة فسقط الجنين . هذا هو الأمر الطبيعى الجارى على استقامة الطبيعة وسلامتها . وأما السقوط قبل ذلك فلفساد فى الجنين ، ولفساد فى طبيعة الأم ، أو ضعف الطبيعة ، كما تسقط الثمرة قبل ادراكها لفساد يعرض ، أو لضعف الأصل ، أو لفساد يعرض من خارج ، فاسقاط الجنين لسبب من هذه الأسباب الثلاثة ، فالآفات التى تصيب الأجنة بمنزلة الآفات التى تصيب الثمار

فان قيل فكيف يخرج من الرحم ـ مع ضيقه ـ ما هو أكبر منه بأضعاف مضاعفة ؟

قيل : هذا من أعظم الأدلة على عناية الرب تعالى وقدرته ومشيئته . فان الرحم لابد أن ينفتح الانفتاح العظيم جدا . قال غير واحد من العقلاء : ولا بد من انفصال يعرض للمفاصل العظيمة ، ثم تلتئم بسرعة أسرع من لمح البصر . وقد اعترف فضلاء الاطباء وحذاقهم بذلك ، وقالوا : لايكون ذلك الا بعناية إلهية وتدبير تعجز العقول عن ادراكه . وتقر للخلاق العظيم بكمال الربوبية والقدرة

فان قيل : فما السبب فى بكاء الصبى حالة خروجه الى هذه الدار ؟

قيل : ههنا سببان : سبب باطن أخبر به الصادق المصدوق . لايعرفه الاطباء . وسبب ظاهر . فأما السبب الباطن فان الله سبحانه اقتضت حكمته أن وكل بكل واحد من ولد آدم شيطانا ، فشيطان المولود قد خنس ينتظر خروجه ليقارنه ويتوكل به ، فاذا انفصل استقبله الشيطان وطعنه فى خاصرته ، تحرقا عليه وتغيظا ، واستقبالا له بالعداوة التى كانت بين الابوين قديما . فيبكى المولود من تلك الطعنة . ولو آمن زنادقة الأطباء والطبائعيين بالله ورسوله لم يجدوا عندهم ما يبطل ذلك ولا يرده . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «صياح المولود حين يقع نزغة من الشيطان » وفى الصحيحين من حديثه أيضا

رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخا من نخسه ، الا ابن مريم وأمه » وفى لفظ آخر « يمسه حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه » وفى لفظ آخر « كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولادته الامريم وابنها » وفى لفظ للبخارى « كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه بأصبعه حين يولد ، غير عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن فطعن فى الحجاب » والسبب الظاهر الذى لاتخبر الرسل بأمثاله لرخصه عند الناس ، ومعرفتهم له من غيرهم ، هو مفارقته للمألوف والعادة التى كان فيها الى أمر غريب . فانه ينتقل من جسم حار الى هواء بارد ، ومكان لم يألفه ، فيستوحش من مفارقته وطنه ، ومألفه ، وعند أرباب الاشارات أن بكاءه ارهاص بين يدى مايلاقيه من الشدائد والآلام والمخاوف . وأنشد فى ذلك :

ويبكى بها المولود حتى كأنه * بكل الذى يلقاه فيها يهدد
والا ، فما يبكيه فيها ، وإنها * لأوسع مما كان فيه وأرغد ؟

ولهم نظير هذه الاشارة فى قبض كفه عند خروجه الى الدنيا ، وفى فتحها عند خروجه منها ، وهو الاشارة الى أنه خرج اليها مركبا على الحرص والطمع ، وفارقها صفر اليدين منها . وأنشد فى ذلك :

وفى قبض كف المرء عند ولادة * دليل على الحرص الذى هو مالكه
وفى فتحها عند الممات اشارة * الى فرقة المال الذى هو تاركه

ولهم نظير هذه الاشارة فى بكاء الطفل ، وضحك من حوله : أن

الأمر سيبدل ويصير الى مايبكى من حوله عنـدموته ، كما ضحكوا عند ولادته . وأنشد فى ذلك :

ولدَتْكَ اذ ولدتك أمكَ باكيا * والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمل لعلك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكا مسرورا

ونظير هذه الاشارة أيضاً قولهم : ان المولود حين ينفصل يمد يده الى فيه ، إشارة الى تعجيل نزوله عند القدوم عليه بأنه ضيف ، من تمام اكرامه تعجيل قِراه ، فأشار بلسان الحال الى ترك التأخير وربما مص أصبعه إشارة الى نهاية فقره ، وأنه بلغ منه الى مص الأصابع ، ومنه قول الناس ، لمن بلغ به الفقر غايته : فهو يمص أصابعه . وأنشد فى ذلك :

ويهوِى الى فيه يمصُّ بنانه يطالب بالتعجيل خوف التشاغل
ويُعلمهم أنى فقير وليس لى من القوت شىء غير مص الأنامل

ونظير هذه الاشارة أنه يحدث بالعجب ممن يظهر من الحدث

ويحدث بين الحاضرين إشارة إلى انه من حادث ليس يعصم
يقول: وعندى بعـدها أخواتها ومامنكم إلا وذو العرش أرحم

ونظير هـذه الاشارة أنه يضحك بعد الأربعين ، وذلك عنـد مايتعقل نفسه الناطقة ويدركها . وفى ذلك قصاص من البكاء الذى أصابه عند ولادته ، وتأخر بعده ، لكى يتأسى العبد اذا أصابته شدة ، فالفرج كأم يطلبها فى أثرها :

ويضحك بعد الأربعين إشارة الى فَرَجٍ وافاه بعد الشدائد

يقول: هي الدنيا، فتبكيك مرة   وتضحك أخرى، فاصطبر للعوائد

قالوا: ويرى الاماني بعد ستين يوماً من ولادته، ولكنه ينساها لضعف القوة الحافظة وكثرة الرطوبات. وفي ذلك لطف به أيضاً لضعف قلبه عن التفكر فيما يراه

ويرى بعين القلب ـ اذ يأتي له * ستون يوما ـ رؤية الأحلام
لكنه ينساه بعد لضعفه * عن ضبطه في يقظة ومنام

١٠٨ فصل

ولما تكامل للنطفة أربعون يوما فاستحكم نضجها، وعقدتها حرارة الرحم استعدت لحالة هي أكمل من الأولى، وهي الدم الجامد الذي يشبه العلقة، ويقبل الصورة ويحفظها بانعقادها، وتماسك أجزائها. فاذا تم لها أربعون استعدت لحالة هي أكمل من الحالتين قبلها، وهي صيرورتها لحما أصلب من العلقة وأقوى وأحفظ للمخ المودع فيها، واللحم هو كسوتها، والرباطات تمسك أجزاءها وتشد بعضها بعضا، والكبد الذي يأخذ صفو الغذاء فيرسله الى سائر الأعضاء، والى الشعر والظفر، والامعاء التي هي مجاري وصول الطعام والشراب الى المعدة، والعروق التي هي مجاري منفذه وايصاله الى سائر أجزاء البدن، والمعدة التي هي خزانة الطعام والشراب وحافظته لمستحقيه، والقلب الذي هو منبع الحرارة ومعدن الحياة والمستولي على مملكة البدن، والرئة التي تروح عن البدن وتفيده

الهواء البارد الذى به حياته ، واللسان الذى هو بريد القلب وترجمانه ورسوله ، والسمع الذى هو صاحب أخباره ، والبصر الذى هو طليعته ورائده والكاشف له عما يريد كشفه ، والأعضاء التى هى خدمه وخوله ، والرجلان تسعى فى مصالحه ، واليد تبطش فى حوائجه ، والأسنان تفصل قوته وتقطعه ، والعروق توصله الى أربابه ، والذكر آلة نسله ، وأنثياه خزانة مادة النسل ، والكبد للغذاء وقسمته وهى فى الحيوان بمنزلة شرش الشجر والنبات . تجذب الغذاء وترسله الى جميع الأجزاء ، وآلات الغذاء خدم له ، والقلب للأرواح الذى به حياة الحيوان ، وآلات النفس خدم له ، والدماغ معدن الحس والتصور ، والحواس خدم له ، والأنثيان معدن التناسل ، والذكر خدم لهما . وهذه الأعضاء هى رأس أعضاء البدن

(١٠٩) فصل

وأما آلات الغذاء فثلاثة أقسام : آلة تقبل الغذاء وتصلحه وتفرقه وترسله الى جميع البدن . وآلة تقبل فضلاته ، وآلة تعين فى إخراج ثُفْله وما لامنفعة فى بقائه · فالآلات القابلة هى الفم ، والمرئ ، والبطن ، والكبد ، والعروق الموصلة الى الكبد ، والعروق الموصلة منها الى البدن

(١١٠) فصل

وأما الآلات القابلة للفضلات ، فالمرارة تقبل مالطف منها ، والطحال يقبل كثيفها ، والكلى والمثانة يقبلان المتوسط ، والكبد موضوعة فى الجانب الأيمن ، وتأخذ يسيراً للجانب الأيسر ، وهذا لحكمة بديعة ، وهى أن القلب فى الجانب الأيسر أقرب ، وهو معدن الحار الغريزى ، فتجنب عنه الكبد قليلا ، لئلا يتأذى بحرارتها ، وجعل فى أوعية الغذاء قوى خادمة له . فالفم مع كونه يقطع الغذاء ويطحنه يحيله ويغيره ، والمرئ مع كونه منفذا الى المعدة يغيره تغييرا ثانياً ، والمعدة مع كونها خزانة حافظة له تنضجه وتطبخه وتغيره تغييرا ثالثاً ، وتهضمه ، وتنفى منه مالا يصلح ، وتخرجه ، وتدفعه الى مخرج الثفل . فان الطعام اذا استقر فى المعدة اشتملت عليه وانضمت غاية الانضمام ، ثم أنضجته بحرارتها ، ثم تتولاه الكبد ، وتشتمل عليه ، وتقلبه دما خالصاً ، ثم تقسمه على جميع الأعضاء قسمة عدل ، لاجور فيها ، ولا حيف

ولما كانت المعدة حوض البدن الذى يرده أجزاء البدن من كل ناحية اقتضت الحكمة الالهية جعلها فى وسطه ، وخالص الغذاء يتأدى الى الكبد من شعب كثيرة ، ويجتمع فى موضع واحد واسع يسمى باب الكبد ، وجميع العروق التى تتصل بالمعدة والامعاء والطحال تجتمع وترتقى الى باب الكبد ، والمعدة تجذب الموافق ، ويبقى

المخالف المنافى الذى عجزت قوتها عنه . ثم ان الكبد تصفيه وتنقيه بعد اجتذابه مرة أخرى . وتنق عنه غير الموافق

وقد أعد الصانع الحكيم سبحانه لتنقية الدم من الكبد ثلاثة خدام فارهين قائمين بالمرصاد بلا كسل ولا فتور . وقد وضع كلا منها فى المكان اللائق به ، ونصبه نصبة بها يكون أمكن من عمله . ولما استقر الغذاء فى المعدة وطبخته وأنضجته صارت فضلاته ثلاثة : فضلة كالدردى الراسب . (١) وفضلة كالرغوة والزبد الطافى . وفضلة مائية ، فجعل كل خادم من هذه الخدام الثلاثة على فضلة لا يتعداها الى الأخرى ، ليجذبها من مجرى خادم الفضلة الخفيفة الطافية ، وهى للصفرة المرارة ، نصبها الرب تعالى فوق الكبد ، لان المجتذب هو الفضلة الطافية ، ومكانها فوق مكان الدردى الراسب . وخادم الفضلة التى هى كالدردى الراسب الطحال ، ونصبه الخلاق العليم أسفل من باب الكبد ، حيث كان ما يجتذبه من أسفل ، ولم يكن فى الجانب الايمن ، لان المعدة قد شغلت ذلك الجانب ، وكان الجانب الايسر خاليا فلم تعده . فاذا نقى الدم من هاتين الفضلتين خدمه الخادم الثالث وهو الكبد وقد بقى أحمر نقى اللون مشرقا نورانيا ، ويصل اليها من عرق عظيم يسمى الأجوف ثم يوزع من هناك على جهات البدن العليا والسفلى فى رواضع كثيرة العدد ، ما بين كبير وصغير ومتوسط ، كلها تتصل

---

(١) الدردى مايرسب من فضلات الزيت

بالعرق الأجوف وتمتار منه . ومادام الدم فى هذا العرق ففيه مائية غير محتاج اليها . لأنها كانت بتركب الغذاء . فلما وصل الى مستقره استغنى عنها . فاحتاج ولابد الى اخراجها ودفعها ، ولو لم يبادر الى ذلك أضرت به . فخلق الله سبحانه الكليتين يمتصان هذه الفضلة بعنقين طويلين ، كالأنبوبتين ، ويفرغانها فى المثانة بعرقين آخرين وضعهما سبحانه أسفل من الكبد قليلا ، حيث يكون أمكن لتخليص المائية ، كما تروق العصارات . وأما المرارة فوضعها الله سبحانه فوق الكبد لأنها بمنزلة السفنجة أو القطنة التى يقطف بها الدهن عن وجه الرطوبات . وأما الطحال فوضعه أميل الى أسفل ، لأنه بمنزلة ما يجتذب الأشياء المصونة اذا رسبت .

(١١١) فصل

اذا تنقى الدم من هذه الفضلات كلها وعملت فيه هذه الخدم بقواها التى أودعها الله فيها هذا العمل ، وأصلحته هذا الاصلاح عمل ملك الأعضاء والجوارح — وهو القلب — فيه عملا آخر ، فقصده بحرارة أخرى . وهى أقوى من حرارة الكبد

(١١٢) فصل

وجعل سبحانه فى المعدة أربع قوى : قوة جاذبة للملائم . وقوة منضجة له . وقوة ممسكة له . وقوة دافعة للفضلة المستغنى

عنهامنه . ورئيس هذه القوى هي القوة المنضجة وسائرها خدم لها . وخصت المعدة عن سائر الاعضاء بأن أودع فيها قوة تحس بالعوز والنقصان ، وخاصتها . تنبيه الحيوان لتناول الغذاء عند الحاجة - وأما سائر الاعضاء فانها تتغذى بالنبات باجتذاب الملائم اليها . ولما احتاجت المعدة الى قوة وحس بالعوز ولم يكن ذلك الا من معدن الحواس وهو الدماغ أتاها روح لعصب عظيم ، فأنبت أكثرها فى فمها وما يليه و باقيه مستقيما ، حتى بلغ قعرها

فان قيل : فما الحكمة فى أن باعدالله سبحانه بين المعدة والفم وجعل بينهما مجرى طويلا وهو المرىء ، وهلا أتصلت المعدة بالفم ، واستغنت عن المرىء ؟ قيل : هذا من تمام حكمة الخالق ، وفيه منافع كثيرة : منها أن يحصل للغذاء تغير ما فى طريق المجرى ، فيلطف قبل وصوله اليها . ومنها بعده عن آلة التنفس ، لئلا تعوقه وتعوق الصوت والكلام ، وأن لا تنقلب المعدة الى خارج عند شدة الجوع كما يعرض ذلك للحيوان الشره اذا كان قصير العنق

فان قيل : فلم كانت إلى الجانب الأيسر أميل منها الى الجانب الايمن ؟ قيل : ليتسع المكان على الكبد ولا ينحصر

فان قيل : فهلا كانت مستقيمة فى وضعها ، بل مال أسفلها الى الجانب الايمن ؟ قيل . ليتسع المكان على الطحال حيث كان أخفض موضعا من الكبد

فان قيل : فلم جعلت مستطيلة مدورة ، وجعلت مما يلى الصلب

مسطحة ؟ قيل : لما وضعها الله بين الكبد والطحال جعلها مستطيلة وكانت مستديرة لتتسع للطعام وللشراب ، وكان أسفلها أوسع من أعلاها لذلك . وجعل لها مدخلا وهو المرىء ومخرجا يسمى البواب ، وجعل البواب أضيق من المرىء ، لان ما تبتلعه يكون أصلب وأخشن مما تخرجه ، فجعل مدخل الداخل أوسع من مخرج الخارج لانضاجه فى المعدة ولينه ولحكم أخر : منها أن لا ينزل منه الطعام والشراب قبل نضجه ، ولتقوى المعدة على حبسه وليخرج أولا فأولا ، لادفعة واحدة . والمرىء يتسع بالتدريج حتى يبلغ المعدة ، ولذلك يظن أنه جزء منها . وأما البواب فان الجزء الضيق منه يتصل بأسفلها الذى هو أوسعها ثم يتسع على التدريج ليسهل خروج الفضلة

فصل (١١٣)

والكبد منطبقة على المعدة ، محتوية عليها بزوائدها ، لتسخنها . والطحال يسخنها من الباب الأيسر ، والصلب يسخنها من خلف ، والترائب من قدامها . والترائب مؤلفة من طبقتين رقيقتين تنطبق احداها على الأخرى بشحم كثير ، وهو غشاء الامعاء كلها ولباسها ثم غشى البطن كله بغشاء واحد يقى الاحشاء ، ويمنع من انفتاح المعدة والامعاء بالرياح ، ويربط جملة آلات الغذاء ، ولم يجعل فى الكبد تجويف ، كتجويف القلب لتحتوى على الدم احتواء ممكنا ،

وتحيله احالة بليغة . وللكبد ثلاث شباك من العروق : شبكة بينها وبين المعدة والامعاء ، وشبكة فى مفرعها ، وشبكة فى مجذبها . فالشبكة الأولى تجذب الغذاء وتحيله بعد أن أحاله . وفى الشبكة الثانية يصير دما . وفى الشبكة الثالثة يزداد صفاء وترويقا . وللكبد بالقلب والدماغ اتصال بشظة من العصب خفية ، كنسج العنكبوت

ولما كانت النفس المعدية بمنزلة حيوان عادٍ وحشى ، وكل جسم يموت فلا بد أن تتصل به هذه النفس وتغذوه ، بخلاف النفس المفكرة التى محلها الدماغ ، وبخلاف النفس الغضبية التى محلها القلب . فالنفس المفكرة تستعين بالنفس الغضبية على تلك النفس الحيوانية العادية الوحشية ـ فاقتضت حكمة الخالق سبحانه أن وصل بين محل هذه الانفس الثلاثة ليذعن بعضها لبعض .

ولا تنكر تسمية هذه القوى نفوسا . فليس الشأن فى التسمية ، فأنت تجد فيك نفسا حيوانية تطلب الطعام والشراب ، ونفسا مفكرة سلطانها على التصور والعلم والشعور ، ونفسا غضبية سلطانها على الغضب والارادة ، وتضرب كل واحدة منها فيما جعلت اليه وبعضها عون لبعض . فمحل النفس الحيوانية الكبد . ومحل المفكرة الدماغ . ومحل الغضبية القلب

(١١٤) فصل

وتأمل الحكمة فى أن جعلت صفاقات عروق الكبد أرق من

صفاقات سائر عروق البدن ، لينفذ الى الكبد جوهر الدم بسرعة ، وهى مع ذلك غير محتاجة الى الوقاية ، لأن الكبد تحوزها بلحمها ، وإنما وضعت بجارى المرة الصفراء بعد العروق التى تصعد الغذاء من المعدة ، وقبل العروق التى تأخذ الدم منها ، لان هذا الموضع هو بين موضع كمال الطبخ ، وبين موضع انتقاله الى العرق الأجوف ؛ وحينئذ يمكن انفصال المرة عن الدم . وجمعت العروق كلها الى عرق واحد هو الباب ، ثم عادت فتقسمت فى مقعر الكبد ، ثم عادت فجمعت فى محدبها الى عرق واحد ، وهو الأجوف ، لتجيد بقسميها إنضاج ما تحتوى عليه ، ولئلا ينفذ بسرعة ، وكذلك كل موضع احتيج فيه الى طول مكث المادة هيء بقاؤها فيه بطول مسلكها ، وكثرة تعاريجه ، كما فعل فى مجارى المنى ، وشبكة الدماغ . وهذا شأن العروق الجواذب . وأما العروق الضوارب فبالعكس من ذلك ، فانها جمعت فى مقعر الكبد دون محدبه بها . لأنه موضع الدم ، وحاجته الى التغذية بالحرارة ماسة . قال جالينوس : ولا تقع العروق الضوارب فى محدب يعلم الخالق سبحانه أن جذبه الكبد لانها تحرك دائما بمجاورة الحجاب ، فيقوم لها ذلك مقام حركة العروق الضوارب ، وجعلت هذه العروق الضوارب رقاقا لأنها إنما وضعت لترويح الكبد لا لتغذيتها ، ولا لاتصال روح اليها ، إذ ليس بالكبد حاجة الى قبول روح حيوانى كثير ، ولا يحتاج لحمها إلا الى غذاء لطيف بخارى

(١١٥) فصل

وأحرز الصانع سبحانه موضع الكبد ووضعها ، بأن ربطها بالمعدة والامعاء كلها بالعروق ، وبالغشاء الممدود على البطن الذى يشد جميعها ، ووصل بها رباطات من جميع النواحى ، وغشاؤها الرابط يتصل بالحجاب برباط قوى ، ورباط الكبد بالحجاب صلب وثيق ، لان الكبد معلقة به ، وهو أصلب من غشاء الكبد لشدة الحاجة الى صلابته ، لانه يحرز الكبد ، والعرق الأجوف متى ناله آفة مات الحيوان ، كما تهلك أغصان الشجرة اذا أصاب ساقها آفة

وجعل أرق هذه الرباطات من خلف ، لشده بالعظام . وأغلظه من قدام حيث لأعظام هناك تقيه . وهذا من شدة الأسر الذى قال الله تعالى فيها (٢٨:٧٦ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ) شدأوصالهم بالرباطات المحكمة ، وجعل خلقهم بعضه موصولا ببعض . ولما كان الحجاب آلة شريفة للنفس بُوعِد من العضوين المجاورين له ـ وهما المعدة والكبد ـ بمقدار حاجته ، لئلا يزحماه ويعوقاه عن فعله ، فبوعدت المعدة عنه بطول مجراها

(١١٦) فصل

وأما الطحال ، فبعضهم يقول : إنه لا نفع فيه ، وإنما شغل المكان

به لئلا يبقى فارغا ، فيميل أحد شقى البدن بثقل الكبد ، فجعل موازنا للكبد

قلت : وهذا غلط من وجه ، وصواب من وجه : أما الصواب فمن الحكم العجيبة جعل الطحال فى الجانب الأيسر على موازنة الكبد ، لئلا يميل الشق الأيمن بها ، ولا يمكن أن تقوم المعدة بموازنة الكبد ، لأنها دائما تمتلىء وتخلو . فتارة تكون أخف من الكبد ، وتارة أرجح منها . فيصير البدن مترجحا ، أو يميل الى شق الكبد وقتا ، والى شق المعدة وقتا آخر . فجعل الخالق سبحانه الطحال يوازن الكبد ، وجعل المعدة بينهما فى الوسط ، لئلا يثقل جانب ويخف جانب آخر عند امتلائها وخلوها . فلما جعلت وسطا لم يختلف وضع البدن باختلافها

وأما الغلط فقوله : إنه لا منفعة فيه ، وانما يشغل المكان لئلا يبقى فارغا ، فانه ـ وإن لم يعلم فيه منفعة ـ لم يكن له أن ينفيها . فان عدم العلم بالمنفعة لا يكون علما بعدمها ، ولا شىء فى البدن خال عن المنفعة ألبتة . وفى الطحال من المنافع أنه يجذب الفضلة الغليظة العكرة السوداء من الكبد نوعا ، من جنس العروق كالعنق له . فاذا حصلت تلك الفضلة عنده أنضجها وأحالها . وهو ينضج غليظ الدم وعكره ، كما ينضج قولون غليظ الغذاء ويابسه . ويستعمل فى فعله العروق الضوارب الكثيرة المبثوثة فيه كلها ، فما نضج واستحال الى طبيعته صار غذاء له ، وما لم يمكن أن ينقلب الى الدم الموافق له قذفه الى

المعدة بعنق آخر من جنس العروق . وانما أمكنه جذب الفضل الأسود بقوة لحميته ، لأنه رخو متحلحل خفيف كالاسفنج . ولما اتصلت به العروق الضوارب الكثيرة استغنى بها عن انضاج الفضول السوداء ، ليبقى لحمه خفيفا متحلحلا . لان دم الشرايين رقيق لطيف قريب ، طبيعته البخار . فما اغتذى به كان نحيفا كالرئة ، ولكن الرئة تغتذى بما صفا ورق وأشرق ، وكان أحمر ناريا . وكذلك الرئة كانت أخف وزنا منه ، وأسخف جرما ، ومائلة الى البياض . وأما الطحال فيغتذى بما لطيف من الخلط الاسود المنطبخ فى الشرايين ، فيستريح منه البدن ويغتذى به الطحال . فالطحال يغتذى بغذاء لطيف من غذاء الكبد ، لانه يرشح اليه من الشرايين التى صفا فأيهما يحبه جدا (١) ولاجل سواد تلك الفضلة وكونها عكرة فى الاصل ، لم يكن لون الطحال أحمر ولا مشرقا

فأما الكبد فتغتذى بدم غليظ فاضل يرشح اليها من العروق غير الضوارب ، فلجودة غذائها كان لونها أحمر ، ولفضلته كانت كثيفة . فالكبد تغتذى بدم أحمر غليظ . والطحال بدم أسود لطيف . والرئة بدم صاف مشرق ، فى غاية النضج ، قريب من طبيعة الروح . فجوهر كل عضو على ما هو عليه غذاؤه ، ملائما له . فالغاذى شبيه بالمغتذى فى طبعه وفعله وهذا كما أن حكمة الله سبحانه فى خلقه فبه جرت حكمته فى شرعه وأمره ، حيث حرم الأغذية الخبيثة على عباده ، لأنهم اذا

---

(١) كذا فى الاصل

اغتذوا انها صارت جزءا منهم ، فصارت أجزاؤهم مشابهة لأغذيتهم.
اذ الغاذى شبيه بالمغتذى ، بل يستحيل الى جوهره . فلهذا كان نوع
الانسان أعدل أنواع الحيوان مزاجا ، لاعتدال غذائه . وكان
الاغتذاء بالدم ولحوم السباع يورث المغتذى بهما قوة شيطانية
سبعية عادية على الناس . فمن محاسن الشريعة تحريم هذه الأغذية
وأشباهها . الا اذا عارضها مصلحة أرجح منها ، كحال الضرورة .
ولهذا لما أكلت النصارى لحوم الخنازير ، أورثها نوعا من الغلظة
والقسوة . وكذلك من أكل لحوم السباع والكلاب صار فيه قوتها .
ولما كانت القوة الشيطانية عارضة ثابتة لازمة لذوات الأنياب من
السباع حرمها الشارع . ولما كانت القوة الشيطانية عارضة فى
الابل أمر بكسرها بالوضوء لمن أكل منها . ولما كانت الطبيعة الحمارية
لازمة للحمار حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر الأهلية .
ولما كان الدم مَركب الشيطان ومجراه حرمه الله تعالى تحريما لازما

فمن تأمل حكمة الله سبحانه فى خلقه وأمره ، وطبق بين هذا وهذا
فتحاله بابا عظيما من معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته . وهذا هو
الذى حركنا لبسط القول فى هذا المقام الذى لا يكاد يرى فيه الا
أحد طريقين : طريق طبيب معترض للوحى مقلد لبقراط ، وطائفته
قد عبرت عينه على الرسل وما جاءوا به . وهو ممن قال تعالى فيه
(٤٠: ٨٣ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ
الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) وطريق من يجحد ذلك كله

ويكذب قائله، ويظن منافاته للشريعة ، فيجحد حكمة الله تعالى فى خلقه ، وابداعه فى صنعه ، وكلا الطريقين مذموم ، وسالكه من الوصول الى الغاية محروم . فلا نكذب بشرع الله ، ولا نجحد حكمة الله . وأكثر ما أفسد الناس أنهم لم يروا الاطبائعيا زنديقا ، منحلا عن الشرائع ، أومتساهلا قادحا فيما جرت به حكمة الله ومشيئته فى خلقه ، منكرا للقوى والطبائع والاسباب والحكم والتعليل . فاذا أراد الأول أن يدخل فى الاسلام صده جهل هؤلاء ومكابرتهم للعقول والحس . واذا أراد الآخر أن يدخل فى معرفة الحكم والغايات ، وما أودع الله فى مخلوقاته من المنافع والقوى والأسباب ، صده زندقة هؤلاء وكفرهم ، واعراضهم عما جاءت به الرسل ، وقدحهم فيما عندهم من العلم . فيختار دينه على عقله ، ويختار ذلك عقله وما استقر عنده ، مما لا يكابر فيه حسه ولا عقله على الدين . وهذا قد يلى خاق الاطباء والطبائعيين فهو عنده أحد أنواع أدلة التوحيد والمعاد وصفات الخالق ، وما اخبرت به الرسل هو من أظهر أدلته ، ولا يزداد الباطن فيه الا ايمانا ، وما أخبرت به الرسل لا يناقض ماجرت به عادة الله وحكمته فى خلقه : من نصب الأسباب وترتيب مسبباتها عليها بعلمه وحكمته . فمصدر خلقه وأمره علمه تعالى وحكمته . وآلاء الرب تعالى لا تتعارض ولا تتناقض ، ولا يبطل بعضها بعضا . والله أعلم

فصل (١١٧)

والكبد والطحال متقابلان ، والمعدة بينهما . والعروق الضوارب تتصل بها المعدة ، والقلب بمنزلة التنور ، أو بمنزلة أتون الحمام يسخن ماءه ، وله الى كل بيت منفذ ينفذ منه وهج النار اليه . وكذلك الحار الغريزى الذى منبعه من القلب ينفذ فى مسالك ومنافذ الى جميع الأعضاء فيسخنها

فصل (١١٨)

وجعلت الأعضاء مسلكا مؤديا ، والمعدة هى الآلة لهضم الغذاء واستمرائه ، والامعاء تؤدى ذلك الى الكبد . ولما كانت الامعاء آلة الأداء والاتصال كثرت لفائفها وطولها ، وكانت العروق التى تأتيها من الكبد لاتحصى كثرة ، لينفذ فيها الغذاء أولا فأولا ، وتفيضه يسيرا يسيرا . فلولا تطويل لفائف الامعاء لكان يخرج قبل أخذ خاصيته ، وكان يعرض اليهم بشهوة الأكل دائماً ، وكان الانسان يعدم التفرغ لمصالحه وسائر أعماله ، وكان دائماً مكبا على الغذاء . ولهذا صار الحيوان الذى ليس لامعائه استدارات بل له معى واحد مستقيم ، مكبا على الغذاء دائما ، عديم الصبر عنه ، كالفيل وأما مالامعائه استدارات فانه اذا فارقه الغذاء أو بعضه فى الاستدارة الأولى صادفه فى الثانية . فان هو فاته فى الثانية صادفه فى الثالثة والرابعة والخامسة كذلك . فيمكن صبره على الغذاء . حكمة بالغة

وما ينفذ الى الامعاء يبعث من العروق الضاربة ويأخذ من الغذاء جزءا يسيرا لطيفا . وأما العروق غير الضاربة فهى مجارى الغذاء بالحقيقة ، فأخذت أكثره . وأما العروق الضاربة فجعلت مسلكا للأرواح المنبعثة من القلب ، فاستغنت بقليل الغذاء ، وجعل للقلب وصلة بالامعاء ليحسنها أولا ، ويمدها بقوة الحار باذن خالقه . ثم يأخذ منها الجزء الملائم من الغـذاء المستغنى عن فعل الكبد للطافة جوهره . فان هذا الجزء لو حصل فى الكبد لم يؤمن احراقه وفساده فلا ينتفع به القلب ، ثم يأخذ منها عند شدة الحاجة وصدق المجاعة ؛ فيتعجل ذلك من أدنى المواضـع . ولذلك يشاهد من أكل مسنبة شديدة (١) يحس بزيادة ونماء فى كل أعضائه ، حتى يمر الطعام بالمعدة قبل استقراره فيها . فسبحان من أتقن ماصنع

ولما كانت المعدة آلة هضم الغذاء ، والامعاء آلة دفعه جعل للامعاء طبقتان ، ليقوى دفعها بهما جميعا ، وليكون حرزا لها وحفظا . ولذلك من تعرض له قرحة الامعاء بانجراد أحد الصفاقين يبق الآخر سليما ، وجعلت الامعاء الغلاظ لقذف الثُفْل ، والرقاق لتأدية الغذاء . والسبب فى أن صار الانسان لايحتاج الى تناول الغذاء دائما كثرة لفائف امعائه . والسبب المانع من قذف الفضول دائما سعة الامعاء الغلاظ التى تقوم لها مقام وعاء آخر شبيه بالمعدة فى السعة ، كما أن المثانة وعاء للبول كذلك

---

(١) كذا فى الاصل

(١١٩) فصل

ونحن نذكر فصلا مختصرا فى هذا الباب ، يجمع شتات ذلك بايضاح وايجاز إن شاء الله تعالى ، وبه الحول والقوة ، فنقول :

المرىء موضوع خلف الحلقوم ومما يلى فقار الظهر ، وينتهى فى ذهابه الى الحجاب ، وهو مشدود برباطات . فاذا أبعد مال الى الجانب الأيسر واتسع . وذلك المتسع هو المعدة ، وأسفلها يعود مائلا الى اليمين . والمعدة مقر طبخه ، وفمها هو المسدف منها ويسمونه الفؤاد . وهذا من غلطهم ، الا أن يكون ذلك اصطلاحا خاصا منهم . والفؤاد عند أهل اللغة هو القلب . قال الجوهرى : الفؤاد القلب . وقال الاصمعى : وفى الجوف الفؤاد ، وهو القلب . وقد فرق بعض أهل اللغة بين القلب والفؤاد . فقال الليث : القلب مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط . وقالت طائفة : مسدف القلب . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « جاءكم أهل اليمن أرق قلوبا ، وألين أفئدة (١) » ففرق بينهما ووصف القلب بالرقة والأفئدة باللين . وأما كون فم المعدة هو الفؤاد فهذا لا نعلم أحدا من أهل اللغة قاله . وتأمل وصف النبى

---

(١) روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أتاكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوبا . الايمان يمان . والحكمة يمانية . والفخر والخيلاء فى أصحاب الابل . والسكينة والوقار فى أهل الغنم »

صلى الله عليه وسلم القلب بالرقة التى هى ضد القساوة والغلظة ، والفؤاد باللين الذى هو ضد اليبس والقسوة . فاذا اجتمع لين الفؤاد الى رقة القلب حصل من ذلك الرحمة ، والشفقة ، والاحسان ، ومعرفة الحق ، وقبوله . فان اللين موجب للقبول والفهم ، والرقة تقتضى الرحمة والشفقة . وهذا هو العلم والرحمة . وبهما كمال الانسان وربنا وسع كل شىء رحمة وعلما . فلنرجع الى ما نحن بصدده فنقول :

المعدة مع المرىء ذات طبقتين لطيفتين ، واللحم فى الطبقة الداخلة أقل . ولهذا يغلب عليها البياض . وهى عصبية حساسة ، وهى فى الطبقة الخارجة أكثر ، ولهذا يغلب عليها الحمرة ، وهى مربوطة مع الفقار برباطات وثيقة ، وتنتهى من جهة قعرها الى منفذ هو باب المعدة ، وبوابها ، يغلق عند اشتماله على الغذاء مدة هضمه . ويقال لباطن جرم المعدة : خمل المعدة

والامعاء المصارين ، وهو جمع مصران ـ بضم الميم ـ وهو جمع مصير . وسمى مصيراً لمصير الغذاء اليه ، والسفلى يقال لها : الاقتاب . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « فتندلق أقتابُ بطنه » (١) والعليا

---

(١) روى البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع اليه أهل النار . فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهي عن المنكر وآتيه »

أرق من السفلى ، لما تقدم من الحكمة .

فأعلى الرقاق يسمى الاثنى عشر ، لأن مساحته اثنا عشر إصبعاً ، ويليه المسمى بالصائم ، لقلة لبث الغذاء فيه ، لا لأنه يوجد أبدا خاليا كما ظنه بعضهم . فان هذا باطل حسا وشرعا كما سنذكره . والثالث المسمى بالرقيق واللفائف ، وهو أطول الأمعاء وأكثرها تلافيف . ولبث الغذاء فيه أطول ، والعروق التى تأتيه من الكبد أقل . وأما اللذان قبله فمنتصبان فى طول البدن قصيران ، ويقل لبث الغذاء فيهما ، وهو فى الصائم أقل لبثا . وهذه الثلاثة تسمى الامعاء العليا ، والامعاء الرقاق ، وهى كلها فى سعة البواب

وأما الدامع ، وهو الأول من الثلاثة السفلى فيسمى الأعور ، لأنه لامنفذله ، بل هو كالكيس يخرج منه مادخل من حيث دخل . وحكمته سبحانه أنه يتم فيه مايعسر هضمه من الأشياء الصلبة ، كما يتم ذلك فى قوانص الطيور . ووضعه فى الجانب الأيمن

والخامس المسمى بقولون يبتدىء من الجانب الأيمن ويأخذ عرضا الى الأيسر ويحتبس فيه الثفل ، وربما يستقضى مافيه

والسادس هو الآخر ، وهو المعى المستقيم ، لأنه مستقيم الوضع فى طول البدن ، وهو واسع جدا ، يجتمع فيه الثفل كما يجتمع البول فى المثانة ، وعليه الفضلة المانعة لخروج الثفل بدون الارادة . وقد صح عن

والاقتاب : الامعاء . واحدها قتب ـ بكسر القاف ـ وتندلق : تخرج

النبي ﷺ انه قال « المؤمن يأكل في مِعًى واحد والكافر يأكل في سبعة امعاء (١) » فأطلق على المعدة اسم المعى تغليباً ، ولمشابهتها بالامعاء لكون كل واحد من الامعاء والمعدة محلا للغذاء . وهذا لغة العرب كما يقولون : القمران ، والعمران ، والركنان اليمانيان ، والشاميان ، والعراقيان (٢) ونظائر ذلك ، ولاسيما فان تركيب الامعاء كتركيب المعدة ، اذ هي مركبة من طبقتين : لحمية خارجة ، وعصبية داخلة . والطبقة الداخلة فيها لزوجات متصلة بها لتقيها من حر ألم البراز ، ورداءته ، كثيفة فلا تمسكه ، ولا يتعلق بها شيء منه . ولما كان الكافر ليس في قلبه شيء من الايمان والخير يغتذى به انصرفت قواه ونهمته كلها الى الغذاء الحيواني البهيمي ، لما فقد الغذاء الروحي القلبي . فتوفرت أمعاؤه وقواه على هذا الغذاء ، واستفرغت امعاؤه هذا الغذاء ، وامتلأت به ، بحسب استعدادها وقبولها ، كما امتلأت به العروق والمعدة . وأما المؤمن فانه إنما

---

(١) روى مالك والبخارى ومسلم وابن ماجه وغيرهم عن ابى هريرة : أن رجلا كان يأكل كثيرا . فأسلم ، فكان يأكل أكلا قليلا ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال « ان المؤمن يأكل في معى الخ » واللفظ للبخارى

(٢) يعني للشمس والقمر ، ولابى بكر وعمر ، وللركن الذى به الحجر الأسود والذى يليه من ظهر الكعبة . والشاميان هما اللذان بينهما الميزاب ويحاذيان حجر اسماعيل . والعراقيان هما الركن اليماني والذى يليه من الجهة الغربية ، لانهما يحاذقان العراق

يأكل العلقة ليتقوى بها على ما أمر به ، فهمته وقواه مصروفة الى أمور وراء الأكل . فاذا أكل مايغذيه ويقيم صلبه استغنى قلبه ونفسه وروحه بالغذاء الايمانى عن الاستكثار من الغذاء الحيوانى ، فاشتغل معاه الواحد - وهو قولان - بالغذاء ، فأمسكه حتى أخذت منه الأعضاء والقوى مقدار الحاجة ، فلم يحتج الى أن يملأ امعاءه كلها من الطعام . وهذا أمر معلوم بالتجربة . واذا قويت مواد الايمان ومعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته والشوق الى لقائه فى القلب استغنى بها العبد عن كثير من الغذاء ، ووجد لها قوة تزيد على قوة الغذاء الحيوانى . فان كثفت طباعك عن هذا وكنت عنه بمعزل ، فتأمل حال الفرح والسرور بتجدد نعمة عظيمة واستغناؤك مدة عن الطعام والشراب مع وفور قوتك ، وظهور الدموية على بشرتك ، وتغذية بالسرور والفرح . ولا نسبة لذلك الى فرح القلب ونعيمه ، وابتهاج الروح بقربه تعالى ومحبته ومعرفته ، كما قيل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ٭ عن الطعام ، وتلهيها عن الزاد

وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته «إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى (١) » وصدق الصادق المصدوق

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الوصال - فى الصوم - فقالوا : انك تفعله . فقال « انى لست كأحدكم ، انى أظل الخ » متفق عليه . والوصال : أن يصل الليل بالنهار صوما بدون أن يطعم شيئا او يشرب عدة أيام

صلوات الله وسلامه عليه . فان المقصود من الطعام والشراب التغذية الممسكة ، فاذا حصل له أعلى الغذاءين وأشرفهما وأنفعهما فكيف لا يغنيه عن الغذاء المشترك . وإذا كنا نشاهد أن الغذاء الحيوانى يغلب على الغذاء القلبى الروحى حتى يصير الحكم له ، ويضمحل هذا الغذاء بالكلية . فكيف لا يضمحل غذاء البدن عند استيلاء غذاء القلب والروح ويصير الحكم له ؟ وقد كان صلى الله عليه وسلم يمكث الأيام لا يطعم شيئا . وله قوة ثلاثين رجلا ، ويطوف مع ذلك على نسائه كلهن فى ليلة واحدة ، وهن تسع نسوة وهذا المسيح بن مريم صلى الله عليه وسلم حى لم يمت ، وغذاؤه من جنس غذاء الملائكة . وأنت تشاهد المريض يمكث الأيام العديدة لا يأكل ولا يشرب ، لاشتغال نفسه بمحاربة المرض ومدافعته ، واكتفاء الطبيعة ببقية الغذاء الذى فى الأمعاء والمعدة مدة الحرب ، فاذا وضعت الحرب أوزارها رأيت شدة طلبه للغذاء . فالخائف ، والمحب ، والفرح ، والحزين ، والمستولى عليه الفكر لا تطالبه نفسه بشىء من الغذاء كالخالى من ذلك

(١٢٠) فصل

والكبد عضو لحمى ، تتخلله عروق رقاق وغلاظ ، وعلى الكبد غشاء عصبى حساس يحيط بها وينتهى الى غلافه . والكبد هى الأصل فى الغذاء ، وآلات الغذاء خدم لها ومعينات . فان الانسان لما كان

كالشجرة المستقلة جعل له مايقوم مقام النهر الجارى فى أصول الشجرة يسقيها ، وهو الامعاء . والمعدة بمنزلة العين ، وتجرى منها العروق مجرى السواقى ، وعروق الكبد المتصلة بالامعاء بمنزلة عروق الشجرة المتصلة بأرض الساقية ، تمتص الماء منها وتؤديه الى الشجرة وأغصانها وورقها وثمارها . وهذه العروق تمص الماء من الطين والثرى . وكذلك عروق الكبد تمتص صفو الماء وخالصه من كلوليته ، وتحيله الى طبيعة الأعضاء ، كما تفعل عروق الشجرة . وشكل الكبد شكل هلالىّ محدب من ظاهره ، مقعر من باطنه ، وهى تحت الاضلاع الخمس . ولها خمس شعب . يقال لها الزوائد تحتوى على المعدة ، كما تحتوى الكف بأصابعها على الشىء المقبوض ويقال للشعبة الصغيرة منها خاصة زائدة الكبد ، وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « ان سبعين ألفاً من أهل الجنة يأكلون من زيادة كبد الحوت ، الذى هو أول طعامهم » وهذا يدل على عظم قدر هذه الزائدة . فما الظن بالكبد التى هى زائدته ، فكيف بالحوت الذى حواها ؟

ومقعرها يسمى المورد ، لانه يورد الغذاء من المعدة والامعاء ، ويسمى باب الكبد ، ثم تتشعب هذه العروق من جانبيه بشعب تتصل بالامعاء ، وتسمى الجداول لشبهها بالسواقى الصغار ، وتؤدى الى نقرة عظيمة . ولهذه الجداول أغشية من فوقها ومن تحتها ،

فتستدير مع الامعا العروق المتصلة بها، وتسمى هذه الأغشية وما تحتويه المرابط

(١٢١) فصل

والعرق الثانى ينقسم فى مجذبها الى عروق صغار، وأصغر منها، حتى تبلغ غاية الرقة، ثم تعود وتجتمع أول فأول، على قياس ماتفرق، وأخذ من كثرة الى وحدة، ومن رقة الى غلظ، حتى يجتمع منها العرق الخارج من الكبد المسمى بالأجوف، ومنها يتأدى الدم الى البدن كله، وحين يخرج ينقسم الى قسمين: فيأخذ أحدهما نافذا فى الحجاب نحو القلب، ويسمى الوتين. قال أهل اللغة. الوتين عرق يسق القلب. قال فى الصحاح: الوتين عرق فى القلب، إذا انقطع مات صاحبه. وأصيب وتينه فهو موتون وقال الواحدى: الوتين نياط القلب، وهو عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى، ومات صاحبه، وهذا قول جميع أهل اللغة، وأنشدوا للشماخ:

إذا بَلَّغتِنى وحملتِ رَحلى * عَرابة فاشرقى بدم الوتين

وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: هو حبل القلب ونياطه.

وأما الأبهر الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم «هذا أوان

انقطاع أبهَرِى (١) » فقال الجوهرى : الأبهر عرق إذا انقطع مات صاحبه . وهما أبهران يخرجان من القلب ، ثم تتشعب منهما سائر الشرايين . وأنشدوا للأصمعى :

وللفؤاد وجيب عند أبهره * لدم الغلام وراء الغيب بالحجر (٢)

(١٢٢) فصل

والمرارة موضوعة على الكبد . ولها مجريان : أحدهما متصل بتقعير الكبد ، يجتذب المرة الصفراء . والآخر متصل بالأمعاء العليا يصب فى المرة ليغسلها ويجليها ، ويتصل منه السر بأسفل المعدة ليمتزج بالغذاء فيكون فيه معونة على هضمه

(١٢٣) فصل

والقوة التى وكلها الله سبحانه وتعالى بتدبير البدن من أعظم آياته الدالة عليه ، فانها تفعل فى الطعام والشراب الواردين عليه أفعالا متنوعة . من تقطيع ، وتفصيل ، وتمريخ ، وتحليل ، وتركيب . فمبدأ ذلك فى الفم ، وهو تقطيعه بالأسنان ومضغه واختلاطه بالرطوبات التى فيه ، وانهضامه فيه انهضاما تاما . ثم بعد ذلك عند وروده الى

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى مرضه الذى مات فيه « ياعائشة ما أزال أجد الطعام الذى أكلت بخيبر ، وهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم » رواه البخارى (٢) كذا فى الاصل ، وليحرر

المعدة تهضمه هضما آخر ، ويسمى الهضم الاول ، ويعينها على هضمه ما يجاورها من الأعضاء . فالكبد عن يمينها ، والطحال عن يسارها ، والقلب من فوقها ، والمرىء أمامها ، والامعاء السبل الموصلة اليها ، والعروق الطرق المؤدية منها ، والحرارة النار الطابخة للطعام فيها ، والقوة الهاضمة والجاذبة ، والغاذية ، والدافعة خدم لها . فاذا انهضم الطعام فيها صار كيلوسا شبيها بماء الكشك الثخين ، ثم تنهز صوبه ولطيفه ، فتقذفه العروق الرقاق الشعرية التي هي برقة الشعر وينجذب الى الكبد ، فاذا ورد هذا اللطيف الى الكبد اشتملت عليه بجملته فطبخته وهضمته وأحالته الى جوهرها ، وصيرته دما . ويسمى هذا الهضم الثانى . ولما كان هذا الانضاج والطبخ يشبه طبخ القدر علاه شىء كالرغوة والزبد ، وهو الصفراء ، ورسب منه شىء مثل العكر ، وهو السوداء ، وتخلف عن تمام النضج شىء بقى على فجوجته وهو البلغم ، والشىء الذى يصفو ويبقى من ذلك كله هو الدم . فاندفع من الكبد فى العرق الأعظم المعروف بالأجوف بعد أن تصفت عنه المائية الى آلة البول ، فيسلك هذا الدم فى الأوردة المتشعبة من الجوف ، ثم فى جداول متشعبة من الأوردة ، ثم فى سواقى متشعبة من الجداول ، ثم فى رواضع مشتقة من السواقى ، ثم فى عروق رقاق شعرية ، ثم يرشح من أفواهها فى الأعضاء لتغتذى به فتحله الأعضاء وتصيره لجوهرها ، فيصير فى اللحم لحماً ، وفى العظم عظما ، وفى العصب عصباً ، وفى الظفر ظفرا ، وفى الشعر شعرا ،

وفى السمع والبصر وآلة الحس كذلك. فتبارك من هـذا صنعه فى قطرة من ماء مهين

فصل (١٢٤)

والدم هو الخليط الأصلى والغذاء الحقيق للبدن ، والمخلف عليه بدل ماينقص ويتحلل منه . والاخلاط الأخر كالأبازير والتوابل وهى صنفان : صنف لطيف ، وهو دم القلب . وغليظ وهو دم الكبد . ومثله مثل السلطان إذا كان وقورا حليما ساكنا عاشت به رعيته . وإذا غضب واحتد قتل

فصل (١٢٥)

وأما البلغم فخليط فج مستعد ، لين ، يستكمل نضجه عند عوز الغذاء اذ تولته الحرارة الغريزية ، فهضمته وصيرته دما ، فيكون فى المعدة والامعاء ، وفى الكبد عندقصور الهضم ، وفيه من المنفعة أنه يرطب البدن ويبل المفاصل ، لسلس حركاتها ، ويخالط الدم فى تغذية الأعضاء البلغمية المزاج كالدماغ

ولما كانت الأعضاء محتاجة أن يكون قريبا منها لترطيبها لم يجعل له عضو يختص به ، لاسيما والأعضاء تغتذى به اذا أعوزها الغذاء

(١٢٦) فصل

وأما الصفراء فخليط لطيف حار ، وحاجة البدن اليها فى أن تخالط الدم وترقه بلطفها ، وتنفذه فى المسالك الضيقة ، ولتعينه فى تغذية الأعضاء الحارة اليابسة ، وما ينفصل عنها مما يستغنى عنه يتصفى الى المرارة لتأخذ نصيبها منه ، وما تستغنى عنه المرارة تصبه الى الامعاء ليغسلها عن لطخة الأثفال ولزوجتها ، ولتدع عضل المقعدة فيحس بالحاجة الى التبرز

(١٢٧) فصل

وأما المرارة السوداء فخليط بارد يابس ، وفيه من المنافع أنه ينفذ مع الدم فى العروق ليشده ويقويه ويكفيه ويمسكه ويمنعه من سهولة الحرمة عند الحاجة الى ذلك ، ويعينه على تغذية الأعضاء المحتاجة أن يكون فى غذائها شىء من السوداء ، كالعظام وما اتصل منه واستغنى عنه يصفى الى الطحال ، فيصفيه الطحال جدا ، ويتغذى به ، ثم يجلب مايستغنى عنه الطحال الى فم المعدة فيدغدغه بالحموضة التى فيه ، فتتحرك الشهوة ويحس بالجوع ، فتطلب الأعضاء القصوى معلومها وراتبها من الأعضاء التى تليها ، وتطلبه الأعضاء التى تليها من التى تجاورها . وهكذا حتى ينتهى الطلب الى المعدة . فالجوع طلب الأعضاء القصوى معلومها من الأعضاء الدنيا

فصل (١٢٨)

ولما اقتضت حكمة الرب ، جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ؛ ولا إله غيره - حيث كان بدن الانسان مشبها فى أحواله بالمدينة - أن يوجد فيه أعضاء رئيسية تقوم بمصالحها ، كما تقوم رؤساء المدينة بمصالحها ، وتكون لها بمنزلة الولاة والأمراء ، وأعضاء تكون خادمة لهذه الاعضاء الرئيسية ، فان الرئيس لايكون رئيسا الا بمرءوس ، وهى : بمنزلة الشرط والجلاوزة (١) والنقباء ، وأن يوجد فيها أعضاء كالرعية ، وهى قسمان : ماله اتصال بالرؤساء ، وان لم يكن له اتصال خدمة ، ومالا اتصال له بهم ، بل هو مستقل بنفسه . فالأعضاء اذاً بهذا التقسيم أربعة : أحدها الأعضاء الرئيسية المخدومة . الثانى الأعضاء المرءوسة الخادمة . الثالث الأعضاء المرؤوسة بلا خدمة . الرابع الاعضاء التى ليست رئيسة ولا مرءوسة

فصل (١٢٩)

والأعضاء الرئيسة انما استحقت الرياسة لشرفها ، اذ كانت هى الأصول والمعادن والمبادىء للقوى الأولية فى البدن ، المضطر اليها فى بقاء الشخص والنوع ، وهى بحسب بقاء الشخص ثلاثة : القلب ، والكبد ، والدماغ . وبحسب بقاء النوع أربعة : الثلاثة المذكورة ، والأنثيان

---

(١) جمع جلواز - بكسر الجيم وسكون اللام - وهو الشرطى . قاموس

وأما القلب فهو الذى جعله الخلاق العليم قائما بأمر البدن ، كقيام الملك بالرعيـة ، وهو أول عضو يتحرك فى البدن ، وآخر عضو يسكن منـه . وهو مبدأ جميع الخلق وما يلحقه من صلاح أو فساد يتأدى منه الى غيره من الأعضاء

وأما الكبد فهى العضو التى تقوم لحفظ الحياة ، اذ كانت هى التى تملأ الأعضاء بالغذاء ليبقى البدن محفوظا ما أمكن بقاؤه

وأما الدماغ فهو العضو القائم بأمر الحس والادراك ، وتكميل الحياة ، اذ فيه آلات الاحساس التى بها يعرف النافع من الضار ، والملائم من المنافر . وبه صارت الحياة نافعة ، صالحة ، متجاوزة لزينة حياة النبات

وأما الانثيان ، فهما اللذان يقومان لحفظ بقاء النوع

(١٣٠) فصل

وأما الأعضاء الخادمة فالرئة ، والشرايين الحاملة المؤدية من القلب الحرارة الغريزية والقوى والأرواح الحيوانية ، التى بها قوام البدن :

فهذان خادما القلب . والمعدة والأوردة خادمان للكبد . والأوردة تنفذ الدم الغاذى والقوى الى جميع البدن . والكبد خادمة الدماغ . وكذلك الأعصاب التى بها يحصل الحس والحركة

والأنثيان يخدمهما الأعضاء المؤدية للمنى ، والمجارى المؤدية عنهما الى موضع التوالد

(١٣١) فصل

وأما الأعضاء المرءوسة بلاخدمة ، فهى أعضاء مختصة بقوى لها طبيعة ، بهايتم تدبيرها ويستقيم أمرها ، ولايدفع ذلك أنه يقبض عليها من الأعضاء الرئيسة قوى تمدها باذن الله تعالى كالأذن ، والعين ، والأنف ، فان كل واحد منها يقوم بأمر نفسه بما فيه من القوة الطبيعية التى أعطاها اياها الخالق سبحانه . ولا يتم ذلك إلا بأن تأتيها قوة حساسة تنزل عليها من الدماغ باذن الله تعالى

(١٣٢) فصل

وأما الأعضاء التى ليست برئيسة ولا مرءوسة، فهى التى اختصت بقوى غريزية فيها من أصل الخلقة فى أول التكوين ، ليتم بها قوام أمرها ، وتدبيرها فى جلب المنافع ودفع المضار ، كالعظام والغضاريف وسائر الأعضاء المتشابهة الأجزاء ، مثل الرباطات ، والأعصاب والأوتار ، والشرايين ، والأوردة ، والأغشية واللحم . والعظام كالأساس والاسطوانات ، لبناء هيكل البدن

فان قيل : هل فى العظام قوة الاحساس وحياته أم لا ؟ قيل : هذا موضع اختلف فيه أرباب الشريعة . فيما بينهم ، وأرباب الطبيعة

فيما بينهم . فقالت طائفة : لاحياة فى العظام وان كان فيها قوة النمو والاغتذاء

قالوا : ان الحياة انما هى الروح الحيوانى ، ولا حظ للعظام فيه

قالوا : ولأن مركب الحياة إنما هو الدم المنبث فى العروق والاعصاب واللحم . ولهذا لم يكن للشعر ولا للظفر نصيب من ذلك . ولهذا لم يألم الانسان بأخذه

قالوا : فحياة العظام والشعر حياة نمو واغتذاء ، وحياة أعضاء البدن حياة نمو واحساس

قالوا : ولهذا قلنا ان العظام لاتنجس بالموت ، لأنها لم يكن فيها حياة تزول بالموت

قالوا : وزوال النمو لايوجب نجاسة مافارقه ، بدليل يبس الزرع والشجر

قال آخرون : الدليل على أن العظام تحلها الحياة قوله تعالى (٣٦ : ٧٨ قالَ مَنْ يُحْيِ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٩ قلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أنْشَأهَا أوَّلَ مَرَّةٍ) والحس يدل على ذلك أيضا . فان العظم يألم ويضرب ويسكن ، وذلك نفس احساسه

قالوا : ولايمكن انكار كون العظام فيها قوة حساسة تحس بالبارد والحار

قال الآخرون : الاحساس والألم ليس للعظم فى نفسه ، وانما هو لما جاوره من اللحم

قال المنازعون لهم : هذا مكابرة ظاهرة . فان العظم نفسه يألم ، ولاسيما اذا تصدع . ثم ان الأسنان والأضراس تحس بالألم والحار والبارد بأنفسها ، لا بمجاورها من اللحم . ولهذا توسطت طائفة ثالثة . وقالت : عظام الأسنان خاصة لها الاحساس ، بخلاف سائر العظام . وهؤلاء قد سلموا المسألة من مكان قريب ، فان الذى دل على احساس الاسنان وحياتها ، هو الدال على حياة سائر العظام . والشبهة التى ذكروها لو صحت لمنعت من احساس الاسنان

وأما حديث الطهارة والنجاسة فذاك لأمر آخر وراء الحياة

من نجسها بالموت سوى بينها وبين اللحم ، ومن لم ينجسها ـ وهو الراجح فى الدليل ـ فذاك لعدم علة التنجيس فيها ، وان الموت ليس بعلة النجاسة ، وانما هو دليل العلة وسببها . والعلة هى احتقان الفضلات فى اللحم ، والعظم برىء من ذلك . والدليل على هذا أن الشارع لم يحكم بنجاسة الحيوان النامى الذى لا نفس له سائلة ، لعدم احتقان الفضلات فيه ، فلأن لا يحكم بنجاسة العظم أولى وأحرى . فان الرطوبات التى فى الذباب والعقرب والخنفساء ، أكثر من الرطوبات التى فى العظم

فصل (١٣٣)

والذى أحصاه المشرحون من العظام فى البدن مائتان وثمانية

وأربعون عظما ، سوى الصغار السمسميات التى أحكم بها مفاصل الأصابع والتى فى الحنجرة . وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الانسان خلق من ثلاثمائة وستين مفصلا . فان كانت المفاصل هى العظام فقد اعترف جالينوس وغيره بأن فى البدن عظاماً صغاراً لم تدخل تحت ضبطهم واحصائهم . وان كان المراد بالمفاصل المواضع التى تنفصل بها الأعضاء بعضها عن بعض ـ كما قال الجوهرى وغيره المفصل واحد مفاصل الأعضاء ـ فتلك أعم من العظام فتأمله . وان السلاميات المذكورة فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى ذَرّ « يُصْبِحُ على كل سُلاَمَى من أحدكم صدقة . فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة » الحديث (١) فالسلامَى العظم ، وجمعه سلاميات فهنا ثلاثة أمور : أعضاء ، وعظام ، ومفاصل . وجعل الله سبحانه العظام أصلب شيء فى البدن ، لتكون أساً وعمدة فى البدن ، إذ كانت الاعضاء كلها موضوعة على العظام ، حتى القلب ، كما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى . وهى حاملة للاعضاء ، والحامل أقوى من المحمول .

---

(١) تمامه « وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة . ويجزيء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » قال فى المرقاة : ولعل وجه تخصيصهما بالاجزاء انه وقت غفلة أكثر الناس عن الطاعة والقيام بمقام العبودية ولذا فسر الشفع والوتر بهذه الصورة . والوتر في جوف الليل لكونهما وقت الاستراحة

ولتكون وقاية وجنة أيضا ، كالقحف ، فانه وقاية الدماغ ، وعظام الصدر وقاية له . وجعلت العظام كثيرة لفوائد ومنافع عديدة : منها الحركة ، فان الانسان قد يحتاج الى حركة بعض أجزائه دون بعض . وقد يحتاج الى حركة جزء من عضو

ومنها أنه لو كان على عظم واحد لكان اذا أراد أن يتحرك تحرك بجملته

ومنها أنه كان يتعذر عليه الصنائع والحل والربط

ومنها أنه اذا أصابه آفة عمت جميع البدن ، فجعلت العظام كثيرة ليكون متى نال بعضها آفة لم تسر الى غيره ، وقام غيره من العظام مقامه فى تحصيل تلك المنفعة

ومنها تعذر المنافع التى حصلت بسبب تعدد العظام ، ولولا كثرتها وتعددها لفاتت تلك المنافع

ومنها أن من العظام مايحتاج البدن الى كبيره ، ومنها مايحتاج الى صغيره ، ومنها مايحتاج الى مستطيله ، ومنها مايحتاج الى مجوفه ، ومنها مايحتاج الى محنيه ، ومنها مايحتاج الى مستقيمه . ولا يحصل ذلك الا بتعدد العظام

ومنها بديع الصنع ، وحسن التأليف والتركيب ، وغير ذلك من الفوائد ثم شد الخالق بعضها الى بعض بالرباطات والأسر المحكم ، ثم كساها لحما ، حفظا لها ووقاية . ثم كسى اللحم جلدا ، صونا له

ولما كانت الفضلات تنقسم الى لطيفة وغليظة جعل الله سبحانه

للغليظة منها مجارى تنجذب فيها الى أسفل ، ويخرج منها خروجا ظاهرا للحس . وأما اللطيفة فهى الفضلات البخارية ، ولما كان من شأنها أن تصعد الى فوق و تخرج عن البدن بالتحليل جعل فى العظام العليا منها منافذ . يتحلل منها البخار المتصاعد . فلم تكن تلك المنافذ محسوسة ، لئلا يضعف صوان الدماغ ـ وهو القحف ـ بوصول الأجسام المؤذية اليه . فجعل الدماغ مركبة من عظام كثيرة . ووصل بعضها ببعض بوصل يقال لهـا الشؤون . ومنه قولهم : فلان لم تجمع شئون رأسه (١)

ويشتمل الرأس بجملة أجزائه على تسعة وخمسين عظما . وجعل القحف مستديرا تاما فى مقدمه ومؤخره وجانبيه ، بمنزلة غطاء القدر وعظامه ستة ، وهى : عظم اليافوخ . وعظم الجبهة . وعظم مؤخر الرأس . والعظمان اللذان فيهما ثقبا السمع . وفى كل واحد من الصدغين عظمان مصمتان

وعظام اللحى الأعلى أربعة عشر عظما : ستة منها فى محاجر العينين . واثنـان للأنف . واثنان تحت الأنف . وهما المثقوبان الى الفم . واثنان فى الوجنتين . واثنان تحت الشفة العليا

وأما العظم الشبيه بالوتد فهو واحد وهو كا لقاعدة للرأس

وعظام اللحى الأسفل اثنان : وهما متصلان فى وسط الذقن ،

---

(١) الشئون جمع شأن وهو موصل قبائل الرأس . وأصله عرق فى الجبل ينبت فيه النبع اهـ من القاموس

وبينهما بنيان . ويتصلان من فوق باللحى الأعلى اتصالا مفصلياً

والأسنان اثنان وثلاثون . فى كل لحى ستة عشر : أربع ثنيات وتليها الرباعيات ، وتليها النابان ، ويليهما الأضراس : خمسة من هنا وخمسة من هنا . والنواجذ أول الأضراس ، وهما ناجذان فى كل ناحية ناجذ . وربما نقصت النواجذ فى بعض الأفراد ، وكان فى كل جانب أربعة أضراس

وقد سلم الله غذاء الانسان الى يده ، فتأخذه فتسلمه الى شفتيه فتسلمه الشفتان الى الانياب والثنايا ، فتفصله ، ثم تسلمه الى الاضراس ، فتسلمه وتطحنه ، ثم تسلمه الى اللسان والفم ، فيعجنه ثم يسلمه الى الحلقوم والمرىء ، فيسلمه ويوصله الى المعدة ، فتطبخه وتنضجه ، وتصلحه كما ينبغى ، ثم تسلمه الى الكبد ، فيتسلمه منها ثم يرسل منه الى كل عضو راتبه ومعلومه ، ثم تصب قربة الصفراء فى المرارة السوداء فى الطحال . والثفل يخرجه عنها كما تقدم بيانه

(١٣٦) فصل

والرأس يقال بالعموم على ما يقله العنق بجملته ، ويقال بالخصوص على الفروة . وهى جلدة الرأس حيث منبت الشعر ، والجمجمة العظم الذى يحوى الدماغ ، وهى مؤلفة من سبع قطع متقابلة تسمى القبائل ، وتسمى مواضع التآليف شئونا ، ووسط الجمجمة

يسمى الهامة ، وحد الهامة من الجانبين قرن الرأس ، وحد الهامة من المقدم اليافوخ ، ومن المؤخر القمحدوة ، وهى ما يصيب الأرض من رأس المستلقى على ظهره . ولها ثلاث حدود : نقرة القفا ، والقذالان فنقرة القفا حدها من آخر الوسط . والقذالان جانبا النقرة . وقد تقدم تفصيل القبائل السبع .

وسنظهر الجمجمة عما يحيط بها : السمحاق وسطها غشاوتان : إحداهما تلى الجمجمة ، وهو أثخنهما وأصلبهما . والآخر يكتنف الدماغ ويحيط به ويخالطه ، ويقال لكل منهما : أم الدماغ ، ويسميان الأمان ، ومنه الآمة ، والمأمومة التى فيها ثلث الدية ، وهى الجراحة التى تبلغ أم الدماغ ، ويقال لها : تجويف الدماغ

وبطن وهى ثلاث بطون . وبين بطنى الدماغ اللذين فى مؤخره ووسطه مجرى فيه قطعة من الدماغ مستطيلة شبيهة بالدودة ، ينسد ذلك المجرى وينفتح بها ، وتحت الدماغ سبلة مبسوطة مؤلفة من عروق ضوارب ، يتولد منها روح نفسانى ينفذ الى البطنين اللذين فى مقدم الدماغ

وفى الدماغ البركة ، والحوض ، والقمع ، والدودة ، والبطون والأغشية ، ومبادىء الأعصاب ، ويحتوى الدماغ على ثلاث خزائن نافذ بعضها الى بعض ، وتسمى بطونا : فالأولى فى مقدمه تنقسم الى قسمين ، والثانية فى وسطه ، والثالثة فى مؤخره . وجوهر

الدماغ مخى متزرد الشكل ، كأنه زرد مجموع . والروح النفسانى مثبت فى خلل الزرد والدماغ ، مقسوم فى طوله لنصفين متضامين ، والتنصيف فى مقدم الدماغ أظهر . والغشاءان يدخلان فى فصول الدماغ وتزريده ، والصلب منهما يدخل بطونا بين جزءى البطن المقدم فيحجز بينهما ، وتحته مصفى كالبركة تسمى المعصرة ، تصب فى العروق الدم المنضج ، وتنبعث فى جداول تسقى البطن المقدم ، وتجتمع الى عرقين كبيرين يحملان الدم الى البطن الأوسط والمؤخر ، والبطن الأوسط كدهليز ومنفذ بين المقدم والمؤخر ، وسقفه معقود كالأزج ، والدماغ موضوع طولا على زائدتين متقاربتين ، فيتماسان ويتباعدان الى الانفراج فيفتح الدهليز ويتراءى البطنان المقدم والمؤخر . والجزء المؤخر أخفى تدويرا من المقدم وأصغر زردا ، وهو كرى الاستطالة ويستدق على التدريج ، حتى يسيل منه النخاع كالجدول من العين

وفى الدماغ مجريان : أحدهما فى آخر المقدم . والمؤخر فى الاوسط لدفع فضوله ، ويجتمعان عند منفذ واحد عميق ، أولهما فى الغشاء الرقيق ، والآخر فى الغشاء الصلب ، يأخذ الى ضيق كالقمع

ولما كان الدماغ مبدأ حركات البدن الى إرادته ولم يكن به حاجة الى الحركة القوية ، لحوط عليه بسور من عظام بخلاف المعدة ، والكبد والرحم ، وسائر آلات الغذاء ، فانها لما احتاجت الى أن تتسع و تمتلىء بالغذاء فتحمل مرة بعد أخرى ، وأن تعصر الفضول فتخرجها ،

والعظم يمنع من ذلك ، ويكفى فيه الفصل وحده . فأحيط عليه بسور من عظم

وأما الصدر فانه لما احتاج الى الوثاقة بالعظام وإلى الحركة بالفصل ألف الصدر منهما . وكان البطن أوسع من الصدر ، لما يحل بها من آلات الغذاء ، والتنفس ، والطحال ، والمرىء وغيرها

فصل (١٣٥)

فاستقبل الآن النظر فى نفسك ، وانظر الى المبـــدأ الأول ، وهو النطفة التى هى قطرة مهينة ضعيفة ، لو تركت ساعة لبطلت وفسدت ، كيف أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب ؟ وكيف أوقع المحبة والألفة بين الذكور والاناث . ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع . ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة الوقاع من أعماق العروق ، وجمعها فى الرحم فى قرار مكين ، لا تناله يد ، ولا تطلع عليه شمس ، ولا يصيبه هواء ، ثم صرف تلك النطفة طورا بعد طور ، وطبقا بعد طبق ، وغذاها بماء الحيض

وكيف جعل سبحانه النطفة - وهى بيضاء مشرقة - علقة حمراء ، ثم جعلها مضغة . ثم قسم أجزاء المضغة الى العظام ، والأعصاب . والعروق ، والأوتار ، واللحم ، فى داخل الرحم فى الظلمات الثلاث . ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر فى تلك النطفة



شيئاً بعد شيء ، من غير أن ترى المصور ولا آلته ، ولا قلمه . فهل رأيت مصورا لاتمس آلته ولا تلاقيها ؟

ثم تأمل هذه القبة العظيمة التي قد ركبت على المنكبين ، وما أودع فيها من العجائب ، وما ركب فيها من الخزائن ، وما أودع في تلك الخزائن من المنافع ، وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الأشكال ، والصفات ، والمنافع ، ومن الرطوبات ، والاعصاب ، والطرق ، والمجارى ، والدماغ ، والمنافذ ، والقوى الباطنة . من الذكر ، والفكر ، والتخيل ، وقوة الحفظ . ففيه القوة المفكرة ، والذاكرة ، والمخيلة ، والحافظة . وهذه القوى مودعة في خزائنها ، مسخرة لمصالحها ، يستعملها ، ويستخدمها كيف أراد

فتأمل كيف دور سبحانه الرأس ، وشق سمعه وبصره وأنفه ، وفمه ؟ وكيف ركب كرته في بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظما ، وخلق تلك العظام على كيفيات مختلفة

وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفه الى العظام الصلبة الشديدة ؟

ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص ، بحيث حصل من مجموعها ما لو كان على خلافه لبطلت المنفعة وفات الغرض . ثم ركب بعضها مع بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة

ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الانسانية وأجمعها للقوى ،

والمنافع والآلات والخزائن اقتضت العناية الالهية بأن صين بأنواع من الصيانات. وذلك أن الدماغ يحيطه غشاء رقيق. وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر، يقال له: السمحاق. ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية. وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد. ثم فوق الجلد الشعر. فخلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات، كما خلق فوق الارض سبع سموات طباقا. والمقصود من تخليقها الاحتياط فى صون الدماغ من الآفات. والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن

وهو سبحانه قسمه فى طوله ثلاثة أقسام. وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل، والبطن الأوسط محل التأمل والتفكر، والبطن الأخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه. ولكل واحدة من هذه الامور الثلاثة أمر مهم للانسان، لابدله منه. وأنه محتاج الى التفهم والتفهيم، ولولم يكن حافظا لمعانى التصورات وصورها بعدغيبتها لكان إذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجىء الاخرى، فلم يحصل المقصود من الفهم والافهام، فجعل له ربه وفاطره خزانة تحفظ له صور المعلومات، حتى تجتمع له، وتسمى القوة التى فيها القوة الحافظة، ولا تتم مصلحة الانسان الابها. فانه إذا رأى شيئا، ثم غاب عنه، ثم رآه مرة أخرى عرف أن هذا الذى رآه الآن هو الذى رآه قبل ذلك؛ لأنه فى المرة الاولى ثبتت صورته فى الحافظة، ثم توارى عنه بالحجاب. فلما رآه مرة ثانية صارت هذه الصورة المحسوسة مطابقة للصورة المعنوية التى فى الذهن، فحصل الجزم

بأن هذا ذاك . ولولا القوة الحافظة لما حصل ذلك ، ولما عرف أحد أحداً بعد غيبته عنه . ولذلك اذا طالت الغيبة جدا ، وانمحت تلك الصورة الأولى من الذهن بالكلية ، لم يحصل له العلم بأن هذا هو الذى رآه أولا ، الا بعد تفكر وتأمل

وقد قال قوم : إن محل هذه الصور النفس . وقال قوم : محلها القلب ، وقال قوم : محلها العقل ، ولكل فريق منهم حجج وأدلة ، وكل منهم أدرك شيئاً وغاب عنه شيء . اذ الادراك المذكور مفتقر الى مجموع ذلك ، لا يتم الا به

والتحقيق أن منشأ ذلك ومبدأه من القلب ، ونهايته ومستقره فى الرأس . وهى المسئلة التى اختلف فيها الفقهاء ، هل العقل فى القلب أو فى الدماغ ؟ على قولين : حكيا روايتين عن الامام أحمد . والتحقيق أن أصله ومادته من القلب وينتهى الى الدماغ . قال تعالى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟) فجعل العقل فى القلب ، كما جعل السمع بالأذن ، والبصر بالعين . وقال تعالى (٥٠ : ٣٧ إِنَّ فى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) قال غير واحد من السلف : لمن كان له عقل

واحتج آخرون : بأن الرجل يضرب فى رأسه فيزول عقله . ولولا أن العقل فى الرأس لما زال . فان السمع والبصر لا يزولان بضرب اليد أو الرجل ، ولا غيرهما من الأعضاء ، لعدم تعلقهما بهما

وأجاب أرباب القلب عن هذا بأنه لايمتنع زواله بفساد الدماغ وان كان فى القلب ، لما بين القلب والرأس من الارتباط ، وهذا كما لايمتنع نبات شعر اللحية بقطع الأنثيين ، وفساد القوة بفساد العضو قد يكون، لأنه محلها وارتباطه بها . والله أعلم

وعلى كل تقدير فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته ، كيف ترتسم صورة السموات والأرض والبحار والشمس والقمر والأقاليم والممالك والأمم فى هذا المحل الصغير؟ . والانسان يحفظ كتبا كثيرة جداً ، وعلوما شتى متعددة ، وصنائع مختلفة ، فترتسم كلها فى هذا الجزء الصغير ، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض ، بل كل صورة منهن بنفسها محصلة فى هذا المحل . وأنت لو ذهبت تنقش صورا وأشكالا كثيرة فى محل صغير لاختلط بعضها ببعض ، وطمس بعضها بعضاً . وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة والمتضادة ، ولا يبطل منها صورة صورة

ومن أعجب الأشياء أن هذه القوة العاقلة تقبل ماتؤديه اليها الحواس فتجتمع فيها ، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأخرى . مثاله : أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان ، وتسمع صوته فتعلم أنه هو ، وتلمس الشيء فتعرفه ، وتشمه فتعرف أنه هو ، ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذى رأيته ، فيغنيك سماع صوته عن رؤيته ، ويقوم لك مقام مشاهدته . ولهذا جوز أكثر الفقهاء شهادة الأعمى وبيعه وشراءه . وأجمعوا على جواز وطئه امرأته ، وهو

لم يرها قط، اعتمادا منه على الصوت . بل لو كانت خرساء أيضاً وهو أطرش جاز له الوطء.

وقد جعل الله سبحانه بين السمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطاً ونفوذاً يقوم به بعضها مقام بعض . ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيرا فى كتابه كقوله (١٧ : ٣٦ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا) وقوله تعالى (٤٦ : ٢٦ وجعلنا لَهُمْ سَمْعاً وأبصاراً وأفئِدَةً) وقوله (٧ : ١٧٩ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَيَفْقَهُونَ بِهَا ولَهُمْ أعْيُنٌ لاَيُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَيَسْمَعُونَ بِهَا) وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية ، لتقوم كل حاسة منها مقام الحاسة الأخرى ، وتفيد فائدتها فى الجملة ، لا فى كل شىء .

ثم أودع سبحانه قوة التفكر وأمره باستعمالها فيما يجدى عليه النفع فى الدنيا والآخرة ، فركب القوة المفكرة من شيئين من الأشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيبا خاصا ، فيتولد من بين هذين الشيئين شىء ثالث جديد لم يكن للعقل شعور به ، كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب حصل له الأمر الثالث ، ومن هنا حصل استخراج الصنائع ، والحرف ، والعلوم ، وبناء المدن والمساكن ، وأمور الزراعة والفلاحة ، وغير ذلك ، فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك واستحسنته سلمته الى القوة الارادية العلمية ، فنقلته من ديوان الأذهان الى ديوان الأعيان ، فكان أمرا ذهنيا ، ثم صار وجوديا خارجيا ، ولولا الفكرة لما اهتدى الانسان الى تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، وذلك من

أعظم النعم ، وتمام العناية الالهية ، ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تمكن منه أرباب الفكر . ولما كان استخراج المطلوب بهذه الطريق يتضمن فكرا وتقديرا فيفكر فى استخراج المادة أولا ، ثم يقدرها ويفصلها ثانياً كما - يصنع الخياط . يحصل الثوب ثم يقدره ويفصله ثانياً ، قال تعالى عن الوحيد (٧٤ : ١١ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١٢ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا ١٣ وَبَنِينَ شُهُودًا ١٤ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ١٥ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٦ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ١٧ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ١٨ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٩ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) فكرر سبحانه التقدير دون التفكير ، وذمه عليه دونه . وهذا منزل على مقتضى حال سواه . فانه بالفكر طالب لاستخراج المجهول . وذلك غير مذموم . فلما استخرجه قدر له تقديرين : تقديرا كليا وتقديرا جزئيا . فالتقدير الكلى أن الساحر هو الذى يفرق بين المرء وزوجه . والتقدير الجزئى أن الذى يفرق بين المرء وزوجه مذموم . فهنا تقدير بعد تقدير . فلهذا كرره سبحانه وذمه عليه . وأما التفكير فان الفكر طالب لمعرفة الشيء . فلا يذم ، بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله الى تحقيق الباطل وابطال الحق . فتأمله

فصل (١٣٦)

ثم انزل الى العين ، وتأمل عجائبها ، وشكلها ، وخلقها ، وايداع النور الباصر فيها ، وتركيبها من عشر طبقات ، وثلاث رطوبات . ولكل واحد

من هـذه الطبقات والرطوبات شكل مخصوص ومقدار مخصوص لو لم يكن عليه لاختلت المصلحة المقصودة . وجعل سبحانه موضع الابصار فى قدر العدسة . ثم أظهر فى تلك العدسة قدر السماء والأرض والجبال والبحار والشمس والقمر . فانظر كيف اتسعت تلك العدسة أن يرتسم فيها مالانسبة لها اليه ألبتة ؟ وجعل تلك القوة الباصرة فى جزء أسود . فتأمل كيف قام الباصر بهذا الجزء الأسود ؟

وجعل سبحانه الحدقة مصونة بالاجفان ، لتسترها ، وتحفظها ، وتصقلها ، وتدفع الاقذاء عنها . وجعل شعر الأجفان أسود ليكون سواده سبباً لاجتماع النور الذى به الأبصار ، ويكون مانعاً من تفرقه ، ويكون أبلغ فى الحسن والجمال

وخلق سبحانه لتحرك الحدقة أربعة وعشرين عضلة ، لو نقصت واحدة منهن لاختل أمر العين

ولما كانت العين شبيهة بالمرآة ــ التى انما ينتفع بها اذا كانت فى غاية الصقالة والصفاء ــ جعل سبحانه الأجفان متحركة الى الانفتاح والاطباق أبدا باختيار الانسان وغير اختياره ، لتبقى الحدقة نقية صافية عن جميع الكدورات . وجعل العينين بمنزلة المرآتين الصقيلتين اللتين تنطبع فيهما صور الأشياء الخارجة ، فيتأثر القلب ، ثم يظهر مافيه عليهما فيتأثران به . فهما مرآة لما فى القلب يظهر فيهما ، ومرآة لما فى الخارج تنطبع صورته فيهما . فالعينان على القلب كالزجاجتين الموضوعتين فى المرآة ، ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب

من رضاه ، وغضبه ، وحبه ، وبغضه ، ونفرته . ومن أعجب الأشياء أن العين من ألطف أعضاء البدن ، وهى لا تتأثر بالحر والبرد تأثر غيرها من الأعضاء الكثيفة ، ولو كان الأمر عائدا إلى مجرد الطبيعة لكان ينبغى أن يكون الأمر بالعكس ، لأن الألطف أسرع تأثراً . فعلم أن حصول هذه المصالح ليس هو بمجرد الطبع

فصل ١٣٧

ثم اعدل الى الأذنين ، وتأمل شقهما ، وخلقهما ، وإيداع الرطوبة فيهما ، ليكونا عونا على ادراك السمع ، وجعلها مرة لتمتنع الهوام عن الدخول فى الأذن ، وحوطهما سبحانه بصدفتين يجمعان الصوت ويؤديانه إلى الصماخ . وجعل فى الصدفتين تعريجات ، لتطول المسافة فتنكسر حدة الصوت ولا تلج الهوام دفعة ، بل تكثر حركاتها فينتبه لها فيخرجها . وجعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين ، لأن العينين بمنزلة الطليعة والكاشف والرائد ، الذى يتقدم القوم ليكشف لهم ، وبمنزلة السراج الذى يضىء للسالك ما أمامه . وأما الأذنان فيدركان المعانى الغائبة التى ترد على العبد من أمامه ومن خلفه وعن جانبيه . فكان جعلهما فى الجانبين أعدل الأمور . فسبحان من بهرت حكمته العقول

وجعل للعينين غطاء ؛ لأن مدرك الأذن الأصوات ، ولا بقاء لها ، فلو جعل عليهما غطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء ، فزالت المنفعة

المقصودة . وأما مدرك العين فأمر ثابت . والعين محتاجة إلى غطاء يقيها ، وحصول الغطاء لايؤثر فى الادراك . وقال بعض أهل العلم : عينا الانسان هاديان ، وأذناه رسولان إلى قلبه ، ولسانه ترجمان ، ويداه جناحان ، ورجلاه بريدان . والقلب ملك . فاذا طاب الملك طابت جنوده . وإذا خبث خبثت جنوده

فصل (١٣٨)

ثم انزل الى الأنف ، وتأمل شكله وخلقته ، وكيف رفعه سبحانه فى وسط الوجنة بأحسن شكل ، وفتح فيه بابين ، وأودع فيهما حاسة الشم ، وجعله آلة لاستنشاق الهواء وادراك الروائح على اختلافها . فيستنشق بهما الهواء البارد والطيب . فيستغنى بالمنخرين عن فتح الفم أبدا ، ولولاهما لاحتاج الى فتح فيه دائما ، وجعل سبحانه تجويفه واسعا لينحصر فيه الهواء وينكسر برده قبل الوصول الى الدماغ . فان الهواء المستنشق ينقسم قسمين : شطرا منه ـ وهو أكثره ـ ينفذ الى الرئة ، وشطرا ينفذ الى الدماغ . ولذلك يضر المزكوم استنشاق الهواء البارد . وجعل فى الأنف أيضا اعانة على تقطيع الحروف . وجعل بين المنخرين حاجزا . وذلك أبلغ فى حصول المنفعة المقصودة ، حتى كأنهما أنفان بمنزلة العينين ، والأذنين ، واليدين ، والرجلين . وقد يصيب أحد المنخرين آفة فيبقى الآخر سالما . وجعل تجويفه نازلا الى أسفل ، ليكون مصبا للفضلات النازلة

عن الدماغ . وستره بساتر أبدى، لئلا تبدو تلك الفضلات في عين الرائى

تأمل منفعة النفَس الذى لو قطع عن الانسان لهلك ، وهو أربعة وعشرون ألف نفس فى اليوم والليلة ، قسط كل ساعة ألف نفس

وتأمل كيف يدخل الهواء فى المنخرين ، فينكسر برده هناك ، ثم يصل الى الحلقوم ، فيعتدل مزاجه ، ثم يصل الى الرئة ، فيصفى فيها من الغلظ والكدرة . ثم يصل الى القلب أصفى ما كان وأعدله، فيروح عنه ، ثم ينفذ منه الى العروق المتحركة ويتقدم الى أقاصى أطراف البدن ، ثم اذاسخن جدا وخرج عن حد الانتفاع به عاد عن تلك الأقاصى الى البدن ، ثم الى الرئة ، ثم الى الحلقوم ، ثم الى المنخرين ، ثم يخرج ويعود مثله ، وهكذا أبداً . فمجموع ذلك هو النفس الواحد . وقد أحصى الرب عدد هذه الأنفس ، وجعل مقابل كل نفس منها ماشاء الله من الأحقاب فى الجحيم ، أو فى النعيم فما أسفه من أضاع ماهذا قيمته فى غير شيء

(١٣٩) فصل

وهو سبحانه جعل القلب أمير البدن ، ومعدنا للحرارة الغريزية فاذا استنشق الهواء البارد وصل إلى القلب واعتدلت حرارته ، فيبقى هناك مدة ، فلما سخن واحترق ، واحتاج الى إخراجه ودفعه منه ، لم يضيع أحكم الحاكمين ذلك النفس ويخرجه بغير فائدة ، بل جعل

اخراجه سببا لحدوث الصوت . ثم جعل سبحانه فى الحنجرة واللسان والحنك باختلافها الصوت ، فيحدث الحرف ، ثم ألهم الانسان أن يركب ذلك الحرف الى مثله ونظيره ، فيحدث الكلمة ، ثم ألهمه تركيب تلك الكلمة الى مثلها ، فيحدث الكلام

فتأمل هذه الحكم الباهرة فى ايصال النفس الى القلب لحفظ حياته ، ثم عند الحاجة الى اخراجه والاستغناء عنه جعله سببا لهذه المنفعة العظيمة . فتبارك الله أحسن الخالقين

وخلق سبحانه هذه المقاطع والحناجر مختلفة الأشكال ، فكما انه لا تتشابه صورتان ، كذلك لا يتشابه صوتان من كل وجه ، بل كما يحصل الامتياز بين الأشخاص بالقوة الباصرة ، فكذلك يحصل بالقوة السامعة ، فيحصل الامتياز للأعمى والبصير

(١٤٠) فصل

ثم انزل الى الصدر تر معدن العلم ، والحلم ، والوقار ، والسكينة والبر ، وأضدادها . فتجد صدور العلية تعلو بالبر والخير والعلم والاحسان ، وصدور السفلة تغلى بالفجور والشرور ، والاساءة ، والحسد ، والمكر

ثم انفذ من ساحة الصدر الى مشاهدة القلب تجد ملكا عظيما جالسا على سرير مملكته ، يأمر ، وينهى ، ويولى ، ويعزل . وقد حف به الأمراء والوزراء والجند ، كلهم فى خدمته ، ان استقام استقاموا

وان زاغ زاغوا ، وان صح صحوا ، وان فسدفسدوا . فعليه المعول ، وهو محل نظر الرب تعالى ، ومحل معرفته ، ومحبته وخشيته ، والتوكل عليه ، والانابة اليه ، والرضى به ، وعنه ، والعبودية عليه أولا وعلى رعيته وجنده تبعا . فأشرف ما فى الانسان قلبه . فهو العالم بالله ، الساعى اليه ، المحب له . وهو محل الايمان والعرفان ، وهو المخاطب المبعوث اليه الرسل ، المخصوص بأشرف العطايا ، من الايمان والعقل . وانما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد ، والراعى للرعية ، والذى يسرى الى الجوارح من الطاعات والمعاصى ، انما هى آثاره . فان أظلم أظلمت الجوارح ، وان استنار استنارت ، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل

فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب الذى يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته ودينه ، مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد . أوحى الى قلوب الأولياء أن أقبلى الىّ ، فبادرت وقامت بين يدى رب العالمين . وكره عز وجل انبعاث آخرين فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . كانت أكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا وَمُقَلِّبِ القلوب » وكان من دعائه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك » قال بعض السلف : لَلقلبُ أشد تقلبا من القِدْرِ اذا استجمعت

غليانها . وقال آخر : القلب أشد تقلبا من الريشة بأرض فلاة فى يوم ريح عاصف

ويطلق القلب على معنيين : أحدهما أمر حسى وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل ، المودع فى الجانب الايسر من الصدر ، وفى باطنه تجويف ، وفى التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح . والثانى أمر معنوى ، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص . وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسانية .

وللقلب جندان : جندى يرى بالابصار ، وجندى يرى بالبصائر . فأما جنده المشاهد فالاعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافا . فاذا أمر العين بالانفتاح انفتحت . واذا أمر اللسان بالكلام تكلم . وإذا أمر اليد بالبطش بطشت . وإذا أمر الرجل بالسعى سعت . وكذا جميع الاعضاء ذللت له تذليلا

ولما خلق القلب للسفر الى الله والدار الآخرة وحصل فى هذا العالم ليتزود منه افتقر الى المركب والزاد لسفره الذى خلق لأجله . فأعين بالأعضاء والقوى ، وسخرت له ، وأقيمت له فى خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع ، ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ، فافتقر الى جندين : باطن ، وهو الارادة ، والشهوة ، والقوى . وظاهر وهو الأعضاء . فخلق فى القلب من الارادات والشهوات ما احتاج اليه . وخلقت له الأعضاء التى هى آلة الارادة ، واحتاج فى دفع المضار الى جندين : باطن ، وهو الغضب الذى يدفع المهلكات ،

وينتقم به من الأعداء . وظاهر وهو الأعضاء التي ينفذ بها غضبه ، كالأسلحة للقتال . ولا يتم ذلك الا بمعرفته ما يجلب ومايدفع ، فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ماينفعه ومايضره

ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من الملائكة ، وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته ، وجعل بازائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ، فما ابتلي بصفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفا ومحلا ينفذها فيه ، فجعل لقوة الحسدفيه مصرفا ، وهو المنافسة فى فعل الخير ، والغبطة عليه ، والمسابقة اليه ، ولقوة الكبر مصرفا وهو التكبر على أعداء الله تعالى واهانتهم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن رآه يختال بين الصفين فى الحرب « انها لمشيَةٌ يبغضها الله الا فى هذا الموطن » وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه

وجعل لقوة الحرص مصرفا ، وهو الحرص على ماينفع ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « احرص على ماينفعك » ولقوة الشهوة مصرفا ، وهو التزوج بأربع ، والتسرى بما شاء . ولقوة حب المال مصرفا ، وهو انفاقه فى مرضاته تعالى ، والتزودمنه لمعاده . فمحبة المال على هذا الوجه لاتذم . ولمحبة الجاه مصرفا ، وهو استعماله فى تنفيذ أوامره ، واقامة دينه ، ونصر المظلوم ، واغاثة الملهوف ، واعانة الضعيف ، وقمع أعداء الله . فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة . وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفا ، وهو لهوه مع امرأته ، أو بقوسه

وسهمه ، أو تأديبه فرسه . وكل ماأعان على الحق . وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفا ، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل ، حتى يراغمه ويرده خاسئا . ويستعمل معه من أنواع المكر مايستعمله عدوه معه . وهكذا جميع القوى التى ركبت فيه جعل لها مصرفا . وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولا يطلب تعطيلها ، وإنما تصرف مجاريها من محل الى محل ، ومن موضع الى موضع . ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة اليه ، وعظم الانتفاع به

(١٤١) فصل

وجماع الطرق والأبواب التى يصان منها القلب وجنوده أربعة ، فمن ضبطها وعدلها وأصلح مجاريها وصرفها فى محالها اللائقة بها استفاد منها قلبه وجوارحه ، ولم يشمت به عدوه : وهى الحرص ، والشهوة ، والغضب ، والحسد . فهذه الأربعة هى أصول مجامع طرق الشر والخير ، وكما هى طرق الى العذاب السرمدى ، فهى طرق الى النعيم الأبدى . فآدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم أخرج من الجنة بالحرص ، ثم أدخل اليها بالحرص . ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثانى . وأبو الجن أخرج منها بالحسد ، ثم لم يوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «لا حسد

إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا وسلَّطه على هلَكته فى الحق ، ورجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار (١) »

وأما الغضب فهو غول العقل ، يغتاله كما يغتال الذئب الشاة ، وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته . وإذا كان حرصه إنما هو على ما ينفعه ، وحسده منافسة فى الخير ، وغضبه لله على أعدائه ، وشهوته مستعملة فيما أبيح له وعوناً له على ما أمر به ، لم تضره هذه الأربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع .

(١٤٢) فصل

وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب ، فهذا يُلمّ به مرة ، وهذا يلم به مرة ، فاذا ألَمَّ به الملك حدث من لَمّته الانفساح ، والانشراح ، والنور ، والرحمة ، والاخلاص ، والانابة ، ومحبة الله ، وإيثاره على ما سواه ، وقصر الأمل ، والتجافى عن دار البلاء ، والامتحان ، والغرور . فلو دامت له تلك الحالة لكان فى أهنأ عيش وألذه وأطيبه . ولكن تأتيه لَمة الشيطان ، فتحدث له من الضيق ، والظلمة ، والهم ، والغم ، والخوف ، والسخط على المقدور ، والشك فى الحق ، والحرص على الدنيا

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود . والحسد يطلق ويراد منه تمنى زوال النعمة عن المحسود . وهذا حرام . ويطلق ويراد منه الغبطة وهى تمني مثل الذي له . وهذا لا بأس به ، وهو المراد هنا

وعاجلها، والغفلة عن الله - ماهو من أعظم عذاب القلب .

ثم للناس فى هـذه المحنة مراتب لايحصيها إلا الله : فمنهم من تـكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى . فاذا ألمّ به الشيطان وجد من الألم والضـيق ، والحصر ، وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب ، فيبـادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تسـتحكم فيصعب تداركها . فهو دائماً فى حرب بين اللمتين ، يدال له مرة ، ويدال عليه مرة أخرى . والعاقبة للتقوى .

ومنهم من تـكون لمة الشـيطان أغلب عليه وأقوى ، فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تسـتحكم ويصير الحكم لها ، فيموت القلب ، ولا يحس مانا له الشـيطان به ، مع أنه فى غاية العذاب والضـيق والحصر ، ولـكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الاحسـاس بذلك الألم . فاذا كشف أمكنه تداركه بالدواء ، وحسمه ، وان عاد الغطاء عاد الأمر كما كان ، حتى ينـكشف عنه وقت المفارقة للدنيا ، فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان ، وهى لم تتجدد له ، وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل . فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامناً وتجدد له أضعافه .

(١٤٣) فصل

والشيطان يُلم بالقلب لما كان هناك من جواذب تجـذبه ، وهى نوعان : صفات ، وإرادات . فاذا كانت الجواذب صـفات قوى

سلطانه هناك ، واستفحل أمره ، ووجد موطناً ومقراً ، فتأتى الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس ، لاتدفع سلطان الشيطان . لأن مركبه صفة لازمة . فاذا قلع العبد تلك الصفات وعمل على التطهر منها والاغتسال ، بقى للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمات من غير استقرار . وذلك يضعفه ، ويقوى لمة الملك . فتأتى الأذكار ، والدعوات والتعوذات ، فتدفعه بأسهل شىء .

واذا أردت لذلك مثالا مطابقاً : فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع ، وبينك وبينه لحم أو خبز . وهو يتأملك ويراك لاتقاومه وهو أقرب منك . فأنت تزجره ، وتصيح عليه ، وهو يأبى الا التحوم عليك ، والغارة على مابين يديك . فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له . ولكن معلومه ومراده عندك ، وقد قربته عليك فاذا لم يكن بين يديك شىء يصلح له وقد تأملك فرآك أقوى منه فانك تزجره وتصيح عليه فيذهب . وكذلك القلب الخالى عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر .

وأما القلب الذى فيه تلك الصفات التى هى مركبه وموطنه ، فيقع الذكر فى حواشيه وجوانبه ، ولا يقوى على اخراج العدو منه . ومصداق ذلك تجده فى الصلاة ، فتأمل فى الحال وانظر هل تخرج الصلاة بأذكارها وقراءتها الشيطان من قلبك ، وتفرغه كله لله تعالى بكليته وتقيمه بين يدى ربه مقبلا بكليته عليه ، يصلى لله تعالى ، كأنه

يراه ، قد اجتمع همه كله على الله ، وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به فى محل الخواطر والوساوس أم لا ؟ والله المستعان

وههنا نكتة ينبغى التفطن لها ، وهى ان القلوب الممتلئة بالأخلاط الرديئة . فالعبادات، والأذكار والتعوذات ، أدوية لتلك الأخلاط كما يثير الدواء أخلاط البدن . فان لم يكن قبل الدواء وبعده حمية لم يزد الدواء على إثارته ، وإن أزال منه شيئا ما . فمدار الأمر على شيئين : الحمية ، واستعمال الأدوية

(١٤٤) فصل

وأول ما يطرق القلب الخطرة ، فان دفعها استراح مما بعدها ، وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة . فكان دفعها أصعب . فان بادر ودفعها ، وإلا قويت ، وصارت شهوة . فان عالجها ، وإلا صارت ارادة، فان عالجها وإلا صارت عزيمة. ومتى وصلت الى هذه الحال لم يمكن دفعها . واقترن بها الفعل ولابد . وما يقدر عليه مرة بدون مقدماته . وحينئذ ينتقل العلاج الى أقوى الأدوية ، وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح . ولا ريب أن دفع مبادىء هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله ـ ان ساعد القدر وأعان التوفيق ، وان الدفع أولى به . وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب ، فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المشوب بالآلام والهموم ، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذى لا نسبة

لهذا المحبوب إليه ألبتة لا فى قدره . ولا فى بقائه . وليوازن بين ألم فوته وبين ألم فوت المحبوب الاخس ، وليوازن بين لذة الانابة والاقبال على الله تعالى ، والتنعم بحبه ، وذكره ، وطاعته ، ولذة الاقبال على الرذائل ، والانتان والقبائح . وليوازن بين لذة الظفر بالذنب ، ولذة الظفر بالعدو ، وبين لذة الذنب ، ولذة العفة ، ولذة الذنب ، ولذة القوة ، وقهر العدو ، وبين لذة الذنب ، ولذة ارغام عدوه ، ورده خاسئا ذليلا . وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التى تحول بينه وبين مراده وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه ، وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه ، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلا ، وفرحة مايثيبه عليه فى دنياه وآخرته . والله المستعان

وهذا فصل جره الكلام فى قوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) أشرنا اليه اشارة . ولو استقصيناه لاستدعى عدة أسفار ، ولكن فيما ذكرناه تنبيه على ما تركناه . وبالله التوفيق

(١٤٥) فصل

ولنرجع الى المقصود . ثم قال الله تعالى (وَفى السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) أما الرزق ففسر بالمطر ، وفسر بالجنة ، وفسر برزق الدنيا والآخرة . ولاريب أن المطر من الرحمة ، وان الجنة مستقر الرحمة . فرزق الدارين فى السماء التى هى فى العلو . وقوله تعالى :

(وماتوعدون) قال عطاء رضى الله عنه : من الثواب والعقاب . وقال الكلبي : من الخير والشر . وقال مجاهد : من الجنة والنار . وقال ابن سيرين : من أمر الساعة

قلت : كون الجنة والخير فى السماء فلا اشكال فيه ، وكون النار فى السماء وما يوعد به أهلها يحتاج الى تبيين ، فاذا نظرت الى أسباب الخير والشر ، وأسباب دخول الجنة والنار ، وافتراق الناس ، وانقسامهم الى شقى وسعيد ، وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره ، النازل من السماء . وذلك كله مثبت فى السماء فى صحف الملائكة ، وفى اللوح المحفوظ ، قبل العمل وبعده . فالامر كله من السماء . وقول من قال: من أمر الساعة : يكشف عن هذا المعنى فان أمر الساعة يأتى من السماء ، وهو الموعود بها . فالجنة والنار الغاية التى لأجلها قامت الساعة . فصح كل ما قال السلف فى ذلك . والله أعلم

(١٤٦) فصل

ثم أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به ، على أجل مقسم عليه وأكد الأخبار بهذا القسم ، ثم أكده بتشبيهه بالامر المحقق الذى لايشك فيه ذو حاسة سليمة . فقال : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد إنه لحق واقع ، كما أنكم تنطقون . وقال الفراء : إنه لحق كما أن

الآدمى ناطق ، وقال الزجاج : هذا كما تقول فى الكلام : إن هذا لحق كما أنك ههنا

قلت : وفى الحديث « إنه لحق كما انك ههنا » فشبه سبحانه تحقيق ما أخبر به بتحقيق نطق الآدمى ووجوده . والواحد منا يعرف أنه ناطق ضرورة ، ولا يحتاج نطقه الى استدلال على وجوده ، ولا يخالجه شك فى أنه ناطق . فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأسمائه ، وصفاته حق ثابت فى نفس الأمر ، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده . وهذا باب يعرفه الناس فى كلامهم . يقول أحدهم : هذا حق مثل الشمس . وأفصح الشاعر عن هذا بقوله :

وليس يصح فى الأذهان شىء   اذا احتاج النهار الى دليل

وههنا أمر ينبغى التفطن له ، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به ، وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه ، وهو أبر المقسمين وأكده بتشبيهه بالواقع الذى لا يقبل الشك بوجه . وأقام عليه من الادلة العيانية والبرهانية ماجعله معاينا مشاهدا بالبصائر ، وان لم يعاين بالابصار . ومع ذلك فأكثر النفوس فى غفلة عنه . لاتستعد له ، ولاتأخذ له أهبة ، والمستعد له الآخذ له أهبة لايعطيه حقه منهم الا الفرد بعد الفرد ، فأكثر الخلق لاينظرون فى المراد من إيجادهم واخراجهم الى هذه الدار ، ولايتفكرون فى قلة مقامهم

فى دار الغرور ، ولا فى رحيلهم وانتقالهم عنها ، ولا الى أين يرحلون؟ وأين يستقرون ؟ قد ملكهم الحس ، وقل نصيبهم من العقل ، وشملتهم الغفلة ، وغرتهم الامانى التى هى كالسراب ، وخدعهم طول الامل ، وكأن المقيم لا يرحل ، وكأن أحدهم لا يبعث ولا يسئل ، وكأن مع كل مقيم توقيع من الله : لفلان ابن فلان بالامان من عذابه ، والفوز بجزيل ثوابه . فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت فانهم حصلوها ، ومن أى وجه لاحت أخذوها ، غافلين عن المطالبة ، آمنين من العاقبة . يسعون لما يدركون . ويتركون ماهم به مطالبون . ويعمرون ماهم عنه منتقلون . ويخربون ماهم اليه صائرون . وهم عن الآخرة هم غافلون . ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون فى مصالحها . ولا يأخذون فى جمع زادها فى سفرها (٥٩ : ١٩ نَسُوا اللّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته ، وتحصى عليه أنفاسه ، ومطايا الليل والنهار تسرع به ، ولا يتفكر الى أين يحمل ، ولا إلى أى منزل ينقل ؟

وكيف تنام العين وهى قريرة * ولم تدر فى أى المحلين تنزل ؟

وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته ، وذهاب لذاته ، لا لما سبق من جناياته ، ولا لسوء منقلبه بعد مماته . فان خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة ، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولابد . فلو أن العاقل أحضر ذهنه مااستحضر عقله ، وسار

بفكره، وأمعن النظر، وتأمل الآيات، لفهم المراد من إيجاده، ولنظرت عين الراحل إلى الطريق، ولأخذ المسافر فى التزود، والمريض فى التداوى. والحازم مايجوز أن يأتى. فما الظن بأمر متيقن، كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم، وكأنهم يعاينون الأمر، فأضحت ربوع الايمان من أهلها خالية. ومعالمه على عروشها خاوية. قال ابن وهب: أخبرنى مسلم بن على، عن الاوزاعى، قال: كان السلف اذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤسهم الطير مقبلين على أنفسهم، حتى لو أن حبيبا لأحدهم غاب عنه حينا ثم قدم لما التفت اليه. فلا يزالون كذلك الى طلوع الشمس. ثم يقوم بعضهم إلى بعض. فيتحلقون بأول مايقتضون فيه أمر معادهم، وماهم صائرون اليه. ثم يأخذون فى الفقه.

(١٤٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى: (٥٠: ١ ق والقرْآنِ المَجِيدِ ٢ بَلْ عَجِبُوا أنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) الصحيح أن ق، ون، وص، بمنزلة حم. وألم. وطس: تلك حروف مفرد وهذه متعددة. وقد تقدمت الاشارة الى بعض مافيها قبل

وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه. وأنه حق من عنده. ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به، لما فى القسم من الدلالة عليه، أو لأن المقصود نفس المقسم به

كما تقدم بيانه ، ثم أخذ سبحانه فى بيان عجب الكفار من غير عجيب ، بل بما لا ينبغى أن يقع سواه ، كما قال سبحانه (١٠ : ١ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فأى عجب من هذا حتى يقول الكافرون (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ) ؟ وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده ، وهدايته ، وانعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بطريق الخير والشر وماهم صائرون اليه بعد الموت ، وأمرهم ونهيهم ، حتى يقابل ذلك بالتعجب ، ونسبة ماجاء به الى السحر ، لولا غاية الجهل والظلم ، وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم كما قال تعالى (١٣ : ٥ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ)

(١٤٨) فصل

ومن ذلك (٤٣ : ١ حم والْكِتَابِ الْمُبِينِ) وقوله (٣٨ : ١ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) وقوله (٣٦ : ١ يس ٢ والقرآنِ الْحَكِيمِ ٣ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) والصحيح أن يس بمنزلة حم والم ، ليست أسما من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم

وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله ، وصحة نبوته ورسالته فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه . وقوله تعالى (على صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

وجوز فيه ثلاثة : أن يكون خبرا بعد خبر ، فأخبر عنه بأنه رسوله وأنه على صراط مستقيم . وأن يكون متعلقا بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله أى أرسلتك على صراط . وهذا يحتاج الى بيان تقدير : المجعولين على صراط مستقيم ، وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره .

(١٤٩) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (والصافّات صفّاً) أقسم سبحانه بملائكته الصافات للعبودية بين يديه ، كما قال النبي ﷺ لأصحابه « ألا تَصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ تتمون الصفوف الأول ، وتراصون فى الصف » وكما قالوا عن أنفسهم (٣٧ : ١٦٥ وإنَّا لنحن الصَّافُّون) والملائكة الصافات أجنحتها فى الهواء . والزاجرات الملائكة التى تزجر السحاب وغيره بأمر الله ، (فالتاليات) التى تتلو لكلام الله . وقيل : الصافات الطير : كما قال تعالى (٦٧ : ١٩ أولم يَرَوْا الى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) وقال تعالى (٢٤ : ٤١ والطير صافات) والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصى الله ، والتاليات الجامعات لكتاب الله تعالى . وقيل : الصافات للقتال فى سبيله ، فالزجرات الخيل للحمل على أعدائه ، فالتاليات الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم . وقيل : الجامعات الصافات أبدانها فى الصلاة ، الزاجرات أنفسها عن معاصى الله . فالتاليات

آياته . والللفظ يحتمل ذلك كله ، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى الملائكة . فان الاقسام كالدليل والآية على صحة ماأقسم عليه من التوحيد ، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة ، وبواسطتها كان

وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته ، وقرر توحيد ربوبيته . فقال (انَّ إلهَكُمْ لَوَاحِدٌ . رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المَشَارِقِ) من أعظم الأدلة على انه إلّه واحد . ولو كان معه إلّه آخر لكان الاله مشاركا له فى ربوبيته ، كما شاركه فى إلهيته . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الالهية بتوحيد الربوبية ، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده . وخص المشارق ههنا بالذكر اما لدلالتها على المغارب ، إذ الأمر ان المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر ، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار . وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب ، وجعلها حفظا من كل شيطان . فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق . والله تعالى أعلم

(١٥٠) فصل

ومن ذلك قوله فى قصة لوط عليه السلام ، ومراجعته قومه له (١٥ : ٧٠ قالوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِينَ؟ ٧١ قال هٰؤُلَاءِ بَنَاتِى إِنْ

كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ٧٢ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) أكثر المفسرين من السلف والخلف - بل لا يعرف عن السلف فيه نزاعاً ، أن هذا قسم من الله بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته . وهذه مزية لا تعرف لغيره . ولم يوافق الزمخشري على ذلك ، فصرف القسم الى أنه بحياة لوط وانه من قول الملائكة ، فقال : هو على ارادة القول ، أي قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام : لعمرك : انهم لفي سكرتهم يعمهون . وليس في اللفظ مايدل على واحد من الامرين ، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على مافهمه السلف لا أهل التعطيل والاعتزال . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لعمرك ، أي وحياتك ، قال : وما أقسم الله تعالى بحياة نبي غيره . والعَمْر والعُمر واحد . إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لاثبات الأخف ، لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم . وأيضا فان العمر حياة مخصوصة . فهو عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به ، لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم . ولا ريب أن عمره وحياته صلى الله عليه وسلم من أعظم النعم والآيات فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات(١)

---

(١) هذا انما هو في قسم الله تعالى به ، لا في قسم الخلق وحلفهم به صلى الله عليه وسلم وبغيره من المخلوقات . فان هذا من أعظم المحرمات ففي الحديث المتفق عليه عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع

وقوله تعالى (يعمهون) أى يتحيرون . وانما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة ، لان سكرة العشق مثل سكرة الخمرة ، كما قال القائل :
سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة * ومتى إفاقة من به سكران ؟

(١٥١) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٤ : ٦٥ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيما) أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسما مؤكدا بالنفى قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله فى كل ماشجر بينهم من الأصول والفروع واحكام الشرع واحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها . ولم يثبت لهم الايمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفى عنهم الحرج ، وهو ضيق الصدر ، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح ، وتقبله كل القبول . ولم يثبت لهم الايمان

عمر وهو يحلف بأبيه ، فقال « إن الله ينها كم أن تحلفوا بآبائكم . فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وفى رواية للترمذى أن ابن عمر سمع رجلا يقول : لاوالكعبة : فقال : لاتحلف بغير الله ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك » قال الترمذى : حسن . وصححه الحاكم . وورد مثل هذا عن ابن مسعود وقال ابن مسعود : لأن أحلف بالله كاذبا أحب الى من أن أحلف بغيره صادقا

بذلك أيضا حتى ينضاف اليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم ، وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض . فهنا قد يحكم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه ، ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم . والانقياد اذ قد يحكمه وينتفى الحرج عنه فى تحكيمه ، ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه . والتسليم أخص من انتفاء الحرج . فالحرج مانع ، والتسليم أمر وجودى ، ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه . اذ قد ينتفى الحرج ويبقى القلب فارغا منه ومن الرضى به والتسليم له . فتأمله

وعند هذا يعلم أن الرب تبارك وتعالى أقسم على انتفاء إيمان أكثر الخلق . وعند الامتحان تعلم هل هذه الأمور الثلاثة موجودة فى قلب أكثر من يدعى الاسلام أم لا ؟

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين . وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين . والحمد لله رب العالمين

وكان الفراغ من طبعه فى يوم الاحد الرابع من شهر المحرم مفتتح السنة الثانية والخمسين بعد ثلاثمائة والالف من هجرة أشرف الخلق وخاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

وذلك بمطبعة الشاب النشيط محمد أفندى عبد اللطيف حجازى . زاده الله توفيقا واحسانا